الكون الموزون

والساجد والمسبح

أ. د. حنان قرقوتي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الكون الموزون

والسّاجد والمُسَبِّح

أ. د. حنان قرقوتي

كلّيّة الإمام الأوزاعيّ للدّراسات الإسلاميّة

بيروت – لبنان

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بسم الله الرّحمن الرّحيم

المقدِّمة

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّد الأنبياء والمرسَلين هادي النّاس إلى صراط الله المستقيم.

أمّا بعد،

فقد خلق الله الجنّ والإنس، وأمرَهم بعبادته بقوله جلّ من قائل: ﴿وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاّ لِيَعْبُدونِ﴾[1]، وجعل العبادة أنواعاً متعدِّدة يمارسها المسلم بشكل يوميّ، وموزَّعة على تفاصيل كثيرة من حياة المسلم اليوميّة. ويمكن إجمال أنواع العبادة، بناءً لأولويَّتِها، بما يلي:

١ – الإيمان بالله، الذي لا تَصِحُّ أيّ عبادة بدونه.

٢ – الإيمان بما اشترط الله سبحانه وتعالى الإيمان به ليَصِحَّ إيمان المسلم وتَصِحَّ منه العبادة، ومن ذلك الإيمان بالأنبياء، والملائكة، واليوم الآخر، والقضاء والقَدَرِ خيرِه وشرِّه.

٣ – ممارسة العبادات الأساسيّة، وهي أركان الإسلام الأربعة: الصّلاة، والصّوم، والزّكاة، والحجّ.

٤ – السّلوك اليوميّ للمسلم الذي يشمل كلّ جوانب الحياة، ومن ذلك:

أ – سلوكه مع نفسه، وسلوكه مع أهله. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (وإنّ لبدنك عليكَ حقّاً، وإنّ لأهلِك عليكَ حقّاً)[2].

ب – سلوكه مع جيرانه. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (ما زال جبريلُ يوصيني بالجار حتّى ظننتُ أنّه سيُوَرِّثُه)[3].

ج – سلوكه مع مجتمعه، وأبناء بلده، وصولاً إلى عامّة المسلمين في كلّ أنحاء العالم. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (مَن لم يهتمّ بأمر المسلمين فليس منهم)[4].

---

[1] سورة الذّاريات، الآية ٥٦.

[2] الهيثميّ، مَجمَع الزّوائد ومَنبَع الفوائد، تحقيق حسام الدّين القدسيّ، مكتبة القدسيّ، ط ١، القاهرة – مصر، ١٤١٤ هـ. – ١٩٩٤ م.، ج ٧، ص ٢٣٩، حديث رقم ١٢٠٤٦.

[3] أحمد بن حَنْبَل، مُسند أحمد بن حنبل، تحقيق شُعَيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسّسة الرّسالة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٢١ هـ. – ٢٠٠١ م.، ج ٩، ص ٤١٠، حديث رقم ٥٥٧٧.

[4] الطّبَرانيّ، الرّوض الدّاني (المعجم الصّغير)، تحقيق محمّد شكّور محمود، المكتب الإسلاميّ / دار عمّار، بيروت – لبنان / عمّان – الأردنّ، ط ١، ١٤٠٥ هـ. – ١٩٨٥ م.، ج ٢، ص ١٣١، حديث رقم ٩٠٧.

د – سلوكه مع الحيوانات والطّيور والحشرات. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (في كلّ ذات كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجْر)[٥]، علماً أنه يدخل في ذلك جميع أنواع الحيوان، ويدخل في ذلك الإنسان المسلم وغير المسلم.

ه – سلوكه مع البيئة المحيطة به، من أرض ونبات ومياه وهواء. وظهر ذلك عندما مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ، فقال: (ما هذا السَّرَف يا سعد؟) قال: أفي الوضوء سَرف؟ قال: (نعم، وإن كنتَ على نهرٍ جارٍ)[٦]، وقال أيضاً: (إن قامت على أحدكم القيامة، وفي يده فسيلة[٧] فليغرسها)[٨].

٥ – التَّفكُّر في كافّة مخلوقات الله عزّ وجلّ في محاولة لاستكشاف دقيق صُنعِها، وماهِيَة وظيفتها، للاستفادة منها في تحسين حياة النّاس. قال الله سبحانه وتعالى:

أ – ﴿خَلَقَ لَكُمْ ما في الأرْضِ جَميعاً﴾[٩].

ب – ﴿صُنْعَ اللهِ الّذي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١٠].

ج – ﴿أوَلَمْ يَتَفَكَّروا في أنْفُسِهِمْ، ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ والأرْضَ وما بَيْنَهُما إلاّ بالحَقِّ وأجَلٍ مُسَمّى﴾[١١].

د – ﴿إنّ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأولي الألْبابِ * الّذينَ يَذْكُرونَ اللهَ قِياماً وقُعوداً وعلى جُنوبِهِم ويَتَفَكَّرونَ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هَذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النّارِ﴾[١٢].

وهذا التَّفكُّر في مخلوقات الله عزّ وجلّ يؤدّي إلى التَّفكُّر في عظمة الخالِق جلّ وعلا، ممّا يؤدّي إلى زيادة الإيمان بالله، وزيادة الاعتماد عليه، والتّسليم له.

وقد أدّى انشغال كثير من النّاس في تفاصيل حياتهم اليوميّة إلى جَعْلِهِمْ يسهون عن عبادة التَّفكُّر في خلْق الله تعالى، وجَعْلِهِمْ ينسون أنّ كلّ ما يمرّون به في حياتهم هو بأمر الله عزّ وجلّ، ولذلك اعتبروا أنّ كلّ نجاح يحقّقونه في حياتهم هو بسبب تخطيطهم هم، وتدبيرهم هم. وممّا ساعدهم على هذا الاعتبار ما يَرَوْنَهُ

---

[٥] أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، المرجع السابق، ج ١٤، ص ٤٦١، حديث رقم ٨٨٧٤.

[٦] أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، المرجع نفسه، ج ١١، ص ٦٣٧، حديث رقم ٧٠٦٦.

[٧] الفَسيلَة: النّخلة الصّغيرة تُقطَع من الأمّ، أو تُقلَع من الأرض، فتُغرَس. وهي أيضاً: جزء من النّبات، يُفصل عنه ويُغرس. المعجم الوجيز، مجمَع اللّغة العربيّة، ١٤١٥ هـ. – ١٩٩٤ م.، ص ٤٧٢.

[٨] أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، المرجع السابق، ج ٢٠، ص ٢٥١، حديث رقم ١٢٩٠٢.

[٩] سورة البقرة، الآية ٢٩.

[١٠] سورة النّمل، الآية ٨٨.

[١١] سورة الرّوم، الآية ٨.

[١٢] سورة آل عِمران، الآيتان ١٩٠ – ١٩١.

حولهم، ويسمعون عنه، من اكتشافات علميّة، واختراعات تُسهِّل أمور معيشتهم، فيعتقدون أنّ الفضل في هذه الاكتشافات والاختراعات هي للمكتشِفين والمخترِعين، ناسين فضل الله سبحانه وتعالى في هداية المكتشِفين والمخترِعين لما اكتشفوه واخترعوه.

وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿خَلَقَ لَكُمْ ما في الأرْضِ جَميعاً﴾[١٣]، أي أنّه سبحانه وتعالى خلَق كلّ ما في الأرض مسخَّراً لخدمة الجنّ والإنس، ولكنّه سبحانه لم يأذن باستخدام هذا الكلّ لكلّ النّاس، وإنّما أذِن به لَمن يتوصّل إلى معرفة كُنْهِ الشّيء وماهِيَتِه وكيفيّة استخدامه. كما لم يأذن سبحانه بهذه المعرفة دفعة واحدة، وإنّما أذِن بكلّ منها في موعد حدَّده لذلك عبر القرون، وفي بلاد مختلفة، وعلى أيدي مسلمين وغير مسلمين. فقد قال سبحانه وتعالى:

١ - ﴿لِكُلِّ أجَلٍ كِتابٌ﴾[١٤].

٢ - ﴿وكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾[١٥].

٣ - ﴿ولَتَعْلَمُنَّ نَبَأهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[١٦].

وهذا البحث هو محاولة لتصويب فكر النّاس الخاطئ المشار إليه أعلاه، ودعوتهم إلى الخروج من انشغالات حياتهم اليوميّة إلى التّفكّر في خلْق الله، وعظمة الخالِق عزّ وجلّ، لا إلى التَّفكُّر في إنجازات العِلم، واعتبارها إنجازات بشريّة دون هداية من الله عزّ وجلّ.

وسيوصل هذا التَّفكُّر، بإذن الله، إلى معرفة بعض القواعد[١٧] التي وضعها الله عزّ وجلّ لكلّ مخلوقاته، من إنسان وحيوان ونبات وجماد، لتنظيم منهج حياتها وكيفيّة عبادتها له، فقد قال عزّ وجلّ: ﴿وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[١٨].

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى بعض هذه القواعد في كثير من آيات القرآن الكريم، ولكن لن يفهم هذه القواعد إلاّ العلماء المختصّون في كلّ مجال، فقد قال عزّ وجلّ: ﴿فاسْألوا أهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمونَ﴾[١٩]، أي فاسألوا أصحاب الاختصاص في كلّ مجال من مجالات الحياة.

---

[١٣] سورة البقرة، الآية ٢٩.

[١٤] سورة الرَّعد، الآية ٣٨.

[١٥] سورة الرَّعد، الآية ٨.

[١٦] سورة ص، الآية ٨٨.

[١٧] لا يمكن للجنّ والإنس، من خلْق الدّنيا إلى نهايتها، معرفة كلّ القواعد التي وضعها الله عزّ وجلّ لكلّ مخلوقاته، فقد قال عزّ وجلّ: ﴿وما أوتيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاّ قَليلاً﴾، سورة الإسراء، الآية ٨٥.

[١٨] سورة الإسراء، الآية ٤٤.

وسيتناول هذا البحث، بإذن الله، بعض قواعد التّوازن في مخلوقات الله، وبعض كيفيّة سجود المخلوقات، وبعض أشكال تسبيح هذه المخلوقات، وأوقات هذا التّسبيح، وبعض أسبابه.

[19] سورة النّحل، الآية ٤٣، وسورة الأنبياء، الآية ٧.

الفصل الأوّل

الكون الموزون بميزان الخالق

الميزان في القرآن الكريم:

نظّم الباري تعالى الكون بتوازن مُحكَم، من الذَّرَّة[٢٠] إلى المَجَرَّة[٢١]، بما في ذلك الكائنات على وجه البسيطة[٢٢]، من الإنسان إلى الحيوان إلى النّبات، على اليابسة وفي البحار والأنهار، ورفَع السّماوات وأنشأ الكواكب والمجرّات والشّمس والقمر[٢٣] وتَعاقُبَ اللّيل والنّهار[٢٤] لمعرفة الأيّام وحساب السّنين، تسهيلاً لحياة النّاس.

والتّوازن الموجود في ماهية المخلوقات جميعها مبنيّ على نظام الكون والوجود الذي وضعه الخالق جلّ وعلا، والذي بدونه تختلّ المعايير وتتضارب القوانين، وتتكسّر أواصر الاتّصال، وينقلب التّوافق إلى فوضى وعبث، فالتّوازن يحفظ القوانين والنّواميس ويضمن استمرار الموجودات مع نفسها ومع بعضها.

والتّوازن صفة المخلوقات وفِطْرَتُها التي فُطِرَتْ عليها، فكلّ شيء موجود بتوازن غاية في الدِّقَّة والرّوعة.

وعندما خلق الله سبحانه وتعالى السّماء وما فيها من عجائب مبهرة، والأرض وما عليها من خلائق، وضع لها الميزان المستقيم لكي تسير أمور الكون والوجود بتوازن، فكلّ شيء خاضع للميزان.

و"كان النّاس قديماً يَعرفون الوزن في السِّلَع لدى البيع والشّراء، و لم يَدُرْ في خَلَدِهِمْ أنّ الوزن يتناول الذَّرَّة فما فوق من العناصر، إلى المواد المركّبة منها، إلى العوالم المادِّيَّة كافّة، إلى سواها من عوالم الطّاقات،

---

[٢٠] الذَّرَّة: هي أصغر وِحدة تدخل في تركيب أيّ عنصر كيميائيّ، وكلّ العناصر الكيميائيّة تتكوّن من ذرّات متشابهة في التّركيب وتختلف عن بعضها في عدد جُسَيْمات البروتونات والإلكترونات. والعناصر هي أبسط مكوِّنات الكائن الحيّ.

ولمزيد من التّفصيل انظر د. زرّاق بن عيسى الفيفي، مفهوم تسلسل التّركيب الكيميائيّ للكائنات الحيّة، مجلة الإعجاز العلميّ، تصدر عن الهيئة العالميّة للإعجاز العلميّ في القرآن والسُّنَّة، جدَة – المملكة العربيّة السّعوديّة، العدد ١٥، ربيع الأوّل، ١٤٢٤ هـ. – ٢٠٠٣ م.، ص ١٦ – ١٨.

[٢١] المَجَرَّة: مجموعة كبيرة من النّجوم، تركّزَت حتّى تراءت من الأرض كوشاح أبيض يَعترِض في السّماء.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ١٠٠.

[٢٢] البسيطة: الأرض، أي الكرة الأرضيّة.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٥١.

[٢٣] قال تعالى: ﴿هُوَ الّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً والقَمَرَ نوراً وقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَموا عَدَدَ السِّنينَ والحِسابَ﴾، سورة يونس، الآية ٥.

[٢٤] قال تعالى: ﴿وجَعَلْنا اللَّيْلَ والنَّهارَ آيَتَيْنِ، فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ولِتَعْلَموا عَدَدَ السِّنينَ والحِسابَ﴾، سورة الإسراء، الآية ١٢. وقال أيضاً: ﴿يُغْشي اللَّيل النّهارَ يَطْلُبُهُ حَثيثاً﴾، سورة الأعراف، الآية ٥٤.

وحتّى الأعمال. وكانوا إذا تدبَّروا الآيات القرآنيّة التي تنصّ على أنّ كلّ شيء في الوجود موزون بنسب دقيقة معيَّنة مُحكَمة وَفْقَ مقتضيات الخَلْق واستمراره خالوها مجرّد تصوير بيانيٍّ يهدِف إلى إفهام دقّة المحاسبة وراء عوالمنا، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُبِ﴾[٢٥]، وليس هو عين واقعها، حتّى جاءت اكتشافات العلم الحديثة وانفلقت الذَّرَّة فظهر أنّ الآيات تعني ذات الواقع، ولا تعني التّصوير الأدبيّ، وإن كان التّصوير الأدبيّ، الذي عيَّن ويُعيِّن وقائع اكتشافات العلوم الحديثة بكلّ هذه الدِّقَّة والإحكام، هو في القمّة من الإعجاز"[٢٦].

قال تعالى: ﴿والأرْضَ مَدَدْناها وأَلْقَيْنا فيها رَواسِيَ وأَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزونٍ﴾[٢٧]، أي موزون بموازين عِلم الله التي انكشف واقعها القَطعيّ للعِلم الحديث كما في قوله تعالى: ﴿إنّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بقَدَرٍ﴾[٢٨]، وقوله تعالى: ﴿والسّماءَ رَفَعَها ووَضَعَ الميزانَ * ألاّ تَطْغَوْا في الميزانِ * وأقيموا الوَزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِروا الميزانَ﴾[٢٩]. وهذا الإطلاق في معنى الميزان هو باب من أبواب الإعجاز كبير، كما في قوله جلّ وعلا: ﴿لَقَدْ أرْسَلْنا رُسُلَنا بالبَيِّناتِ وأنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ والميزانَ ليَقومَ النّاسُ بالقِسْطِ، وأنْزَلْنا الحَديدَ فيهِ بَأْسٌ شَديدٌ ومَنافِعُ للنّاسِ﴾[٣٠]، وقوله تعالى: ﴿اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وما تَغيضُ الأرْحامُ وما تَزْدادُ، وكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بمِقْدارٍ﴾[٣١]، أي: بمقدار موزون، وقوله جلّ من قائل: ﴿أنْزَلَ مِنَ السَماءِ ماءً فسالَتْ أوْدِيَةٌ بقَدَرِها﴾[٣٢]، وقوله تعالى: ﴿والذي نَزَّلَ مِنَ السّماءِ ماءً بقَدَرٍ فأنْشَرْنا بهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾[٣٣].

وجاء في ميزان الأعمال قوله تعالى: ﴿ونَضَعُ المَوازينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً، وإنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أتَيْنا بِها، وكَفى بِنا حاسِبينَ﴾[٣٤].

---

[٢٥] سورة الأنبياء، الآية ١٠٤.

[٢٦] هاشم محمّد سعيد دَفتردار المَدَنيّ، من فيض إعجاز القرآن، ل. د.، ل. ب.، ل. ت.، ص ١١١.

[٢٧] سورة الحِجر، الآية ١٩.

[٢٨] سورة القمر، الآية ٤٩.

[٢٩] سورة الرّحمن، الآيات ٧ – ٩.

[٣٠] سورة الحديد، الآية ٢٥.

[٣١] سورة الرّعد، الآية ٨.

[٣٢] سورة الرّعد، الآية ١٧.

[٣٣] سورة الزُّخرف، الآية ١١.

[٣٤] سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

ونهاية ما ينبغي أن يُستوعَب أنّ كلّ شيء له وزن معيَّن خاصّ، عليه قَوام كيانه، واستمرار وجوده، والعلماء جادّون في كشف موازين الأشياء كافّة فإن لم يتمّ لهم ذلك اليوم فغَداً.

ولعلّ الذين كانوا ينكرون أن تكون الموازين بهذه المقاييس الدّقيقة التي تُذهل العقول، وأن كلّ شيء خاضع لها، حتّى الأعمال، هم الذين قالوا إنّ ما جاء في الآيات عن الموازين والوزن هو من قَبيل التّخويف من دقّة الحساب في يوم الحساب، لا كشفاً للواقع الكائن، حتّى انكشف لهم عالم الذَّرَّة ومقاييسها الموزونة، فإذا الموازين تدخله، وإذا هم يَرَوْنَ عين اليقين كلّ ما جاء في الآيات. أمّا إنّهم شاهدوا ميزاناً للحرارة "ترومومتر"، وميزاناً لضغط الدّم "سفجمومانومتر"، وميزاناً للضّغط الجوّيّ "بارومتر"، وميزاناً للعناصر الغازيّة والسّائلة والجامدة، سواءً في جوف الأرض أو خارجها في الهواء وما وراءه، وآخر للذَّرَّة وما دونها وما فوقها، وهَلُمَّ جَرّاً. والوزن في كلّ شيء مقياسه المقدَّر بعموم التّقدير في يقين العلم وواقِعِه. هذا مع عِلمهم أنّهم لا يزالون على عتبات معارف العوالم وموازينها العامّة والخاصّة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ولَوْ أنَّ ما في الأرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أقْلامٌ والبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ[35]، إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[36] [37].

وذكر الله الخالق سبحانه وتعالى تكوين الكون وتوازن الخَلق في أماكن عدّة من القرآن الكريم، وبصيغ عدّة أظهر فيها للثَّقَلَيْنِ "الإنس والجِنّ" التّوازن في كلّ شيء، وأمرَهما بزِنَةِ كلّ أمورهما الدّنيويّة بميزان حساب الآخرة.

قال تعالى: ﴿والسَّماءَ رَفَعَها ووَضَعَ الميزانَ * ألاّ تَطْغَوْا في الميزانِ * وأقيموا الوَزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِروا الميزانَ﴾[38] [39].

---

[35] ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ: أي كلمات الله الدّالة على عظمته وصفاته وجلاله وعجائبه وحِكمته وعِلمه وخَلقه.

[36] سورة لقمان، الآية ٢٧.

[37] هاشم محمّد سعيد دفتردار المَدنيّ، من فيض إعجاز القرآن، المرجع السابق، ص ١١٣.

[38] سورة الرّحمن، الآيات ٧ – ٩.

[39] قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ القُرْآنَ * خَلَقَ الإنْسانَ * عَلَّمَهُ البَيانَ * الشَّمْسُ والقَمَرُ بُحُسْبانٍ * والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدانِ * والسَّماءَ رَفَعَها ووَضَعَ الميزانَ * ألاّ تَطْغَوْا في الميزانِ * وأقيموا الوَزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِروا الميزانَ * والأرْضَ وَضَعَها للأنامِ﴾، سورة الرّحمن، الآيات ١ – ١٠. وإنّما وَسَّط الله تعالى قوله: ﴿ووَضَعَ الميزانَ﴾ بين رَفْعِ السّماء ووَضْعِ الأرض لأنّه لا يُنتفع بالميزان إلاّ إذا كان معلّقاً في الهواء بين الأرض والسّماء، وهذا أمر حِسِّيّ، وأمّا الأمر العقليّ فهو أنّه تعالى بدأ أوّلاً من النِّعَمِ بذِكْرِ القرآن الذي هو بيان الشّرائع والتّكاليف، ثمّ أتبَعه تعالى بذِكْرِ كيفيّة خَلْقِ الإنسان وقِواه النّفسانيّة وما يتمّ به معاشه من السّماويّات والأرضيّات، ثمّ بذِكْرِ أنّه تعالى خَلَقَ لأجلهم آلة الوزن، بها يقيمون العدالَة فيه ومعاملاتهم وأمور تَمدُّنهم.

النّيسابوريّ، تفسير النيسابوري غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق زكريّا عميرات، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٦ هـ. – ١٩٩٥ م.، ج ٦، ص ٢٢٨.

وفي هذه الآيات الكريمات ثلاثة موازين هي:

١ – ﴿ألاّ تَطْغَوْا في الميزانِ﴾ العدل، والمعادلة: موازنة الأشياء.

٢ – ﴿وَأقيموا الوَزْنَ بالقِسْطِ﴾ الميزان الذي توزَن به الأشياء.

٣ – ﴿وَلا تُخْسِروا الميزانَ﴾ ميزان الأعمال يوم القيامة[٤٠].

وبَيْنَ القرآن والميزان مناسَبة، فإنّ القرآن فيه من العِلم ما لا يوجد في غيره من الكتب، والميزان فيه من العدل ما لا يوجد في غيره من الآلات[٤١].

وأورد القرآن الكريم صيغاً عدّة للفظ "الميزان"، وهي: الميزان، وزَنوهم، وزِنوا، الوزْن، وزْناً، مَوْزون، الموازين، موازينُه.

وفيما يلي عرض للآيات التي أوردت هذه الصّيغ مرتَّبة حسب ترتيب المصحف:

أ– الميزان:

قال تعالى:

١ – ﴿وأوْفوا الكَيْلَ والميزانَ بالقِسْطِ﴾[٤٢].

٢ – ﴿فَأوْفوا الكَيْلَ والميزانَ ولا تَبْخَسوا النّاس أشْياءَهُمْ﴾[٤٣].

٣ – ﴿ولا تُنْقِصوا المِكْيالَ والميزانَ إنّي أراكُمْ بِخَيْرٍ﴾[٤٤].

٤ – ﴿ويا قَوْمِ أوْفوا المِكْيالَ والميزانَ بالقِسْطِ﴾[٤٥].

٥ – ﴿اللهُ الّذي أنْزَلَ الكِتابَ بالحَقِّ والميزانَ﴾[٤٦].

٦ – ﴿والسّماءَ رَفَعَها ووَضَعَ الميزانَ﴾[٤٧].

٧ – ﴿ألاّ تَطْغَوْا في الميزانِ﴾[٤٨].

---

[٤٠] محمود بن أبي الحسن بن الحسين النَّيْسابوريّ، إيجاز البيان عن معاني القرآن، تحقيق د. حنيف ابن حسن القاسميّ، دار الغرب الإسلاميّ، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٥ هـ.، ج ٢، ص ٧٨٤، بتصرّف.

[٤١] الرّازيّ، التّفسير الكبير، دار إحياء التّراث العربيّ، ط ٣، بيروت – لبنان، ١٤٢٠ هـ. - ١٩٩٠م.، ج ٢٩، ص ٣٤٤.

[٤٢] سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

[٤٣] سورة الأعراف، الآية ٨٥.

[٤٤] سورة هود، الآية ٨٤.

[٤٥] سورة هود، الآية ٨٥.

[٤٦] سورة الشّورى، الآية ١٧.

[٤٧] سورة الرّحمن، الآية ٧.

٨ – ﴿وأقيموا الوَزْنَ بِالقِسْطِ ولا تُخْسِروا الميزانَ﴾[٤٩].

٩ – ﴿وأنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ والميزانَ لِيَقومَ النّاسَ بِالقِسْطِ﴾[٥٠].

ب – وزَنوهم:

قال تعالى:

﴿وإذا كالوهُمْ أو وَزَنوهُمْ يُخْسِرونَ﴾[٥١].

ج – وزِنوا:

قال تعالى:

١ – ﴿وأوْفوا الكَيْلَ إذا كِلْتُمْ وزِنوا بالقِسْطاسِ المُسْتَقيمِ﴾[٥٢].

٢ – ﴿وزِنوا بالقِسْطاسِ المُسْتَقيمِ﴾[٥٣].

د – الوزْن:

قال تعالى:

١ – ﴿والوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازينُهُ فأولَئِكَ هُمُ المُفْلِحونَ﴾[٥٤].

٢ – ﴿وأقيموا الوَزْنَ بِالقِسْطِ ولا تُخْسِروا الميزانَ﴾[٥٥].

هـ – وزْنًا:

قال تعالى:

﴿فَحِبِطَتْ أعْمالُهُمْ فَلا نُقيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ وَزْناً﴾[٥٦].

و – موزون:

قال تعالى: ﴿وألْقَيْنا فيها رَواسِيَ وأنبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزونٍ﴾[٥٧].

---

[٤٨] سورة الرّحمن، الآية ٨.

[٤٩] سورة الرّحمن، الآية ٩.

[٥٠] سورة الحديد، الآية ٢٥.

[٥١] سورة المُطَفِّفين، الآية ٣.

[٥٢] سورة الإسراء، الآية ٣٥.

[٥٣] سورة الشّعراء، الآية ١٨٢.

[٥٤] سورة الأعراف، الآية ٨.

[٥٥] سورة الرّحمن، الآية ٩.

[٥٦] سورة الكهف، الآية ١٠٥.

ز – الموازين:

قال تعالى:

﴿ونَضَعُ المَوازينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيامَةِ﴾[٥٨].

ح – موازينه:

قال تعالى:

١ – ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازينُهُ فَأولَئِكَ هُمُ المُفْلِحونَ﴾[٥٩].

٢ – ﴿ومَنْ خَفَّتْ مَوازينُهُ فَأولَئِكَ الَّذينَ خَسِروا أنْفُسَهُمْ﴾[٦٠].

٣ – ﴿فأمّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازينُهُ * فَهُوَ في عيشَةٍ راضِيَةٍ﴾[٦١].

٤ – ﴿وأمّا مَنْ خَفَّتْ مَوازينُهُ * فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ﴾[٦٢].

مجمل تفسير الآيات الكريمة التي وَرَدَت:

تدور مجمل الآيات الكريمة السّابقة ضمن أربع محاور رئيسة هي:

١ – ميزان خَلْقِ الخلائق، قال تعالى: ﴿والسّماءَ رَفَعَها ووَضَعَ الميزانَ﴾[٦٣]، ﴿وأنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزونٍ﴾[٦٤]. أي أنّه سبحانه وتعالى خَلَقَ الخَلْقَ جميعاً بميزان قُدْرَتِه، من الذَّرَّة إلى المجرَّة بما حوَت من كائنات.

٢ – ميزان العدل بإنزال الكتب السّماويّة، قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذي أنْزَلَ الكِتابَ بالحَقِّ والميزانَ﴾[٦٥].

٣ – ميزان العدل بين النّاس، قال تعالى: ﴿وأقيموا الوَزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِروا الميزانَ﴾[٦٦].

٤ – ميزان الأعمال يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ونَضَعُ المَوازينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيامَةِ﴾[٦٧].

---

[٥٧] سورة الحِجر، الآية ١٩.

[٥٨] سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

[٥٩] سورة الأعراف، الآية ٨، وسورة المؤمنون، الآية ١٠٢.

[٦٠] سورة الأعراف، الآية ٩، وسورة المؤمنون، الآية ١٠٣.

[٦١] سورة القارعة، الآيتان ٦ – ٧.

[٦٢] سورة القارعة، الآيتان ٨ – ٩.

[٦٣] سورة الرّحمن، الآية ٧.

[٦٤] سورة الحِجر، الآية ١٩.

[٦٥] سورة الشّورى، الآية ١٧.

[٦٦] سورة الرّحمن، الآية ٩.

المحور الأوّل: ميزان خَلْقِ الخلائق:

وردت في هذا المحور نقطتان مُهمّتان هما:

أ – خلْق السّماء بقوله تعالى: ﴿والسّماءَ رَفَعَها ووَضَعَ الميزانَ﴾[٦٨] [٦٩].

ب – خلْق الأرض وزينتها بالإشارة إلى خلْق النّبات بقوله تعالى: ﴿وأنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزونٍ﴾[٧٠].

وهاتان الآيتان تعطيان مِثالاً عن خَلْقِ السّماء ورفْعِها، وخَلْقِ الأرض وما فيها.

أ – خلْق السّماء:

ألمح الخالق سبحانه وتعالى إلى كيفيّة ابتداء الخَلْقِ في آيات عدّة في القرآن الكريم، ومن هذه الآيات آية تضمَّنَت وصفاً موجزاً بكلمات معدودة لماهِيَة السّماوات والأرض عند خلقِهما، وتحديداً للمادّة الأساس في الحياة، وذلك في قوله جلّ وعلا: ﴿أوَلَمْ يَرَ الَّذينَ كَفَروا أنَّ السّماواتِ والأرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما، وجَعَلْنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ، أفَلا يُؤْمِنونَ﴾[٧١]، أي كان الجميع متَّصِلاً بعضه ببعض، متلاصق متراكم بعضه فوق بعض، في ابتداء الأمر، ففتَق هذه من هذه فجعل السّماوات سبعاً والأرض سبعاً، وفصَل بين السّماء الدّنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السّماء وأنبَتت الأرض[٧٢]، ولهذا قال سبحانه: ﴿وجَعَلْنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ، أفَلا يُؤمِنونَ﴾، أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عِياناً، وذلك كلُّه دليل على وجود الصّانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء[٧٣].

---

[٦٧] سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

[٦٨] سورة الرّحمن، الآية ٧.

[٦٩] قال مجاهد: ﴿وَالسَّماءَ رَفَعَها﴾، خلَقَها مرفوعة مَسموكة، حيث جعَلَها مَنشأ أحكامه، ومَصدر قضاياه، ومُتَنَزَّلَ أوامِره ونواهيه، ومَسكن ملائكتِه الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه، ونَبَّهَ بذلك على كبرياء شأنه ومُلكه وسلطانه.

الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل، دار الكتاب العربيّ، ط ٣، بيروت – لبنان، ١٤٠٧هـ. – ١٩٨٧ م.، ج ٤، ص ٤٤٤.

[٧٠] سورة الحِجر، الآية ١٩.

[٧١] سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

[٧٢] قال تعالى: ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ والفُلْكِ الَّتي تَجْري في البَحْرِ بما يَنْفَعُ النّاسَ وما أنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأحْيا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وتَصْريفَ الرِّياحِ والسَّحابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ﴾، سورة البقرة، الآية ١٦٤.

[٧٣] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مكتبة المنار، ط ١، الزرقاء – الأردن، ١٤١٠ هـ. – ١٩٩٠ م.، ج ٣، ص ١٦٨.

وقال تعالى أيضاً: ﴿ثُمَّ اسْتَوى إلى السَّماءِ وهِيَ دُخانٌ[٧٤] فقالَ لَها وللأرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أو كَرْهاً قالَتا أتَيْنا طائِعينَ﴾[٧٥].

وقد نصّت هاتان الآيتان وغيرهما على بعض الحقائق، ومنها:

١ – إنّ الكون بأكمله كان مترابطاً كقطعة واحدة.

٢ – إنّ الانفصال حدث بشكل منتظم كي ينتج عنه القوانين الفيزيائيّة وترتيب المادّة[٧٦]. وليس الأمر مرتبطاً بالنّظام الذي يميِّز مجموعتنا الشّمسيّة والكواكب الدّاخلة في مجرّتنا فحسب، بل إنّ المجرّات هي جزء في نظام أعلى. وبدلاً من تناثر المجرّات بصورة عشوائيّة في أرجاء الكون، فإنّها مرتَّبة على شكل مجموعات، وضمن تلك المجموعات تدور المجرّات حول كُتَلِها المركزيّة المشتركة.

وطبقاً للنّظريّة العلميّة المعاصرة فإنّ ما يُعرف بالانفجار الكونيّ "Big Bang" كان قد وقع نتيجة حدث تحفيزيّ واحد، في وقت واحد، وفي درجة حرارة عالية بشكل استثنائيّ. ويُفترض بأنّه في تلك الأثناء من الانفجار كان الكون بأكمله عبارة عن جزء واحد في نقطة واحدة حدث فيها الانقسام. غير

---

[٧٤] إنّ تشبيه مادّة خلْق السّماوات بالدّخان، دون الهَباء(#) أو البُخار أو الهواء، يشير إشارة رائعة مدهشة إلى أنّ مادّة السّماء الأوّليّة قبل خَلْقِها كان لها من الصّفات المُهمَّة ما يشبه صفات الدّخان العاديّ الذي يتصاعد من النّيران. كانت مادّة مظلمة بذاتها، مفكّكَة الأجزاء، خفيفة ومنتشرة في الفضاء كما ينتشر السّحاب، ساخنة إلى حدٍّ ما، وهي، كالدّخان العاديّ، كانت حاوية لدقائق أنواع المادّة الثّلاثة، الصّلبة والسّائلة والغازيّة. وهنالك سورة كاملة في القرآن الكريم عنوانها يحمل معجزة علميّة وهي سورة الدّخان، ووردت في هذه السّورة الكريمة آية هي جزء من عقيدة المسلم: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبينٍ﴾، سورة الدّخان، الآية ١٠. فالآية الشّريفة تنصّ على أنّ العالَم كلّه عندما تقوم قيامته سيعود كما كان دخاناً، فكَم من الحقائق العلميّة هي معجزات إلهيّة في كتاب الله.

محمّد سامي محمّد عليّ، الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم، دار المحبّة، دمشق – سورية، ل. ت.، ص ٣٥.

(#) الهَباء: الشّيء المنبَثّ الذي يظهر في ضوء الشّمس، وهو أيضاً: دُقاق التُّراب (غُبار التُّراب).

محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازيّ، مختار الصِّحاح، المكتبة العصريّة، ط ٣، بيروت – صيدا / لبنان، ١٤١٨ هـ. – ١٩٩٧ م..

[٧٥] سورة فُصِّلَت، الآية ١١.

[٧٦] لقد بدأت المادّة في تكوين تَجمُّعاتِها بينما كانت آخِذَةً في الانتشار والتَّوسُّع في الفراغ الكونيّ المحيط بها، ثمّ استمرّت التَّجمُّعات، التي صارت على هيئة سحابات، تتباعد عن بعضها البعض بينما استمرّ كلّ تَجمُّع في الانكماش تحت تأثير الجاذبيّة الذّاتيّة لمكوِّناتِه. وكثيراً ما كان التّكاثف يُوَلِّدُ كرة غازيّة ترتفع درجات حرارتها كلّما اشتدّ تكاثفها، حتّى إذا بلَغَت حدّاً يمكِّنها من اندماج نَوَياتِ بعض مُكوِّناتها أصبحت نجماً تصدر منه الطّاقة الإشعاعيّة إلى ما حوله.

أ. د. محمّد أحمد الشّهاويّ، أسرار الكون، مكتب نائب رئيس مجلس الوزراء لشؤون الإعلام، دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، ١٤٢٦ هـ. – ٢٠٠٥ م.، ص٨١.

أنّ القوانين الفيزيائيّة لم تَحدُث نتيجة ذلك الانفجار. وهنا يبدو أنّ هذه النّظريّة مشابهة من حيث معلوماتها للمعلومات الواردة في القرآن الكريم.

وممّا يدعو إلى الدّهشة والغرابة أنّ القرآن الكريم كشف عن هذه الحقائق، في الوقت الذي لم يكن يوجد فيه أيّ أثر لأيّة بحوث علميّة.

كما كشف القرآن الكريم أيضاً عن الحقائق المذكورة في نظريّة هوبل حول توسّع الكون في قوله تعالى: ﴿والسَّماءَ بَنَيْناها بِأيْدٍ وإنّا لَموسِعونَ﴾[٧٧]، وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ السّماء وما فيها، وحدود الكون والفَلك، في توسُّع مستمرّ[٧٨].

وقيل إنّ الفَلك والفضاء كالبالون يُنفخ فيتوسَّع شيئاً فشيئاً. وقد لاحظ علماء الفَلك في العصر الحديث علامات تدلُّ على أنّ حركات السُّدُمِ[٧٩] الخارجيّة هي حركات نظاميّة، واستدلّوا منها على أنّ جميع

---

[٧٧] سورة الذّاريات، الآية ٤٧.

[٧٨] قال تعالى: ﴿والسّماءِ ذاتِ الحُبُكِ﴾، سورة الذّاريات، الآية ٧، يبدو من خلال المعاني اللُّغويّة لهذه الكلمة أنّ كلمة ﴿الحُبُكِ﴾ تتضمّن معانٍ أساسيّة تدور حول النّسيج والخيوط المحبوكة بإحكام، والمشدود بعضها إلى بعض. ولكنّ المفسِّرين رحمهم الله تعالى لم يدركوا أبعاد هذا المعنى، لأنّ العصر الذي عاشوا فيه لم تتوفّر لديهم فيه علوم الفَلك الحديثة، بل إنّ فكرة النّسيج الكونيّ حديثة جداً لا يعود تاريخها إلاّ إلى بضع سنوات فقط، فعندما توفّرت إمكانيّة الحسابات الضّخمة باستخدام السّوبر كومبيوتر فكّر العلماء بإدخال جميع المعلومات اللاّزمة إلى هذا الكومبيوتر العملاق، والتي تتضمّن بيانات رقميّة حول موقع المجرّة، وبُعدَها عنّا بالسّنوات الضّوئيّة(#)، وشدّة إشعاعها، بالإضافة إلى معلومات حول التّجمُّعات المَجَرِيَّةِ الضّخمة، ومعلومات أخرى تشمل أكثر من مليون مجرّة.

ولمزيد من التّفصيل انظر م. عبد الدّايم كَحيل، النّسيج الكونيّ .. بين العِلم والقرآن، مجلّة الإعجاز العلميّ، تصدر عن الهيئة العالميّة للإعجاز العلميّ في القرآن والسُّنَّة، جدّة – المملكة العربيّة السّعوديّة، العدد ٢٤، جُمادى الأولى، ١٤٢٧ هـ. – ٢٠٠٦ م.، ص ١٧ وما بعدها.

(#) السّنة الضّوئيّة: هي واحدة من أهمّ وأبرز وحدات القياس التي تُستخدم في المسافات البعيدة، كما في علم الفضاء أو الكونيّات. وتبلغ سرعة الضّوء نحو ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثّانية الواحدة، وبناءً عليه فإنّ المسافة التي يقطعها الضّوء في السّنة الواحدة تبلغ (٩٫٤٦ تريليون) كيلومتر.

محمّد فريد، ما هي السنة الضوئية، ٢٤ شباط (فبراير)، ٢٠١٥ م..

http://mawdoo٣.com/

[٧٩] السّديم: بُقَعٌ سحابيّة متوهِّجة، أو مغيِّمة، في الفضاء، ناشئة عن تَكاثُفِ، أو تصادمِ، عدد لا يُحصى من الأجرام السّماويّة، ومنه: المجرّة. والسّديم أيضاً: الضّباب الرّقيق.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٣٠٧.

السُّدُم الخارجيّة، أو "الجزر الكونيّة"، تبدو أنّها تتباعد عن مجموعتنا الشّمسيّة، بل إنّها تتباعد عن بعضها البعض. وعلى هذا الأساس فإنّ الكون ليس ساكناً بل يتمدّد[٨٠].

و"أجمَعَت آراء كبار علماء الفيزياء النّوويّة والكوزمولوجيا[٨١] على أنّ الكون بما يحويه من ملايين المجرّات، ومليارات النّجوم والكواكب، قد بدأ في لحظة محدَّدة، يرجع تاريخها إلى ما بين عشرة وعشرين مليار سنة، فثَبت بما لا يدع مجالاً للشَّكِّ أنّ المادّة ليست أزليّة، وأنّ للنّجوم آجالاً محدَّدة تولد وتموت كالآدميّين، وأنّ الكون المادِّيَّ نفسه في تطوُّر وتمدُّد مستمرَّيْن، وأنّ الإنسان يقف في مركز الغاية من خَلْقِه، ولذلك رأى علماء الطّبيعة المعاصرون في ذلك الجمال المنتشر في الطّبيعة على جميع المستويات هدفاً وخطّة مرسومة، فآمنوا بعقل أزليٍّ[٨٢] للوجود، خالِقٍ لهذا الكون الشّاسع يُدَبِّرُهُ ويرعى شؤونه"[٨٣].

وفي القرن العشرين الميلاديّ، وتحديداً في عام ١٩٤٨ م.، استطاع الفيزيائيّ جورج جاموف، بعد دراسات مستفيضة في ظاهرة تباعد المجرّات ودورة حياة النجوم، أن يُثبِت أنّ الكون نفسه نشأ من تمدُّد للمادّة أَطلق عليه اسم "الانفجار العظيم"، على أساس أنّ كرة النّيران ذات الحرارة الفائقة قد تمدَّدَت بسرعة كالانفجار ثمّ برَدَت. لكنّ إثبات جاموف ظلّ معلّقاً كمجرَّد فرضٍ في نظر العلماء حتّى عام ١٩٦٥ م. حين اكتشف أرنو بترياس وروبرت ويلسون، بمحض المصادفة، وباستخدام جهاز ضخم لالتقاط الموجات الصّغرى، إشعاعاً ضعيفاً منبعثاً من الفضاء، وبعد أن قاس بترياس وويلسون هذا الإشعاع بدقّة لم يسبق لها مثيل وجدا أنّه يقرب من ٣ر٥ درجة فوق الصِّفر المُطلَق[٨٤]، ولم يكن الإشعاع أشدَّ كثافة في اتّجاه الشّمس أو في اتّجاه مجرّة درب التّبّانة[٨٥]، ولذلك لا يمكن أن تكون المجموعة

---

[٨٠] محمّد سامي محمّد عليّ، الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم، المرجع السّابق، ص ٣٦.

[٨١] الكوزمولوجيا: علم الكون.

[٨٢] إنّ الخالق في الإسلام ليس عقلاً أزليّاً، بل إلهٌ خالقٌ بارئٌ حاكِمٌ على الأشياء كلِّها.

[٨٣] د. نبيل راغب، العِلم تجربة روحيّة، اقرأ سلسلة ثقافيّة شهريّة، دار المعارف، العدد ٦٠٢، سبتمبر ١٩٩٥ م.، القاهرة – مصر، ص ٤٢ – ٤٣.

[٨٤] الصِّفر المُطلَق: مقياس لدرجة نشاط الجزيئات في المادة، أي أنه عند درجة صفر كلفن (الصفر المطلق) تتوقف حركة الجزيئات تماماً.

ويكيبيديا الموسوعة الحرة – في ٨ / ٥/ ٢٠١٧ م..

[٨٥] مجرّة درب التّبّانة: أي "المجموعة الشمسية، وهي الشمس وتوابعها من كواكب "ومنها كوكب الأرض" وأقمار، هي جزء من مجموعة هائلة من النجوم وتوابعها، وتعرف مثل هذه المجموعة الهائلة باسم "المجرة Calaxy"، وبواسطة استخدام المراقب الحديثة أمكن التعرف على العديد من المجرات، والمجرة التي تضم شمسنا هي مجرة "الطريق اللبني Milky way" التبانة، وكل ما في هذه المجرة من أجرام "شموس وكواكب، وأقمار وتوابع" تدور في أفلاك منتظمة متناسقة ومتوازنة بعضها مع بعض".

الشّمسيّة أو المجرّة مصدر هذا الإشعاع، فلم يبق إلاّ تفسير واحد وهو أنّه بقية من الإشعاع الأصليّ النّاتج من الانفجار العظيم، وهذا الدّليل القائم على المعاينة أكدّ نظريّة الانفجار العظيم[٨٦].

هذا، وقد أشار سبحانه إلى النّجوم من حولنا فقال عزّ مِن قائل: ﴿إنّا زَيَّنا السّماءَ الدُّنْيا بِزينَةٍ الكَواكِبِ﴾[٨٧]، وأشار إلى أنّه الإله المَرْبوب عندما قال سبحانه وتعالى: ﴿وأنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى[٨٨]﴾[٨٩].

والنّجوم من حولنا تتكوّن، عادة، بانكماش سحابات من الغازات والأتربة المنتشرة على مسافات هائلة في الفضاء، وعندما يزداد الانكماش ترتفع درجة الحرارة حتّى يمكن البدء في التّفاعلات النّوويّة الاندماجيّة بحيث تُبَثُّ الطّاقة إلى الفضاء المحيط، وهذه المرحلة تُمثِّل بداية نشاط النّجم[٩٠].

وتجدر الإشارة إلى أنّ النّجوم التي وُلِدَتْ حديثاً في سديم الجبّار موجودة في أقراص الغازات والأتربة، وتُعادِل كُلٌّ منها في كتلتها مجموعتنا الشّمسيّة، وهي في الغالب تمرُّ بمراحل تَكَوُّنِ الكواكب حول كلّ نجم منها في الوقت الحاليّ[٩١].

وقد ظهر مؤخَّراً أنّ العلماء كشفوا النِّقاب عن مجرّات عملاقة تبدو أكبر حجماً بكثير من المجرّة التي تُعرَف باسم "دَرْبِ اللَّبّانَة"، أو "دَرْبِ التَّبّانَة"، "Milky Way"، وتبعد تلك المجرّات عن أرضنا عشرة بلايين من السّنين الضوئيّة.

وكشف القرآن الكريم بوضوح كامل عن حقائق أساسيّة حول خَلْقِ الكون، وهو أنّ كلّ ما في الكون ناجم عن عمليّة الخَلْقِ التي قام بها الخالق عزّ وجلّ. وقد خَلَقَ الله الشّمس والقمر والسّماوات والأرض وما بين ذلك بتقدير وتناسب، قال تعالى: ﴿بَديعُ السَّماواتِ والأرْضِ، وإذا قَضى أمْراً فإنّما يَقولُ لَهُ كُنْ فَيَكون﴾[٩٢].

محمّد سميح عافية، القرآن وعلوم الأرض، الزهراء للإعلام العربي، ط ١، ل. ب.، ١٤١٤ هـ. - ١٩٩٤ م.، ص ٢٥.

[٨٦] د. نبيل راغب، العلم تجربة روحية، المرجع السّابق، ص ٨٨ - ٨٩.

[٨٧] سورة الصّافات، الآية ٦.

[٨٨] الشِّعْرى: كوكب كانت تَعْبُدُهُ قبيلتا حِمْيَرْ وخُزاعة في الجاهليّة.

محمّد كَرِيِّمْ راجِح، مختصر تفسير القرطبيّ، دار الكتاب العربيّ، ط ٢، بيروت – لبنان، ١٤٠٦ هـ. – ١٩٨٦ م.. ج ٥، ص ٨٨.

[٨٩] سورة النّجم، الآية ٤٩.

[٩٠] أ. د. محمّد أحمد الشّهاويّ، أسرار الكون، المرجع السابق، ص ٤٨.

[٩١] أ. د. محمّد أحمد الشّهاويّ، أسرار الكون، المرجع نفسه، ص ٤٨.

[٩٢] سورة البقرة، الآية ١١٧.

وتشير هذه الآية الكريمة إلى أنّ الله هو خالق السّماوات والأرض.

كذلك يشير القرآن الكريم إلى خَلْقِ الظّواهر الكونيَّة والفيزيائيّة بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ الَّذي خَلَقَ اللَّيْلَ والنَّهارَ والشَّمْسَ والقَمَرَ﴾[٩٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً والقَمَرَ نوراً وقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَموا عَدَدَ السِّنينَ والحِساب، ما خَلَقَ ذَلِكَ إلاّ بالحَقِّ، يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمونَ﴾[٩٤].

كما بيّن الله سبحانه وتعالى عظمة خَلْقِهِ بقوله جلّ مِن قائِل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ ولَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ على أن يُحْيِيَ المَوْتى﴾[٩٥].

والآيات الكريمة التي تمّ ذِكرها توضِح أنّ الله عزّ وجلّ خَلَقَ هذا العالَم المحسوس بتقدير وميزان، وهو قادر على أن يُعيد خَلْقَه، وأنّ أمرَه هو الأصل في خَلْقِ المادّة والطّاقة وكلّ القوانين الفيزيائيّة والقوى التي تتحكّم بحركتِها.

كما أنّ الشّمس والقمر، آلَتا الزّمن، تسيران بحساب دقيقٍ لا يتقدّم ولا يتأخّر، قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ والقَمَرُ بِحُسْبانٍ﴾[٩٦]، وميزان الحقّ يَحكُم حركتَهما وسرعتَهما واتّجاهَهما، وهذا ينطبق على الكواكب الأخرى، أمّا المجرّات والنّجوم وتمدُّد الكون وانحسار بعض المجرّات واندماجها أو ذوبانها في الثّقوب السّوداء[٩٧] فكُلُّها تسير بنظامٍ وقوانينَ ومقاييسَ ثابتة محسوبة بدقّة جماليّة وروعة مُبهِرة.

وفُسِّرَتْ مؤخَّراً الثّقوب السّوداء التي تَكنِس الكون بأنّها المقصودة بقوله تعالى: ﴿فَلا أُقسِمُ بِالخُنَّسِ * الجَوارِ الكُنَّسِ﴾[٩٨].

والعلاقة بين الشّمس والأرض والكواكب هي بميزان، إذ إنّ "حجم الأرض أصغر من حجم الشّمس بـــ "ـــمليون و٣٠٠" ألف مرّة. وإنّ كتلتها، أي وزنها، أقلّ من الشّمس بـــ "٣٣٢" ألف مرّة تقريباً. وإنّها

---

[٩٣] سورة الأنبياء، الآية ٣٣.

[٩٤] سورة يونس، الآية ٥.

[٩٥] سورة الأحقاف، الآية ٣٣.

[٩٦] سورة الرّحمن، الآية ٥.

[٩٧] الثّقوب السّوداء: هي أماكن ذات جاذبيّة هائلة تبتلع كلّ ما يقع تحت مجالها من كواكب ونيازك وغيرها، ويجهل العلماء عنها الشّيء الكثير، وأقرب واحد منها إلى كوكب الأرض يبعد ١٦٠٠ سنة ضوئيّة – موسوعة الجزيرة، فضاء من المعرفة الرقمية.
http://www.aljazeera.net/encyclopedia/conceptsandterminology/
في ١ / ٢ / ٢٠١٦ م..

[٩٨] سورة التّكوير، الآيتان ١٥ – ١٦.

أكثَف السَّيّارات[٩٩] جميعاً، بل أكثَف من الشّمس، لأنّ كثافة الشّمس هي ربع كثافة الأرض، فالثِّقل النّوعيّ[١٠٠] لكلّ جسم في الشّمس أخفّ من الثِّقل النّوعيّ للجسم نفسه وهو على الأرض. وإنّ بُعدها عن الشّمس "٩٣" مليون ميل. وإنّ دورَها اليوميّة تتمّ في "٢٤" ساعة، وإنّ دورتَها السّنويّة، حول الشّمس، تتمّ في مدّة "٣٦٥" يوماً ونحو ربع يوم. وإنّ شكل مدارها حول الشّمس إهليلِجيّ[١٠١]. وإنّ سرعة دورانها حول نفسها "١٠٠٠" ميل في السّاعة. وإنّ سرعة دورانها حول الشّمس بمعدَّل "١٨" ميل في الثّانية، أي نحو "٦٥" ألف ميل في السّاعة. وإنّ وضعَها على مدارها مائل بزاوية قدْرُها "٢٣" درجة.

ويقول العِلم: لو كان حجم الأرض أكبر ممّا هو أو أصغر، أو كان ثِقلها وكثافتها أقلّ أو أكثر، لاختلّ أمر الحياة أو تَغيَّر أو تَشوَّه، لأنّ حجمها متناسب مع سرعتها، ومع دورتها، وثِقلُها متناسب مع قوّة جذبِها، فلو زاد الحجم أو نَقُصَ لتغيَّرت السّرعة والمدّة، ولو قَلَّ جذبُها لأفْلَتَ الأوكسجين منها. ولولا الدّورة اليوميّة لما كان لنا ليل ونهار دائبان ثابتان.

ولو زادت سرعة دورانها حول نفسها عن ألف ميل في السّاعة أو قلّت، كما هو الحال في بقيّة السَّيّارات، فكانت مثلاً "١٠٠" ميل في السّاعة، لأصبح طول النّهار "١٢٠" ساعة، واحترقت زروعنا في لهيب النّار وذَوَتْ في زمهرير اللّيل، ولاختَلَّ ميزان العمل في النّهار، والرّاحة والنّوم في اللّيل. ولكنّ هذه السّرعة ثابتة لم يطرأ عليها تبديل في ثانية واحدة منذ ملايين السّنين.

ولولا الجاذبيّة التي تربطنا بالأرض، لطِرنا عن ظهرها، وانْتَثَرْنا انْتِثاراً، نحن وبيوتنا. ولولا التّعادل العجيب بين الجاذبيّة التي تُلصِقُنا بالأرض، وقوّة البُعد عن المركز التي تطرُدنا عن سطحها، لطِرنا وطارت بيوتنا، وزَحَلَتْ بحارنا من وسط الأرض إلى القُطبَين"[١٠٢].

---

[٩٩] السَّيّارات: أجرام سماويّة تدور حول الشّمس وتستمدّ منها نورها، وهي على تَوالي أبعادِها عن الشّمس: عُطارِد، الزُّهْرَة، الأرْض، المِرّيخ، المُشْتري، زُحَل، أورانوس، نِبْطون (نِبْتون)، بْلوطون (بْلوتون).

المنجد في اللّغة والأعلام، دار المشرق، بيروت – لبنان، ١٩٩٦ م.، المنجد في اللّغة، ط ٣٥، ص ٣٦٨.

[١٠٠] الثِّقل النَّوْعيّ: نسبةُ وَزْنِ الجُرْمِ المُوازي لوزن حجم من الماء، الكثافة.

[١٠١] إهليلِجيّ: شكل مشابه لحَبِّ "الإهليلَج". و"الإهليلَج": شجر ينبت في الهند وكابُل (كابول – أفغانستان) والصّين، ثَمَرُهُ على هيئة حَبِّ الصَّنَوْبَرِ الكبار.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٢٩.

[١٠٢] نديم الجسر، قصّة الإيمان بين الفلسفة والعِلم والقرآن، المكتب الإسلاميّ، ط ٣، بيروت – لبنان، ١٣٨٩ هـ. – ١٩٦٩ م.، ص ٣٢٠ – ٣٢١.

وإنّ المتأمِّل في الآيات التي ورد فيها ذِكر "التّكوير، وإيلاج اللّيل في النّهار والنّهار في اللّيل، وطلبُ كلٍّ منهما للآخَر حثيثاً، ومرور الجبال مَرَّ السّحاب"، لَيَرى فيها البيان الصّريح لكرويّة الأرض وحركتِها اليوميّة اللّتان يتمّ بهما اختلاف اللّيل والنّهار.

فالتّكوير "لا يكتمل معناه إلاّ مع كرويّة الأرض وحركتِها اليوميّة. إذ لا يكون معنى "التّكوير" واضحاً لو نحن تَصوَّرنا الأرض مبسوطة تَطلُع الشّمس عليها وتغيب عنها، كما كان رأي الأقدَمين. لأنّ قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ على النَّهارِ ويُكَوِّرُ النَّهارَ على اللَّيْلِ﴾[١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿يولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ ويولِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ﴾[١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿يُغْشي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثيثاً﴾[١٠٥]، يَتجلّى فيها كلُّها معنى التّلاحُق، وأنّ تكوير كلٍّ منهما على الآخر يجري في آنٍ واحد، فكلّما لفّ اللّيل على النّهار في جزء من الأرض، لفّ مثله النّهار على اللّيل في الجزء الذي يليه، ولا يُتصوَّر هذا المعنى مع تَصوُّر الأرض مبسوطة ساكنة، لأنّ الشّمس إذا طلَعَت عليها أنارَتها، من أوَّلِها إلى آخِرِها، دفعة واحدة، وإذا غابت عنها أظلَمَت دفعة واحدة.

ومرور الجِبالِ ﴿مَرَّ السَّحابِ﴾[١٠٦] فيه نصّ صريح في دورة الأرض اليوميّة على مِحْوَرِها"[١٠٧].

ب – خَلْقُ الأرض وزينَتُها:

ألمح الخالق سبحانه وتعالى إلى خَلْقِ الأرض في آيات عدّة في القرآن الكريم، ومن هذه الآيات آية تضمَّنَت وصفاً موجزاً بكلمات معدودة لماهِيَة الأرض بعد خلقِها، وذلك في قوله جلّ وعلا: ﴿والأرْضَ مَدَدْناها وأَلْقَيْنا فيها رَواسِيَ[١٠٨] وأَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزونٍ * وجَعَلْنا لَكُمْ فيها مَعايِشَ ومَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقينَ﴾[١٠٩]. وفي معنى ﴿مَوْزونٍ﴾ قيل: مقسوم، وقيل: معدود، ويقال: هذا كلام موزون، أي منظوم غير مُنْتَثِر. فعلى هذا يكون معنى ﴿وأَنْبَتْنا﴾ في الأرض: ما يوزن من الجواهر والحيوانات والمعادن.

---

[١٠٣] سورة الزُّمَر، الآية ٥.

[١٠٤] سورة فاطر، الآية ١٣.

[١٠٥] سورة الأعراف، الآية ٥٤.

[١٠٦] قال تعالى: ﴿وتَرى الجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ، صُنْعَ اللهِ الَّذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، إِنَّهُ خَبيرٌ بِما تَفْعَلون﴾، سورة النّمل، الآية ٨٨.

[١٠٧] نديم الجسر، قصّة الإيمان بين الفلسفة والعِلم والقرآن، المرجع السابق، ص ٣٢١.

[١٠٨] رواسِيَ: مرساة تثبِّت الأرض، وهي الجبال.

[١٠٩] سورة الحِجر، الآيتان ١٩ – ٢٠.

والمقصود من الإنبات: الإنشاء والإيجاد. وقيل: ﴿أنبَتْنا فيها﴾، أي في الجبال[110]، ﴿مِنْ كُلِّ شيءٍ مَوْزونٍ﴾: من الذّهب والفضّة والنّحاس والرّصاص والقَزْدير "القَصدير"، حتّى الزّرنيخ والكُحْل، كلّ ذلك يوزَن وزْناً. وقيل: أنْبَتْنا في الأرض الثِّمار ممّا يُكال ويوزَن. وقيل: ما يوزَن فيه الأثمان لأنّه أجَلُّ قدْراً وأعمُّ نفعاً ممّا لا ثَمَنَ له. ﴿وجَعَلْنا لَكُمْ فيها مَعايِشَ﴾: أي المطاعم والمشارب التي يعيشون بها، وقيل: إنّها الملابس، وقيل: إنّها التَّصرُّف في أسباب الرِّزق مدّة الحياة. ﴿ومَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ﴾: من الدّواب والأنعام والعبيد والأولاد الذين قال الله فيهم: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وإيّاكُمْ﴾[111]، ولفظ ﴿مَنْ﴾ يجوز أن يتناول العبيد والدّواب إذا اجتمعوا، لأنّه إذا اجتمع مَن يَعقِل وما لا يَعقِل، غَلَبَ مَن يَعقِل[112].

وهذه الآية هي أكبر مثال للعَجَبِ بهذا التّعبير: ﴿مَوْزونٍ﴾، فإنّ علماء الكون الأخصائيّين في علوم الكيمياء والنّبات قد أثبتوا أنّ العناصر التي يتكوّن منها النّبات مؤلّفة من مقادير معيّنة في كلّ نوع من أنواعه بدقّة غريبة لا يمكن ضبطها إلاّ بأدقّ الموازين المقدَّرة من أعشار الغْرام والمِلّيغرام، وكذلك نسبة بعضها إلى بعض في كلّ نبات. والتّعبير بلفظ ﴿كُلِّ﴾ المضاف إلى لفظ ﴿شَيْءٍ﴾، الذي هو أعمّ الألفاظ

---

[110] ورد ذِكر الجبال في القرآن في آيات عدّة، ومن هذه الآياتِ الآياتُ التّالية: ﴿واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمّا خَلَقَ ظِلالاً وجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الجِبالِ أكْناناً﴾، سورة النّحل، الآية ٨١، ﴿وهُوَ الّذي مَدَّ الأرْضَ وجَعَلَ فيها رَواسِيَ وأنْهاراً﴾، سورة الرّعد، الآية ٣، ﴿ألَمْ نَجْعَلِ الأرْضَ كِفاتاً * أحْياءً وأمْواتاً * وجَعَلْنا فيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وأسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً﴾، سورة المُرسَلات، الآيات ٢٥ – ٢٧، ﴿وألْقى في الأرْضِ رَواسِيَ أنْ تَميدَ بِكُمْ وأنْهاراً وسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدونَ﴾، سورة النّحل، الآية ١٥، ﴿والأرْضَ مَدَدْناها وألْقَيْنا فيها رَواسِيَ وأنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزونٍ﴾، سورة الحِجر، الآية ١٩.

ولمزيد من التّفصيل انظر د. عبد الإله بن مصباح، الإعجاز العلميّ في إخبار القرآن عن حركة الجبال، مجلّة الإعجاز العلميّ، تصدر عن الهيئة العالميّة للإعجاز العلميّ في القرآن والسُّنّة، جدّة – المملكة العربيّة السّعوديّة، العدد ٣٥، محرّم ١٤٣١هـ.، ص ٣٦ – ٣٩.

وورد في كتاب "قصّة الإيمان بين الفلسفة والعِلم والقرآن" للشّيخ نديم الجسر، ص ٣٣٨، عن امتنان الله سبحانه على عباده بذِكر الجبال، أنّ القرآن لا يكاد يَذكر الجبال إلاّ ويَذكر معها الماء أو الأنهار أو النّبات، فلولا خَلْقُ هذه الجبال العالية، التي جُعِلَتْ مَسافِحَ للأمطار، ومَعاقِدَ ومَراشِحَ للثّلوج التي تذوب بالتّدريج، ومخازن عالية مرتفعة للمياه، ومنافذ للأنهار تنحدر منها إلى السّهول، لتعطّلَت، كما يقول العِلم، عمليّة سقي الأرض، ورَدِّ مياه الأمطار إلى البحر، بل تعطّلَت عمليّة المطر من أساسها.

[111] سورة الإسراء، الآية ٣١.

[112] القُرْطُبِيّ، تفسير القُرْطُبِيّ، تحقيق أحمد البِرْدَوْنِيّ وإبراهيم أطْفيش، دار الكتب المصريّة، ط ٢، القاهرة – مصر، ١٣٨٤ ه. – ١٩٦٤ م.، ج ١٠، ص ١٣.

العربيّة، الموصوف بالموزون، هو تحقيق لمسائل علميّة فنّيّة لم يكن شيء منها يخطر ببال بشر قبل هذا العصر، أي عصر تَفَجُّرِ العلوم[١١٣].

وقال تعالى: ﴿وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وما نُنَزِّلُهُ إلاّ بِقَدَرٍ مَعْلومٍ * وأرْسَلْنا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأسْقَيْناكُموهُ وما أنْتُمْ لَهُ بِخازِنينَ﴾[١١٤ ١١٥]، وقوله تعالى: ﴿ألَمْ نَجْعَلِ الأرْضَ مِهاداً * والجِبالَ أوْتاداً * وخَلَقْناكُمْ أزْواجاً * وجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً * وجَعَلْنا اللَّيْلَ لِباساً * وجَعَلْنا النَّهارَ مَعاشاً * وبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً * وجَعَلْنا سِراجاً وَهّاجاً * وأنزَلْنا مِنَ المُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجاً * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً ونَباتاً * وجَنّاتٍ أَلْفافاً﴾[١١٦].

هذه الآيات القرآنيّة، وآيات أخرى كثيرة، تلفت نظر الإنسان لِما في هذا الكون من التّنظيم الدّقيق والتّناسق بين أجزاء الكون، وبأقصى غايات الدِّقّة والإتقان، ليدلّ هذا التّنظيم دلالة قاطعة على العناية التّامّة بهذا الكون وما فيه، وأنّ إلهاً واحداً قادراً هو الذي نظَم كلَّ ما فيه أحسن تنظيم[١١٧].

---

[١١٣] محمّد رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط ١، القاهرة – مصر، ١٤١١هـ. - ١٩٩٠ م.، ج ١، ص ١٧٧.

[١١٤] سورة الحِجر، الآيتان ٢١ – ٢٢.

[١١٥] قال تعالى: ﴿أوَلَمْ يَرَوْا أنّا نَسوقُ الماءَ إلى الأرْضِ الجُرُزِ(#) فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أنْعامُهُمْ وأنْفُسُهُمْ، أفَلا يُبْصِرونَ﴾، سورة السّجدة، الآية ٢٧. وما كانت أعجوبة المطر تتمّ أبداً بهذا التّنظيم الدّوريّ السّنويّ لولا اجتماع كلّ الأسباب، من الحركة والمدار والوضع والمَيْل واتّساع سطوح البحار، وحرارة الشّمس والتّبَخُّرِ والتّكاثُف والتّمييع والتَّجمُّع والتَّحبُّب والتّثاقُل والرّياح والبرق.

نديم الجسر، قصّة الإيمان بين الفلسفة والعِلم والقرآن، المرجع السابق، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

(#) الأرْضِ الجُرُزِ: الأرض التي لا تُنْبِتُ إلاّ بسَوْقِ الماء إليها.

د. محمّد سليمان عبد الله الأشقر، المرجع السّابق، ص ٥٤٨.

[١١٦] سورة النَّبَأ، الآيات ٦ - ١٦.

[١١٧] أشار الخالق القدير في آيات كثيرة في كتابه العزيز إلى بديع صُنْعِه، وعظيم إحكام وإتقان هذا الصُّنع، ومن ذلك ما ذَكَرَهُ في الآية التّالية: ﴿وهُوَ الّذي مَرَجَ البَحْرَيْنِ هَذا عَذْبٌ فُراتٌ وهَذا مِلْحٌ أُجاجٌ وجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وحِجْراً مَحْجوراً﴾، سورة الفرقان، الآية ٥٣.

فجعل الخالق سبحانه وتعالى بين كلٍّ من ماء النّهر العذب وماء البحر المالح برزخاً مائيّاً حتّى لا يُفْسِدَ العذبُ المالحَ ولا يُفْسِدَ المالحُ العذبَ. وقوله: ﴿وجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً﴾، والبَرْزَخُ هو سَدٌّ مانعٌ من الأرض، وبما يشبه الحَجَرَ المانع بينهما، ﴿وحِجْراً مَحْجوراً﴾، يعني: حَجَرَ أحدهما عن الآخَر بأمره وقضائه، أي حدث حَجْزٌ ما بين السّائِلَيْنِ لاختلاف كثافَتَيْهما وكذا اختلاف نِسَبِهما الكيميائيّة التّحليليّة، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حاجِزاً﴾، سورة النّمل، الآية ٦١، أي: مَحْبَساً مانعاً. وقد وضع الرُّبّان الفرنسيّ، ذو الشّهرة التي جعلَت منه أشهر رجل ركب البحر وتَجوَّل فيه، "جاك كوسطو [كوستو]" نظريّات

"والمتأمِّل في الكون يرى أنّه لا يوجد أيّ شيء فيه إلاّ في مَحلِّه المناسب، وبالقدْر المناسب، فكلّ ما فيه في غاية الحكمة والعناية والإتقان والتّوازن. والنّاظر لهذا الإتقان العجيب والتّنظيم المدهش في كلّ شيء في الأرض وفي السّماء وما بينهما، بحيث إنّ أيّ تغيير فيه يؤدّي إلى الخلل والفساد، لا يَسَعُهُ إلاّ أن يؤمِن بوحدانيّة الله تعالى.

ولو سُئل عالِم الفَلك فإنّه يُبَيِّنُ من دقائق الحسابات الفَلكيّة وتنظيم الكواكب وأحجامها وأبعادها ما يُحيِّر العقول.

ولو سُئل عالِم التّشريح عن جسم الإنسان، وعالِم الحيوان عن أنواع الحيوان الطّائر والسّابح والماشي والزّاحف بأشكاله وألوانه وخواصِّه ومعيشتِه وغرائبه، لأسْلَمَ ذلك بلا شكّ إلى وحدانيّة الله.

ولو سُئل عالِم النّبات عن أنواعه وثماره وأوراقه وطعومه وخواصِّه لأجاب بما يدلّ دلالة قاطعة على وحدانيّة الله.

ولو نظر الإنسان إلى التّنظيم الدّقيق في الأرض، ببحرِها ويابسِها وجبالِها وأغوارِها وسهولِها وصخورِها ورمالِها ومعادِنها وينابيعِها وأنهارِها وطبقاتِها، لأدّى به ذلك إلى الاعتراف بوحدانيّة الله"[١١٨].

المادّة الخضراء في النّباتات:

أودع الله سبحانه وتعالى في النّباتات معجزات كبرى، فجعل فيها، مثلاً، وسائل لتنقية الهواء من الموادّ السّامّة.

فالنّباتات تمتصّ غاز الكربون من الهواء لصنع غذائها وثمارها، وتجري في داخلها عمليّة تسمّى بالتّركيب الضّوئيّ تُرَكَّبُ من خلالها المادّة الخضراء التي يُرَكّبُ منها النّبات، الحَبُّ والثّمار.

ونتيجة لهذه العمليّة يُطلِق النّبات الأوكْسجين الذي يستفيد منه الإنسان في عمليّة التّنفُّس. والعجيب أنّ كمِّيّة النّباتات على وجه الأرض مناسبة لحجم الغلاف الجوِّيّ.

في معنى "البحرَيْن" ووجود "البَرْزَخ المائيّ". ومات الرّجل عام ١٩٩٧م. بعد أن ترك إرثاً علميّاً رائعاً من خلال أبحاثه التي تناولت موضوع البحرَيْن، وأثبَتَت أبحاثه وجود ما يعرف الآن باسم "البَرْزَخ المائيّ"، وهو حجاب غير مرئيّ فيما بين وسطَيْن سائلَيْن مُختَلِفَي الكثافة.

ولمزيد من التّفصيل انظر أ. د. مصطفى محمّد الجمّال، البحرَيْن والحاجز المائيّ بينهما، مجلّة الإعجاز العلميّ، تصدر عن الهيئة العالميّة للإعجاز العلميّ في القرآن والسُّنّة، جدّة – المملكة العربيّة السّعوديّة، العدد ٣٥، محرّم ١٤٣١ هـ. – ٢٠١٠ م.، ص ٤ – ٧ – ولمزيد من التّفصيل عن البرزخ المائيّ بين البحار انظر موقع عبد الدّايم الكحيل للإعجاز العلميّ على الشّبكة العنكبوتيّة.

[١١٨] محمّد أحمد محمّد عبد القادر خليل ملكاويّ، عقيدة التّوحيد في القرآن الكريم، مكتبة دار الزّمان، ط١، المدينة المنوَّرة – المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤٠٥ هـ. – ١٩٨٥ م.، ص ١٤٧ – ١٤٨.

وهنالك توازن دقيق بين ما يأخُذُه الإنسان وبين ما يُطلِقه النّبات من الأوكْسِجين، وتوازن آخر بين ما يُطلِقه الإنسان من غاز الكربون وبين ما يأخُذُه النّبات من هذا الغاز. وسبحان الله! هذا التّوازن الدّقيق تَحدَّث عنه القرآن في عصرٍ لم يكن هنالك أيّ عِلْمٍ عن توازن البيئة[١١٩]. قال تعالى: ﴿والأرْضَ مَدَدْناها وأَلْقَيْنا فيها رَواسِيَ وأنبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزونٍ﴾[١٢٠].

أي أنّ هنالك ميزانٌ لِنِسَبِ النّباتات على الأرض، ولِنِسْبَةِ ما تمتصُّه من الكربون ونسبة ما تُطلِقه من الأوكْسِجين، وقد قاس العلماء حديثاً هذه النِّسب بكلّ دقّة.

وعلى سبيل المثال فإنّ نسبة الأوكسجين في الغلاف الجوِّيِّ هي /٢١/ بالمئة تقريباً، ولو زادت هذه النّسبة لاحترقت الأرض مع أوّل شرارة، ولو نَقَصَتْ هذه النّسبة قليلاً لماتت الكائنات اختناقاً.

أمّا نسبة غاز الكربون في الغلاف الجوِّيِّ فهي أقلّ من /١/ بالمئة، ولو زادت هذه النّسبة لتسمَّمَ البشر وماتوا جميعاً، ولو نقَصَت هذه النّسبة قليلاً لماتَت النّباتات وتوقَّفَت الحياة.

وإنّ النّاظر إلى كلّ خليّة من خلايا أيِّ نبات أخضر على وجه الأرض، يرى تركيباً مستمرّاً للمادّة الخضراء، ومن هذه المادّة تَخرُج الحبوب والثِّمار، وهنا يتكلّم القرآن الكريم عن هذه العمليّات الدّقيقة بقوله تعالى: ﴿وهُوَ الَّذي أنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَراكِباً ومِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وجَنّاتٍ مِنْ أعْنابٍ والزَّيْتونَ والرُّمّانَ مُشْتَبِهاً وغَيْرَ مُتَشابِهٍ، انْظُروا إلى ثَمَرِهِ إذا أثْمَرَ ويَنْعِهِ، إنَّ في ذَلِكُمْ لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنون﴾[١٢١].

وقد أوضح القرآن الكريم في الآية السّابقة أنّ تَشَكُّلَ المادّة الخضراء[١٢٢] يتمّ أوّلاً ثمّ يتمّ إخراج الثّمار والحبوب منها، وهذا ما أثبَتَتْه الأبحاث الحديثة[١٢٣]. إضافة إلى أنّ كلّ قطرة ماء تتدفّق في هذه الأرض

---

[١١٩] لمزيد من التّفصيل انظر نديم الجسر، قصّة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، المرجع السابق، ص ٣٤٤.

[١٢٠] سورة الحِجر، الآية ١٩.

[١٢١] سورة الأنعام، الآية ٩٩.

[١٢٢] قال تعالى: ﴿الّذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأخْضَرِ ناراً فَإذا أنْتُمْ مِنْهُ توقِدونَ﴾، سورة يس، الآية٨٠. وقد ثَبت علميّاً "أنّ طاقة الشّمس تنتقل إلى جسم النّبات بعمليّة التّمثيل الضّوئيّ، إذ تَمْتَصُّ خلاياه المحتوية على المادّة الخضراء في النبات، وهي "الكْلوروفيل"، ثاني أوكسيد الكربون من الجوّ، وبتفاعل هذا الغاز مع الماء الذي يَمتصُّه النّبات تَنتج الموادّ الكربوهَيْدْراتِيَّة بتأثير الطّاقة المستمَدَّة من ضوء الشّمس، ومن ثَمَّ يتكوّن الخشب الذي يتركّب أساساً من مركّبات كيميائيّة محتوية على الكربون والهيدروجين والأوكسجين. ومن هذا الخشب يتكوّن الفحم النّباتيّ المستعمَل في الوقود، إذ بإحراق هذا الفحم تنطلق الطّاقة المُدَّخَرَةُ فيه، ويُنتَفَع بها في الطّهي والتّدفئة والإنارة وتسخين الماء، وفي كثير من الأغراض. وما الفحم الحجريّ الخشبيّ إلاّ نباتات وأشجار نشأت ونَمت على النّحو السّابق، وكَبِرَتْ بفِعل عمليّة التّمثيل الضّوئيّ، أو الكلوروفيل، ثُمَّ دُفِنَتْ بطريقة ما وتَحوَّلَت بالتَّحلُّل الجزئيّ بعد مُضِيِّ ملايين السّنين إلى الفحم المذكور تحت تأثير فِعل العوامل الجيولوجيّة، كالحرارة والضّغط وغيرها.

تَشهد على قُدرة صانعها عزّ وجلّ، إنّه الله الذي خلَق كلّ شيءٍ بتوازنٍ دقيق، ولو اختلّ هذا التّوازن لاختلّت الحياة.

وقد تحدَّث القرآن الكريم عن عِلم النّبات في العديد من آياته، وهو أوّل كتاب قرَّر وجود الأزواج في عالَم النّبات قبل العِلم الحديث بقرون طويلة. قال تعالى: ﴿سُبْحانَ الَّذي خَلَقَ الأزْواجَ كُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الأرْضُ ومِنْ أنْفُسِهِمْ ومِمّا لا يَعْلَمونَ﴾[١٢٤].

والكائنات النّباتيّة تنتمي إلى مملكة ضخمة غاية في الجمال والرّوعة، ولكي تعيش النّباتات لا بدّ من ميزان لغذائها، ميزان للحرارة، ميزان للرّطوبة، ميزان للعناصر الموجودة في التُّربة، وميزان للفصول المناخية.

ولا بدّ أن تكون هذه الموازين عادلة ومتوازنة بالقِسط حتّى تعيش الكائنات النّباتيّة. فإنَّ تغَيُّر غذاء النّبات، أو درجة حرارة المحيط، أو نوعيّة مياه السَّقْي، أو عناصر التُّربة وفِلِزّاتها[١٢٥]، أو اختلال تَعرُّضِها للشّمس، يؤدّي إلى تَوقُّف نُمُوِّ الشّجرة، أو اعتِلالها، أو ضَعْفِها، ومهاجمَتِها من قِبَلِ الآفات الزّراعيّة.

وهذا الأمر ينطبق على البِذرة والحبّة المَيْتَة، فعند نُموِّها وبدء نشاطها تكون مُقَيَّدَةً بميزان الهورمونات[١٢٦]، وميزان الإنزيمات[١٢٧]، وميزان التّغذية والهواء، وميزان الماء، وميزان الفصل[١٢٨]، وميزان التُّربة، وأيّ خلل في أيّ ميزان يُؤدّي إلى تَعثُّر نموٍّ وتَوَقُّفِ نشاط البذور[١٢٩].

ويُلاحظ أنّ لفظ الاخضرار في الآية، ووَصْفَ الشّجر بهذا اللّون، لم يكن عفويّاً، وإنّما هو إشارة إلى مادّة الكلوروفيل الأخضر اللاّزمة لتمثيل غاز ثاني أوكسيد الكربون".

هاشم محمّد سعيد دفتردار المدنيّ، من فيض إعجاز القرآن، المرجع السابق، ص ١٢٣ - ١٢٤.

[١٢٣] نديم الجسر، قصّة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، المرجع السابق، ص ٣٤٥.

[١٢٤] سورة يس، الآية ٣٦.

[١٢٥] الفِلِزّ: عنصر كيميائيّ يتميّز بالبريق المعدنيّ، والقابليّة لتوصيل الحرارة والكهرباء.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٤٨٠.

الفِلِزّ: ضربٌ (نوعٌ) من النّحاس أبيض، وخَبَثُ الحديد، ويُطلَق على جواهر الأرض كلِّها.

المنجد في اللّغة والأعلام، المرجع السّابق، المنجد في اللّغة، ص٥٩٣.

[١٢٦] الهورمون (الهُرْمون): مادّة عضويّة تُفرزها بعض الغُدَد، ويحملها الدّم إلى الأعضاء والأنسجة، فتُنَبِّهُها وتزيد في نشاطها، كهُرْمون الغُدَّة الدَّرَقِيَّة التي تؤثِّر في النُّمُوِّ وفي الجهاز العصبيّ.

المنجد في اللّغة والأعلام، المرجع السّابق، المنجد في اللّغة، ص ٩٦٣.

[١٢٧] الإنزيم: مادّة عضويّة قابلة للذّوبان، تساعد على التّفاعلات الكيميائيّة.

المنجد في اللّغة والأعلام، المرجع السّابق، المنجد في اللّغة، ص ٩٣٠.

[١٢٨] ميزان الفصل: أي ميزان الفصل المناخيّ.

ومن الأشياء الفريدة والغريبة في نمو الأشجار هو إنبات شجر اللِّزّاب في طرف جبال لبنان العالية، حيث يتمّ الإنبات بطريقة طبيعيّة غريبة عبر طائر الكيخن الذي يُفضِّل حُبَيْباتِ اللِّزّابِ السّوداء كغذاء له، لطعمها الحَرّيف ورائحتها البَخورِيَّة، وبعد تناولها يبدأ الجهاز الهضميّ للطّائر "الحُوَيْصِلَة" بإفرازات من شأنها تفكيك الموادّ العازلة التي تمنع إنبات حبّة اللِّزّاب، ثمّ ما يلبث أن يطرحها مع بِرازه في التُّربة، لتحتاج بعد ذلك إلى تربة ملائمة ورطوبة مناسبة، وفترة زمنيّة "١٨ شهراً" ليَحدُث الإنتاج. وهذه الطّريقة الطّبيعيّة دونها عقبات، ولعلّ أهمّها تضاؤل أعداد طائر الكيخن بشكل لافت، بسبب إقدام تركيا على إبادة طيور الشّحرور والزّرزور والكيخن باستعمال مبيد المونوكروتوفوث[١٣٠].

وهذا الخلل أدّى إلى تضاؤل وجود هذه الأشجار، لأنّ الميزان في الطّبيعة قد تَغيَّر بعد أن أخْسَرَ الإنسان التّوازن البيئيّ بقتل أعداد الطّيور، قال تعالى: ﴿ولا تُخْسِروا الميزانَ﴾[١٣١].

ومن بديع صُنْعِ الله تعالى الموزون في النّباتات قوله تعالى: ﴿وفي الأرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وجَنّاتٌ مِنْ أعْنابٍ وزَرْعٍ ونَخيلٍ صِنْوانٌ وغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ ونُفَضِّلُ بَعْضَها على بَعْضٍ في الأُكُلِ، إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ﴾[١٣٢]، وقوله تعالى: ﴿فلينْظُرِ الإنْسانُ إلى طَعامِهِ * أنّا صَبَبْنا الماءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنا الأرْضَ شَقّاً * فَأنْبَتْنا فيها حَبّاً * وعِنَباً وقَضْباً * وزَيْتوناً ونَخْلاً * وحَدائِقَ غُلْباً * وفاكِهَةً وأبّاً * مَتاعاً لَكُمْ ولأنْعامِكُمْ﴾[١٣٣].

ويقف العِلم نفسه مدهوشاً أمام هذه القدرة التي جعلت الأرض الواحدة تُنْبِتُ أنواعاً مختلفة من النّبات، فيقول العلماء إنّ العناصر التي تتألّف منها كلّ النّباتات معلومة، وكلُّها تَمْتَصُّ غذائها من الأرض من ترابٍ واحد، وتُسقى بماءٍ واحد، وتَتنفَّس من هواءٍ واحد، وتَصنَع غِذائَها وثِمارَها من كربون واحد، فالأقرب إلى المصادفة، أن تُنبِتَ كلُّها نوعاً واحداً[١٣٤]، ولكنّه ﴿صُنْعَ اللهِ الّذي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١٣٥].

---

[١٢٩] د. نوري الوائليّ، الميزان في القرآن: طبّ الميزان، شبكة النّبأ المعلوماتيّة – الثّلاثاء ٧ ربيع الثّاني ١٤٢٨ هـ. – ٢٤ نيسان ٢٠٠٧ م..

[١٣٠] http://www.al-akhbar.com/node ٩٥٥٨٦/

[١٣١] سورة الرّحمن، الآية ٩.

[١٣٢] سورة الرّعد، الآية ٤.

[١٣٣] سورة عَبَسَ، الآيات ٢٤ – ٣٢.

[١٣٤] نديم الجسر، قصّة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، المرجع السابق، ص ٣٦٢.

[١٣٥] سورة النّمل، الآية ٨٨.

نماذج من دقيق صُنْعِ اللهِ الموزون:

أشار الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم إلى كثير من بدائع صُنْعِه، إشارات واضحة وإشارات غير واضحة، وأنبأ النّاس بأنّهم سيَعلَمون معنى الإشارات غير الواضحة مع الزّمن، وذلك بقوله: ﴿ولَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حين﴾[١٣٦].

ومن "دقيق صُنْعِ اللهِ الموزون ما كان في قوله تعالى: ﴿فلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرونَ * وما لا تُبْصِرونَ﴾[١٣٧]، فما هو الضّوء الذي نرى به الأشياء، وما هو هذا الذي أقسَم الله بأنّنا نُبصِره ولا نُبصِره، وهو، جلّت قدرته، لا يُقسِم في القرآن العظيم إلاّ بأعظم آياته من المخلوقات؟

إنّ الأشعّة التي تصل إلى أرضنا من الشّمس، ومن كلّ كوكبٍ مضيءٍ، تأتي عبر الفضاء، أو عبر "الأثير" كما كانوا يقولون، مهتزّة باهتزازات مختلفة في عددها، أي في أمواج مختلفة في أطوالها، ولكنّ أبصارنا لا تستطيع أن ترى من هذه الأمواج إلاّ جزءاً قليلاً جدّاً، وهي الأمواج التي تُحدِث ألوان الطّيف الشّمسيّ السّبعة. أمّا الأمواج الأخرى الكثيرة التي تأتي في السُّلَّمِ[١٣٨] تحت الأحمر، وفوق البَنَفْسَجِيّ، فلا تراها أبصارنا، لأنّنا خُلِقْنا عاجزين عن رؤيتها، بل إنّ هذه الأمواج ما خُلقتْ لتُرى وتُبْصَر.

واختلاف الأمواج في أطوالها، هو الذي يُفرِّق بينها في ألوانها وتأثيراتها: فأطوَل الأمواج التي يُقَدَّرُ طولها بالأميال، ولا تَقصُر عن ستّ موجات في البوصة، هي الأمواج التي تُؤثِّر في اللاّسِلْكِيّ. فإذا قَصُرَتْ الأمواج عن ذلك أصبحتْ تُحدِث الحرارة، فنُسَمّيها "أمواج الحرارة المظلمة" لأنّنا لا نراها ما دام طولها لا يزيد عن جزء من ثلاثين ألف جزء من البوصة. فإذا تجاوزَت هذا الحدّ بسُرعتِها تصبح قادرة على التّأثير في أبصارنا فنُسمّيها "أمواج الضّوء"، وهي التي تُحدِث ألوان الطّيف الشّمسيّ السّبعة. ويختلف لون هذه الأمواج المرئيّة باختلاف سُرعتِها، فعندما تكون سُرعتُها في البوصة الواحدة "٣٤" ألف موجة تُحدِث الضّوء الأحمر، فإذا قَصُرَتْ عن ذلك تُحدِث البرتقاليّ، ثمّ الأصفر، ثمّ الأخضر، ثمّ الأزرق، ثمّ النّيليّ. فإذا زاد قَصْرُها كثيراً، وأصبحت الأمواج متقاربة بحيث تشغل "٦٠" ألف موجة منها بوصة واحدة، فإنّها تُحدِث الضّوء البَنَفْسَجِيّ. فإذا ازداد قَصْرُها عن ذلك تصبح "غير منظورة" وتُحدِث الضّوء المُسمّى "فوق البَنَفْسَجِيّ" الذي يظهر لنا تأثيره في المواد الكيماويّة.

---

[١٣٦] سورة ص، الآية ٨٨.

[١٣٧] سورة الحاقّة، الآيتان ٣٨ – ٣٩.

[١٣٨] المقصود: سُلَّمُ الألوان.

ووراء ذلك سلالم كثيرة، فإنّ العالَم المنظور ليس إلاّ شيئاً ضئيلاً بالنّسبة إلى العالَم غير المنظور. فالأمواج الأثيريّة المعروفة حتّى الآن تَنْتَظِمُ في أكثر من "٢٧" سُلَّماً، المنظور منها سُلَّمٌ واحد، والسّلالم الأخرى غير منظورة"[١٣٩].

ومن دقيق صُنْعِ اللهِ تعالى ما كان من "أعمال بعض الحشرات أو الحيوانات الصّغيرة، وقال بعض العلماء عن الغرائز أنّها ضَرْبٌ من التَّعقُّل يتصاعد في سلَّم التَّطَوُّر. وقد يكون لبعض الحيوانات عقل بدائيّ يسير في سلَّم التَّرقّي كما قالوا، ولكنّنا نشاهد من الحيوانات الصغيرة، التي يفترض أن تكون أدنى مرتبة في سلَّم التَّطوُّر، أعمالاً يعجز عنها الكبير الأرقى، فينعكس معنا الدّليل، وينقلب سلّم التَّطوُّر العقليّ من الأعلى إلى الأدنى. وهذه الحيوانات الصّغيرة نفسها غير متساوية ولا متقاربة في تلك التَّصرُّفات الغريزيّة المعقَّدة، إذ منها ما لا يُحسِن عملاً سوى أن يبحث عن طعامه، ومنها ما يُدهش العقول بأعماله كالنّمل والنّحل والعناكب والطّيور. وبهذا الشّذوذ والاختلاف يختلّ دليل التَّطوُّر، وتصبح الغرائز على غير قاعدة، فيُضطرُّ العقل السّليم إلى التّسليم بأنّها أثرٌ لإرادة حُكْمِيَّةٍ شاءت أن تُميِّز بها بعض الحيوانات الضّعيفة، للدّلالة على وجود الله، وقُدرَتِه، وتَصرُّفِه في الخَلْق بمشيئته.

فالنّاظر للنّحل مثلاً يرى العَجب العُجاب وكيف تصنع العسل، وكيف تبني بيوتها، وكيف تَقسِم البيت إلى غرفٍ في نظام هندسيّ عجيب، منها الصّغيرة للعمّال، ومنها الكبيرة لليَعاسِب، ومنها غرفٌ للملكات الحوامل. فمنها ما يقوم بجني السّكر من كؤوس الأزهار، ومنها ما يقوم بإعداد الغذاء للأطفال، فيمضغ لها العسل ليَسْهُلَ هضمه عليها، فإذا بلغ الأطفال الحدّ الذي به تستغني عن هذه المساعدة، كَفَّتِ العاملات الطّابخات عن المضغ. ولكنّ هذا الدّلال يبقى للمرشَّحات للعرش. ويستمرّ هذا التّعاون الجَماعيّ، من دون أن يختلّ أو يتبدّل على كرِّ الأيّام والسّنين، بدقّة لا يتيسّر لنا أن نراها في أحسن مؤسّسة اجتماعيّة يديرها الإنسان العاقل"[١٤٠].

ومن الأمثلة العجيبة أيضاً "الحيوان المائيّ الذي يسمّى "القُنْدُر"، أو "القُنْدُس"[١٤١]، الذي يُروى عنه ما يُدهِش العقول في طريقة بنائه لبيوته وسدوده التي يختزن فيها طعامه طيلة أيّام الشّتاء والثّلج، فيقطع الشّجرة بأسنانه، ثمّ يَجُرُّ الجِذْعَ في مجرى الماء إلى المكان الذي اختاره ليبني فيه سَدَّهُ ومخزنه وبيته. وحين يعلو السَّدّ، بما يتراكم على الجِذْعَ من الطّين، وبما يَضمُّه القُنْدُرُ عليه من الورق واللِّحاء والألياف، يَشرَع

---

[١٣٩] نديم الجسر، قصّة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، المرجع السابق، ص ٣٥٣ – ٣٥٥.

[١٤٠] نديم الجسر، قصّة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، المرجع السابق، ص ٣٦٦.

[١٤١] يَشتهر "القُنْدُسُ" عند العامّة بأنّه أمهر مهندس سدود مائيّة،، كما يشتهر "الحمار" عندهم بأنّه أمهر مهندس طرق جبليّة.

كلّ زوجَيْن من القَنادر في بناء مسكنهما فوق السَّدِّ من عيدان وأغصان وحجارة يَحبكانها حبْكاً متيناً، ويجعلان منها غرفة مُقبَّبة مُطيَّنة ذات بابين، وأرضٍ من خشبٍ جافّ. ثمّ يأتيان بطعامهما من الأغصان فيجعلانه في الحوض تحت بيتهما مخزوناً، فكلّما أرادا، أخرجا من "بيت المونة" طعاماً فأكلاه وأوَيا إلى بيتهما الجافّ يَسكُنانه هادِئَيْنِ دافِئَيْنِ آمِنَيْن.

بأيّ عقل، بل بأيّة غريزة، تقوم هذه الحيوانات بهذه الأعمال المدهشة التي يَعجَز عنها الفيل والحصان والأسد، إنّه ميزان الخالق الذي أتقن كلّ شيءٍ بميزان"[١٤٢].

ومن دقيق صُنْعِ اللهِ أيضاً "الجسم البشريّ الذي كلّ ما فيه يدلّ على الله، لأنّ كلّ ما خلَق الله في الإنسان بديعٌ في تركيبه، مُحْكَمٌ في ترتيبه، رائع في إتقانه، دقيق في اتِّزانه، متناسب في حركاته، متوافق في غاياته، سواءً في ذلك ما يُرى من أقلّ الأعضاء شأناً وأثراً، كالشَّعرة والقُلامَة[١٤٣]، إلى أعظمِها قدْراً وخطَراً، كالعين والأذن والقلب والكبد والمعدة والأمعاء واللّسان والشَّفتَيْن، وما لا يُرى بالعين المجرَّدة من ملايين الخلايا والأعصاب التي هي أعْجَبُ بأسرارها وأغْرَب، وأبْدَعُ وأرْوَع، إنّه ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١٤٤]" [١٤٥].

المحور الثّاني: ميزان العدل بإنزال الكتب السّماويّة:

وَرَدَتْ في هذا المحور نقطة مُهمَّة، وهي إنزال الشّرائع السّماويّة على ألسنة الرُّسُل المُصْطَفينَ لكيلا يكون للنّاس على الله حُجَّةٌ يوم القيامة[١٤٦] بالعدل والميزان، لأنّها احْتَوَتْ على كلّ ما يلزم الإنسان على وجه البسيطة بما يضمن له السّعادة إن مشى بموجبها، وغايتُها توحيد الله تعالى وإعمار الأرض من خلال تعامل النّاس وَفْقَ الهَدْيِ الرَّبّانيِّ لرُسُلِهِ بما أُمِروا به لتبليغه للنّاس.

---

[١٤٢] نديم الجسر، قصّة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، المرجع السابق، ص ٣٦٧.

[١٤٣] القُلامَة: قُلامَةُ الظُّفْر.

[١٤٤] سورة النّمل، الآية ٨٨.

[١٤٥] نديم الجسر، قصّة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، المرجع السابق، ص ٤٠١.

[١٤٦] قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ ومُنذِرينَ لِئَلاَّ يَكونَ لِلنّاسِ عَلى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وكانَ اللهُ عَزيزاً حَكيماً﴾، سورة النّساء، الآية ١٦٥. وتتكلّم الآية عن إرسال الله تعالى الرُّسُلَ للنّاس مبشِّرين ومنذِرين، فلا يُقبَل يوم القيامة اعتذار أحدٍ بأنّه لم يسمع برُسُلِ اللهِ ووجوب الإيمان به وطاعته وعبادته، فلا توجد حُجَّةٌ لأحد من النّاس على الله تعالى بعد إرسال الرُّسُل لينذِروهم ويبلِّغوهم ويقطعوا عُذْرَهُمْ واعتِذارَهم بالجهل والغفلة، وقد ذكر تعالى ذلك بقوله: ﴿أنْ تَقولوا يَوْمَ القِيامَةِ إنّا كُنّا عَنْ هَذا غافِلينَ * أوْ تَقولوا إنَّما أشْرَكَ آباؤنا مِنْ قَبلُ وكُنّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ، أفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ المُبطِلونَ﴾، سورة الأعراف، الآيتان ١٧٢ – ١٧٣.

قال تعالى: ﴿اللهُ الذي أَنْزَلَ الكتابَ بالحَقِّ والميزانَ﴾[١٤٧].

والمراد بلفظ ﴿الكِتابَ﴾ الجنس، فيشمل جميع الكتب المُترَلة على الرُّسُل. وقيل: المراد به "القرآن" خاصّة. و﴿بالحَقِّ﴾ متعلّق بمحذوف، أي: مُلْتَبساً بالحقّ، وهو الصِّدق، والمراد بالميزان العدل، كذلك قال أكثر المفسِّرين، وقالوا: وسُمِّيَ العدل ميزاناً لأنّ الميزان آلة الإنصاف والتّسوية بين الخَلْق. وقيل: الميزان ما بُيِّنَ في الكتب المُترَلة ممّا يجب على كلّ إنسان أن يعمل به. وقيل: هو الجزاء على الطّاعة بالثّواب، وعلى المعصية بالعقاب.

وقيل: إنّه الميزان نفسه أنزله الله من السّماء، وعَلَّمَ العباد الوزن به لئلا يكون بينهم تَظالُمٌ وتَباخُس، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بالبَيِّناتِ وأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ والميزانَ لِيَقومَ النّاسُ بالقِسْطِ﴾[١٤٨].

وبيِّنات الرُّسُل الكرام هي المعجزات، والحجج الباهرات، والدّلائل القاطعات، ﴿وأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ﴾ وهو الوحي الرَّبانيُّ الذي أنزله تعالى على رُسُله الكرام، وهو النَّقْلُ المُصَدَّق، ﴿والميزانَ﴾ هو العدل.

---

[١٤٧] سورة الشّورى، الآية ١٧. وقول الله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿والميزانَ﴾، يعني أنّ الله جلّ وعلا هو الذي أنزل الميزان، والمراد به العدل والإنصاف. وقال بعض أهل العلم: الميزان في الآية: هو آلة الوزن المعروفة. وممّا يؤيِّد ذلك أنّ الميزان مِفْعال، والمِفْعالُ قياسيٌّ في اسم الآلة. وعلى التّفسير الأوّل وهو أنّ الميزان العدل والإنصاف، فالميزان الذي هو آلة الوزن المعروفة داخل فيه، لأنّ إقامة الوزن بالقِسط من العدل والإنصاف.

محمود بن محمّد المِنْياويّ، الجُموع البَهِيَّةُ للعقيدة السّلفيّة التي ذكرها العلامة الشّنقيطيّ في تفسيره أضواء البيان، مكتبة ابن عبّاس، ط ١، القاهرة – مصر، ١٤٢٦ هـ. - ٢٠٠٥ م.، ج ٢، ص ٦٦٦.

ويقول شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَة: "قد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿اللهُ الّذي أَنْزَلَ الكِتابَ بِالحَقِّ والميزانَ﴾، سورة الشّورى، الآية ١٧، وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بالبَيِّناتِ وأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ والميزانَ لِيَقومَ النّاسُ بِالقِسْطِ﴾، سورة الحديد، الآية ٢٥، والميزان يُفسِّره السَّلَفُ بالعدل، ويُفسِّره بعضهم بما يوزن به، وهما متلازمان، وقد أخبر أنّه أنزل ذلك مع رُسُلِهِ كما أنزل معهم الكتاب ليقوم النّاس بالقِسط، فما يُعرَف به تَماثُل المُتَماثِلاتِ من الصّفات والمقادير هو من الميزان، وكذلك ما يُعرَف به اختلاف المُختَلِفات، فمعرفة أنّ هذه الدّراهم، أو غيرها من الأجسام الثقيلة، بقَدْرِ هذه تُعرَف بموازينها، وكذلك مِثل هذا الزّمان يُعرَف بموازينه التي يُقَدِّرُ بها الأوقات ... فكذلك الفروع المَقيسَة على أصولها في الشّرعيّات والعقليّات تُعرَف بالموازين المشتركة بينهما، وهي الوصف الجامع المشترك الذي يُسمّى الحدّ الأوسط، فإنّا إذا علِمنا أنّ اللهَ حرَّم خمر العنب لِما ذَكَرَهُ من أنّها تَصُدُّ عن ذِكر الله وعن الصّلاة، وتوقِع بين المؤمنين العداوة والبغضاء، ثمّ رأينا نبيذ الحبوب من الحِنطة والشّعير والرُّزِّ وغير ذلك يُماثِلُها في المعنى الكُلِّيِّ المشترك، الذي هو علّة التّحريم، كان هذا القدْر المشترك، الذي هو العلّة"، هو الميزان الذي أنزله الله في قلوبنا لنَزِنَ به، هذا نجعله مثل هذا، فلا نُفرِّق بين المُتَماثِلَيْن، والقياس الصّحيح هو من العدل الذي أمر الله تعالى به".

عبد الرّحمن بن صالح بن صالح المحمود، موقف ابن تَيْمِيَةَ من الأشاعرة، ص ٢٦١، مكتبة الرُّشد، ط ١، الرّياض – المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤١٥ هـ. – ١٩٩٥ م..

[١٤٨] سورة الحديد، الآية ٢٥.

وقيل: هو الحقّ الذي تشهد به العقول الصّحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السّقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كانَ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ويَتْلوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾[١٤٩]، وقال تعالى أيضاً: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها﴾[١٥٠].

ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿لِيَقومَ النّاسُ بِالقِسْطِ﴾ أي: بالحقّ والعدل، وهو: اتِّباع الرُّسُلِ فيما أخبَروا به، وطاعتهم فيما أمَروا به، فإنّ الذي جاءوا به هو الحقّ الذي ليس وراءه حقّ، كما في قوله تعالى: ﴿وتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وعَدْلاً﴾[١٥١]، أي فيما وَعَدَ وحَكَم[١٥٢].

وقوله تعالى: ﴿لقد أرْسَلْنا رُسُلَنا بالبَيِّناتِ﴾، أي: بالمعجزات البيِّنة، والشّرائع الظّاهرة. وقيل: الإخلاص لله تعالى في العبادة، وإقامَ الصّلاة وإيتاءَ الزّكاة، بذلك دَعَتِ الرُّسُلُ من نوحٍ عليه السّلام إلى محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم. والله سبحانه وتعالى أرسل الرُّسُلَ بالمُفَصَّلاتِ من البيان والدّلائل، وأنزل معهم الكتاب بالأحكام والشّرائع والميزان بالعدل.

وجَمْعُ "الرُّسُلِ" هنا لإفادة أنّ ما جاء به محمّد صلّى الله عليه وسلّم ليس بِدْعاً من الرُّسُل، وأنّ مكابرة المنافقين عِمايَةٌ عن سُنَّةِ الله في خَلْقِه، فتأكيد ذلك مبنيّ على تنزيل السّامعين منزلةَ مَن يُنكر أنّ اللهَ أرسل رُسُلاً قبل محمّد صلّى الله عليه وسلّم، لأنّ حالَهم في التَّعجُّب من دعواه الرّسالة كحالِ مَن يُنكر أنّ اللهَ عزّ وجلّ أرسل رُسُلاً من قبل. وقد تكرَّر مثل هذا في مواضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلي بالبَيِّناتِ﴾[١٥٣ ١٥٤].

والميزان مُستعارٌ للعدل بين النّاس في إعطاء حقوقهم، لأنّ ممّا يقتضيه الميزان وجود طرفَين يُراد معرفة تَكافُئِهما، قال تعالى: ﴿وإذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاسِ أنْ تَحْكُموا بالعَدْلِ﴾[١٥٥]. وهذا الميزان تُبيِّنه كتب الرُّسُل، فذَكَرَهُ بخصوصه للاهتمام بأمره لأنّه وسيلة انتظام أمور البشر، كقوله تعالى: ﴿إنّا أنْزَلْنا إلَيْكَ الكِتابَ

---

[١٤٩] سورة هود، الآية ١٧.

[١٥٠] سورة الرّوم، الآية ٣٠.

[١٥١] سورة الأنعام، الآية ١١٥.

[١٥٢] محمّد كَرِّيِّمْ راجِح، مختصر تفسير القرطبيّ، دار الكتاب العربيّ، ط ٢، بيروت – لبنان، ١٤٠٦ هـ. – ١٩٨٦ م.. ص ١٤٢.

[١٥٣] سورة آل عمران، الآية ١٨٣.

[١٥٤] لمزيد من التّفصيل انظر محمّد الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير (تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، الدّار التّونسيّة للنّشر، ط ١، تونس – تونس، ١٩٨٤ م.، ج ٢٧، ص ٤١٥ وما بعدها.

[١٥٥] سورة النّساء، الآية ٥٨.

بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما أراكَ اللهُ﴾[١٥٦]، وليس المراد أنّ اللهَ ألهمَهم وضع آلات الوزن لأنّ هذا ليس من المُهمّ، وهو ممّا يشمُله معنى العدل فلا حاجة إلى التّنبيه عليه بخصوصه.

والقِسط هو العدل في جميع الأمور، وهو أعمّ من الميزان المذكور لاختصاصه بالعدل بين مُتنازِعَين، وهو إجراءُ أمور النّاس على ما يقتضيه الحقّ، فهو عدلٌ عامٌّ بحيث يُقدَّر صاحب الحقّ منازِعاً لَمن قد احتوى على حقِّه.

ولفظ "القِسْطِ" مأخوذ في العربيّة من لفظ "قِسْطاس"، اسم "العدل" بلغة الرّوم، فهو من المُعَرَّب، وروي ذلك عن مجاهد[١٥٧].

ودلّت الآية على وجوب اتِّباع دلالات القرآن لأنّه حقٌّ لا يمكن تبديله بما يناقضه، لأنّه من عند حكيمٍ لا يَخفى عليه شيءٌ من الأمور كلِّها[١٥٨].

المحور الثّالث: ميزان العدل بين النّاس:

وَرَدَتْ في هذا المحور نقطة مُهمَّة، وهي العدل بين النّاس حتّى في إقامة الوزن، قال تعالى: ﴿وأقيموا الوَزْنَ بِالقِسْطِ ولا تُخْسِروا الميزانَ﴾[١٥٩]. وكان ابن عبّاس يقول: "يا معشر الموالي، إنّكم قد وُلّيتُمْ أمرَيْن بهما هلك مَن كان قبلكم، هذا المكيال، والميزان، ﴿وأقيموا الوَزْنَ بِالقِسْطِ ولا تُخْسِروا الميزانَ﴾"، وتَخسيره: نَقصه[١٦٠].

ونبَّه الله تعالى في القرآن الكريم الإنسان على عدم الطّغيان في الميزان، فإذا كان الطّغيان في ميزان السّوق مَنْهِيٌّ عنه بصورة جازمة لِما يُحدِثُه من بَخْسٍ لحقوق النّاس والتّلاعب بممتلكاتهم، فميزان الكون أحرى أن نحافظ عليه لأنّ حياة البشريّة كلِّها تتوقّف على صلاحِه أو فسادِه، والكون كلُّه قائم على قانون القِسط.

---

[١٥٦] سورة النّساء، الآية ١٠٥.

[١٥٧] ابن عاشور، التحرير والتنوير، المرجع السّابق، ج ٢٧، ص ٤١٦.

[١٥٨] القُرْطُبِيّ، تفسير القرطبي، المرجع السّابق، ص ٦٥.

[١٥٩] سورة الرّحمن، الآية ٩.

[١٦٠] فيصل بن عبد العزيز الحريمليّ، توفيق الرّحمن في دروس القرآن، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله ابن إبراهيم الزّير، دار العاصمة، ط ١، الرّياض – المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م.، ج ٤، ص ١٩١.

وقيل: أُنزِل الميزان في زمان نوحٍ عليه السّلام، و لم يكن قبل ذلك ميزان، ﴿ألاّ تَطْغَوْا في الميزان﴾[١٦١]، أي: لكي لا تَظلموا في الميزان.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ووَضَعَ الميزانَ﴾[١٦٢]، أي: وضع في الأرض العدل الذي أمَر به عندما وضع الشّريعة. وعلى هذا الميزان كان نزول القرآن، لأنّ فيه بيان ما يُحتاج إليه، بما في ذلك الميزان ذو اللّسان الذي يوزَن به لينتَصِف به النّاس بعضهم من بعض، كما في قوله تعالى: ﴿وأقيموا الوَزْنَ بالقِسْط﴾، والقِسْطُ: العَدْل. وقيل: هو الحُكم. وقيل: أراد وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال[١٦٣].

وورد عند أكثر المفسِّرين عن الميزان أنّه العدل في المعاملات، فالتّعامل بين النّاس يتمّ عبر ميزانٍ حِسِّيٍّ وميزان معنويّ.

والميزان الحِسِّيُّ هو ما يوزَن به في البيع والشّراء، أي: كلّ ما توزَن به الأشياء وتُعرَف مقاديرها، من ميزان، وقَرَسْطون[١٦٤]، ومكيال، ومعيار، أي: خَلَقه مَوْضوعاً على الأرض من حيث عَلَّقَ به أحكام العباد على التّسوية والتّعديل في أخذِهم وإعطائهم[١٦٥].

أمّا الميزان المعنويّ فهو نتيجة الميزان الحِسِّيّ، أي بعدم التّظالُم بين النّاس، والعدل بينهم، ولهذا يُنْصَبُ الميزان فوق رؤوس القضاة في المحاكم ليحكموا بالعدل بين النّاس.

ميزان التّعامل التّجاريّ بين النّاس:

أوضح الله جلّ وعلا في القرآن الكريم كيفيّة إقامة الميزان في العمل التّجاريّ، وذلك في قصّة نبيِّ الله شُعَيْب عليه السّلام، الذي أرسله الله جلّ وعلا إلى قومه أهل "مَدْيَنَ"، وكانوا أهل تجارة، بعد أن فَشَتْ فيهم آفَة اقتصاديّة كبرى أوقَعَت الظُّلم على فئة من النّاس لتنتعش بها فئة أخرى تأكل أموال النّاس بالباطل.

---

[١٦١] سورة الرّحمن، الآية ٨.

[١٦٢] سورة الرّحمن، الآية ٧.

[١٦٣] القُرْطُبِيّ، تفسير القرطبي، المرجع السّابق، ج ١٧، ص ١٥٤، بتصرّف.

[١٦٤] القَرَسْطون: من الموازين الصغيرة الدقيقة جدًّا.

محمّد بَهجة الأَثَرِيّ، الألفاظ الحضاريّة ودلالاتها وأمثلة منها (القَرَسْطون أو القارَسْطون)، http://www.alukah.net/literature_language/٠.

في ١١ / ١٢ / ٢٠١٦ م..

[١٦٥] أحمد بن محمّد بن المهديّ الفاسِيّ، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق أحمد عبد الله القُرَشِيِّ رَسلان، النّاشر د. حسن عبّاس زكي، ط ١، القاهرة – مصر، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م.، ج ٧، ص ٢٦٧.

فقد كان أهل "مَدْيَنَ" يَبْخَسون[١٦٦] النّاس أشياءهم، لشرائِها منهم بأبْخَسِ الأثمان ثمّ بَيْعِها بأعلى الأثمان ليَجْنوا من جرّاء ذلك المال الوفير، دون اعتبارٍ لحُرْمَةِ استغلال النّاس لجَنْيِ هذا المال.

فدعاهم شُعَيْبٌ عليه السّلام إلى طلب الرِّزق الحلال بإعطاء النّاس أثمان أشيائهم الفعليّ وعدم بَخْسِهِمْ أثمانها بقوله الذي ذكره الله جلّ وعلا في القرآن الكريم: ﴿ولا تُنْقِصوا المِكْيالَ والميزانَ، إنّي أراكُمْ بِخَيْرٍ وإنّي أخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحيطٍ * ويا قَوْمِ أوْفوا المِكْيالَ والميزانَ بالقِسْطِ، ولا تَبْخَسوا النّاسَ أشْياءَهُمْ، ولا تَعْثَوْا[١٦٧] في الأرْضِ مُفْسِدينَ﴾[١٦٨]. وقوله: ﴿قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأوْفوا الكَيْلَ والميزانَ﴾[١٦٩]. وبالغ شُعَيْبٌ عليه السّلام في نَهْيِ قومه عن ظُلم النّاس وأكلِ أموالهم بالباطل، وكان يدعوهم إلى تَحرّي الحلال في تجارتهم بقوله: ﴿بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ[١٧٠] إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ﴾[١٧١].

كما بَيَّنَ لقومه أنّه مجرّد نذيرٍ لهم، ولا يستطيع رَدَّ عذاب الله عنهم إذا ما نَزَلَ بهم، وذلك بقوله لهم: ﴿وما أنا عَلَيْكُمْ بِحَفيظٍ﴾[١٧٢]. ولكنّهم لم يمتثلوا لقوله ولأمره حتّى أتاهم عقاب الله تعالى فأخَذَهم أخْذَ عزيزٍ مُقْتَدِرٍ. قال تعالى: ﴿ولَمّا جاءَ أمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً والَّذينَ آمَنوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا وأخَذَتِ الَّذينَ ظَلَموا الصَّيْحَةُ فَأصْبَحوا في دِيارِهِمْ جاثِمينَ[١٧٣] * كَأنْ لَمْ يَغْنَوْا فيها، ألا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعُدَتْ ثَمودُ﴾[١٧٤].

وإنقاص الكيل والميزان آفَةٌ ذَمَّ اللهُ مَن اتَّصَفَ بها وتَوَعَّدَهُ بالعقاب في صدر سورة المُطَفِّفين، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفينَ * الَّذينَ إذا اكْتالوا على النّاسِ يَسْتَوْفونَ * وإذا كالوهُمْ أوْ وَزَنوهُمْ يُخْسِرونَ * ألا يَظُنُّ أولَئِكَ أنَّهُمْ مَبْعوثونَ * لِيَوْمٍ عَظيمٍ * يَوْمَ يَقومُ النّاسُ لِرَبِّ العالَمينَ﴾[١٧٥].

وكلمة ﴿وَيْلٌ﴾ تُذْكَرُ عند وقوع البلاء، فيُقال: وَيْلٌ لك، ووَيْلٌ عليك. و"المُطَفِّف": الذي يُنقِص الكيل والوزن، وأراد بهذا الذين يُعامِلونَ النّاسَ فإذا أخَذوا لأنفسهم اسْتَوْفوا، وإذا دفعوا إلى مَن يُعامِلُهم نَقصوا،

---

[١٦٦] البَخْس: هو النَّقْص، ويكون في السِّلعة بالتّعييب والتّزهيد فيها، أو المخادَعة عن القيمة الحقيقيّة لها.

[١٦٧] لا تَعْثَوْا: لا تُفسِدوا في الأرض.

[١٦٨] سورة هود، الآيتان ٨٤ - ٨٥.

[١٦٩] سورة الأعراف، الآية ٨٥.

[١٧٠] بقيّة الله خيرٌ لكم: الرِّزْقُ الحَلال.

[١٧١] سورة هود، الآية ٨٦.

[١٧٢] سورة هود، الآية ٨٦.

[١٧٣] جاثِمين: مَصروعينَ مَيِّتينَ في أماكنهم .

[١٧٤] سورة هود، الآيتان ٩٤ – ٩٥.

[١٧٥] سورة المُطَفِّفين، الآيات ١ – ٦.

ويتجلّى ذلك في الوزن والكيل، وفي إظهار العَيْب[١٧٦]، وفي القضاء والأداء والاقتضاء، فمَن لم يَرْضَ لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه فليس بمُنْصِف، ومَن اقتضى حقَّ نفسه دون أن يقضي حقوق غيره مثلما يقتضيها لنفسه فهو من جُملة المُطَفِّفين[١٧٧].

ودلّت الآيات الكريمة على أنّ الإنسان كما يأخذ من النّاس الذي له، يجب عليه أن يعطيهم كلّ ما لهم من الأموال والمعاملات. بل يدخل في عموم هذا الحُجَجُ والمقالات، فإنّه كما أنّ المُتَناظِرَيْنِ قد جرت العادة أنّ كلّ واحد منهما يحرص على ما له من الحُجَج، فيجب عليه أيضاً أن يَبِينَ ما لخصمه من الحُجج التي لا يَعلَمُها، وأن يَنظُر في أدلّة خصمه كما يَنظُر في أدلّته هو، وفي هذا الموضع يُعرَف إنصاف الإنسان من تَعصُّبه واعْتِسافِه، وتَواضُعُهُ من تَكَبُّرِهِ، وعَقْلُهُ من سَفَهِه.

ثمّ تَوَعَّدَ اللهُ تعالى المُطَفِّفين، وتَعَجَّبَ من حالِهم وإقامَتِهم على ما هم عليه، فقال: ﴿ألا يَظُنُّ أولَئِكَ أنَّهُمْ مَبْعوثونَ لِيَوْمٍ عَظيمٍ يَوْمَ يَقومُ النّاسُ لِرَبِّ العالَمين﴾، فالذي جَرَّأهُمْ على التّطفيف عدم إيمانهم باليوم الآخِر، وإلاّ فَلَوْ آمَنوا به، وعرَفوا أنّهم يقومون بين يَدَيِ الله، يُحاسِبُهم على القليل والكثير، لأقلعوا عن ذلك وتابوا منه[١٧٨].

وقال تعالى: ﴿وأوْفوا الكَيْلَ إذا كِلْتُمْ وزِنوا بِالقِسْطاسِ المُسْتَقيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وأحْسَنُ تَأْويلاً﴾[١٧٩]. أي: يا ابن آدم، كما تَدين تُدان، وكما تُعامِل تُجازى، وكما تَكيلُ يُكالُ لك[١٨٠].

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وأوْفوا الكَيْلَ والميزانَ بِالقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها﴾[١٨١].

المحور الرّابع: ميزان الأعمال يوم القيامة:

وَرَدَتْ في هذا المحور نقطة مُهمَّة، وهي ميزان أعمال البشر يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القيامةِ فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً، وإنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أتَيْنا بِها، وكَفى بِنا حاسِبينَ﴾[١٨٢].

---

[١٧٦] العَيْب: عيب البضاعة المعروضة للبيع.

[١٧٧] القُشَيْرِيّ، لطائف الإشارات، تحقيق إبراهيم البَسْيونيّ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط ٣، القاهرة – مصر، ل. ت.، ج ٣، ص ٦٩٩ – ٧٠٠.

[١٧٨] عبد الرّحمن بن ناصر بن عبد الله السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، تحقيق عبد الرّحمن بن مُعَلاّ اللُّوَيْحِق، مؤسّسة الرّسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ. – ٢٠٠٠ م.، بيروت – لبنان، ص٩١٥.

[١٧٩] سورة الإسراء، الآية ٣٥.

[١٨٠] القُشَيْرِيّ، لطائف الإشارات، المرجع السّابق، ج ٢، ص ٣٤٧.

[١٨١] سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

وتوزَن الأعمال يوم القيامة بميزان الإخلاص، فما ليس فيها إخلاص لا يُقبَل، وتوزَن الأحوال بميزان الصِّدق، فما يكون فيها الإعجاب لا يُقبَل[١٨٣].

وتدلّ الآية الكريمة على أنّ لكلّ مُكَلَّفٍ ميزاناً توزَن به أعماله، فتوضَع الحسنات في كفّة والسَّيِّئات في كفّة. أو أنّ هناك موازينَ عدّة لكلّ إنسان مُكَلَّف، يوزَن بكلّ ميزان منها صِنْفٌ من أعماله. كما يمكن أن يكون ميزاناً واحداً عَبَّرَ المولى سبحانه وتعالى عنه بلفظ الجَمْع.

و"القِسط" هو العدل، أي ليس فيه بَخْسٌ ولا ظُلْم، و"القِسط" صفة الموازين، ووُحِّدَ لأنّه مَصدر، ويقال: ميزانٌ قِسط، وميزانانِ قِسط، وموازينُ قِسط. ﴿فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ أي لا يُنقَص من إحسانِ مُحْسِنٍ ولا يُزادُ في إساءة مُسيء. ﴿وإنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أي وإن كان العمل، أو ذلك الشّيء، مِثْقال. ومِثْقالُ الشّيء: ميزانٌ من مِثْلِه. ﴿أَتَيْنا بِها﴾ أي أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها ولَها. ﴿وكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾ أي مُجازينَ على ما قدَّموه من خيرٍ وشرّ. وقيل: ﴿حاسِبِينَ﴾ أي لا أحدَ أسرعُ حساباً من الله عزّ وجلّ[١٨٤].

وقال تعالى: ﴿اليَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ، لا ظُلْمَ اليَوْمَ، إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ﴾[١٨٥].

فيوم القيامة تُجزى كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ من خيرٍ أو شرّ. ﴿لا ظُلْمَ اليَوْمَ﴾، أي لا يُنقَص أحدٌ شيئاً ممّا عَمِلَه. ﴿إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ﴾، فلا يُؤَخِّرُ جَزاءَ أحدٍ للاشتغال بغيره، وكما يرزُقُهم في ساعةٍ واحدةٍ يُحاسِبُهم كذلك في ساعةٍ واحدة[١٨٦].

وقال تعالى: ﴿إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ، وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها ويُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أجْراً عَظِيماً﴾[١٨٧].

وقال تعالى: ﴿فَأمّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ * فَهُوَ في عيشَةٍ راضِيَةٍ * وأمّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ * فأُمُّهُ هاوِيَةٌ * وما أدْراكَ ما هِيَهْ * نارٌ حامِيَةٌ﴾[١٨٨].

أي أنّ مَن ثَقُلَتْ موازين حسناته يوم القيامة ﴿فَهُوَ في عيشَةٍ راضِيَةٍ﴾، وكلمة ﴿عيشَةٍ﴾ تَجمَع النِّعَمَ التي في الجنّة، فهي فاعِلَةٌ للرِّضا.

---

[١٨٢] سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

[١٨٣] القُشَيْرِيّ، لطائف الإشارات، المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٠٥.

[١٨٤] محمّد كَرِّيِّمْ راجِح، مختصر تفسير القرطبي، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٦٣.

[١٨٥] سورة غافر، الآية ١٧.

[١٨٦] محمّد كَرِّيِّمْ راجِح، مختصر تفسير القرطبي، المرجع السّابق، ج ٤، ص ٣٠٠.

[١٨٧] سورة النّساء، الآية ٤٠.

[١٨٨] سورة القارعة، الآيات ٦ – ١١.

﴿وأمّا مَنْ خَفَّتْ مَوازينُهُ * فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ﴾، يعني جهنّم. وسُمِّيَتِ النّار هاوِيَةً لأنّه يهوي فيها مَن خَفَّتْ موازينُه مع بُعْدِ قَعْرِها. ﴿وما أدْراكَ ما هِيَهْ * نارٌ حامِيَةٌ﴾، أي شديدة الحرارة. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أنّ النَّبيَّ ﷺ قال: (نارُكُمْ هذهِ التي يوقِدُ ابنُ آدَمَ جزءٌ من سبعينَ جزءاً من حَرِّ جهنّم). قالوا: واللهِ إنْ كانت لكافِيَةً يا رسول الله. قال: (فإنّها فُضِّلَتْ عليها بتِسعةٍ وستّينَ جزءاً كلُّها مِثْلُ حَرِّها)[189].

وقد ذَكَرَ الباري تعالى بأنّه لا وزن لأعمال الكفّار يوم القيامة، وذلك بقوله: ﴿أولَئِكَ الَّذينَ كَفَروا بآياتِ رَبِّهِمْ ولِقائِهِ فَحَبِطَتْ أعْمالُهُمْ فَلا نُقيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ وَزْناً﴾[190]، حيث عَموا عن شهود الحقيقة فبَقوا في ظُلْمَةِ الجَحْد، فتَفَرَّقَتْ بهم الأوهام والظّنون، ولم يكونوا على بصيرة، ولم تَستقِرَّ قلوبهم على عقيدةٍ مقطوعٍ بها، فليس لهم في الآخرة وَزْنٌ ولا خَطر، وفي الدّنيا هم كالأنعام، وفي الآخرة واقِعونَ ساقِطونَ تَدوسُهُمُ الأقدام[191].

وخلاصة القول أنّ مَن ثَقُلَتْ مَوازينُه يوم القيامة بالخَيرات فهو في عيشة راضية، أي مُرْضِيَة.

﴿وأمّا مَنْ خَفَّتْ مَوازينُهُ * فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ﴾، أي أنّ مَن خَفَّتْ مَوازينُه من الطّاعات، وهم الكفّار، فمأواه هاوِيَة[192].

وقال تعالى: ﴿والوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازينُهُ فَأولِئِكَ هُمُ المُفْلِحونَ﴾[193]، حيث يَزِنُ اللهُ عزّ وجلّ أعمال البشر يوم القيامة بميزان الإخلاص، وأحوالَهم بميزان الصِّدق[194]. ﴿ومَنْ خَفَّتْ مَوازينُهُ

---

[189] محمد كريم راجح، مختصر تفسير القرطبي، المرجع السابق، ج ٥، ص ٤٢٨.

[190] سورة الكهف، الآية ١٠٥.

[191] القُشَيْرِيّ، لطائف الإشارات، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤١٥.

ورد في الحديث الشّريف عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: (يُحْشَرُ المُتَكَبِّرونَ والجَبّارونَ يوم القيامة في صُوَرِ الذَّرِّ* يَطَؤهُم النّاس، لِهَوانِهم على الله عزّ وجلّ).

* الذَّرّ: صِغار النَّمل.

ابن أبي الدّنيا، التّواضع والخُمول، تحقيق محمّد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٠٩ ه. – ١٩٨٩ م.، ص٢٧٠، حديث رقم٢٢٤.

[192] القُشَيْرِيّ، لطائف الإشارات، المرجع السابق، ج ٣، ص ٧٦١.

[193] سورة الأعراف، الآية ٨.

[194] القُشَيْرِيّ، لطائف الإشارات، المرجع السّابق، ج ١، ص ٥٢٠.

فَأولَئِكَ الَّذينَ خَسِروا أنْفُسَهُمْ﴾[١٩٥]، فمَن كانت أعمالُهم بالرِّياء مصحوبةً لم يَقبل أعمالَهم، ومَن كانت أحوالُهم بالإعجاب مَشوبَةً لم يَرفع أحوالَهم[١٩٦].

موازين بعض الأعمال في السُّنَّة الشّريفة:

وَرَدَتْ في السُّنَّة الشّريفة أحاديث عديدة تصف بعض الأعمال التي تزيد ميزان الحسنات يوم القيامة، ومن هذه الأعمال ما ورد في الأحاديث التّالية:

١ – حُسْنُ الخُلُق، حيث ورد عن النَّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: (إنّ أثْقَلَ ما وُضِعَ في ميزان المؤمِن يوم القيامة خُلُقٌ حَسَن، وإنّ اللهَ يُبْغِضُ الفاحِشَ البَذيء)[١٩٧].

٢ – تَسبيحُ اللهِ وحَمْدِه، حيث ورد عن النَّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: (كلِمَتانِ خَفيفَتانِ على اللِّسان، ثَقيلَتانِ في الميزان، حَبيبَتانِ إلى الرّحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحَمْدِه)[١٩٨]. وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أيضاً: (بَخٍ بَخٍ، خَمْسٌ ما أثْقَلَهُنَّ في الميزان وأهْوَنَهُنَّ على اللِّسان). قال رجل: ما هُنَّ يا رسول الله؟ قال: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر، والولد الصّالح يَتَوَفّاه اللهُ فيَحْتَسِبُهُ والِدُه)[١٩٩].

٣ – الجهاد في سبيل الله، حيث ورد عن النَّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: (مَنِ احْتَبَسَ فَرَساً في سبيل الله إيماناً بالله وتَصديقاً بوَعْدِه، فإنّ شِبَعَهُ وريَّهُ ورَوْثَهُ وبَوْلَهُ في ميزانِه يوم القيامة)[٢٠٠].

---

[١٩٥] سورة الأعراف، الآية ٩.

[١٩٦] القُشَيْريّ، لطائف الإشارات، المرجع السابق، ج ١، ص ٥٢٠ – ٥٢١.

[١٩٧] ابن حِبّان، صحيح ابن حِبّان، تحقيق شُعَيْبٌ الأرنؤوط، مؤسّسة الرّسالة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٠٨ هـ. – ١٩٨٨ م.، ج ١٢، ص ٥٠٦، حديث رقم ٥٦٩٣.

[١٩٨] البخاريّ، صحيح البخاريّ، تحقيق محمّد زهير بن ناصر النّاصر، دار طوق النّجاة، ط ١، ١٤٢٢هـ. – ٢٠٠١ م.، ج ٨، ص ٨٦، حديث رقم ٦٤٠٦.

[١٩٩] ابن الأثير، أُسْدُ الغابة في معرفة الصّحابة، تحقيق عليّ محمّد مُعَوَّض / عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٥ هـ. – ١٩٩٤ م.، ج ٤، ص ٤٤٦، حديث رقم ٤٤٥٥.

[٢٠٠] البخاريّ، صحيح البخاري، المرجع السابق، ج ٤، ص ٢٨، حديث رقم ٢٨٥٣.

احْتَبَسَ: هَيَّأ وأعَدّ. في سبيل الله: بنيَّةِ الجهاد. إيماناً بالله: امْتِثالاً لأمْرِه. تَصديقاً بوَعْدِهِ: الذي وَعَدَ به من الثّواب على ذلك. رِيَّهُ: ما يرويه من الماء. رَوْثُهُ: فَضَلاتُه. في ميزانِه: أي يوضع ثواب هذه الأشياء في كفّة حَسَناتِه.

وورد عن النَّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: (يُؤْتى بابنِ آدَمَ يومَ القيامةِ فيوقَفُ بين كَفَّتي الميزان، ويوكَلُ بهِ مَلَك، فإنْ ثَقُلَ ميزانُه نادى المَلَكُ بصوتٍ يُسْمِعُ الخَلائِق: سَعِدَ فُلانٌ بنُ فُلانٍ سَعادَةً لا يَشقى بعدها أبداً، وإنْ خَفَّ ميزانُه نادى المَلَكُ بصوتٍ يُسْمِعُ الخَلائِق: ألا شَقِيَ فُلانٌ شَقاوَةً لا يَسْعَدُ بعدها أبداً)[٢٠١].

ومن مشاهد الحساب يوم القيامة ما ذَكَرَهُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقوله: (إنّ اللهَ عزّ وجلّ يَسْتَخْلِصُ رجلاً من أُمَّتي على رؤوس الخَلائِق يوم القيامة، فيَنْشُرُ عليه تِسعةً وتِسعينَ سِجِلاًّ، كلُّ سِجِلٍّ مَدُّ البَصر، ثمّ يقول له: {أتُنْكِرُ من هذا شيئاً؟ أظَلَمتكَ كَتَبَتي الحافِظون؟}. قال: لا يا رَبّ. فيقول: {ألَكَ عُذر، أو حَسَنَة؟}. فيَبْهَتُ الرّجل، فيقول: لا يا رَبّ. فيقول: {بلى، إنّ لكَ عندنا حَسَنَةً واحدة، لا ظُلْمَ اليومَ عليك}. فتُخْرَجُ له بطاقةٌ فيها: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّداً عبدُه ورسوله، فيقول: {أحْضِروه}. فيقول: يا رَبّ، ما هذه البطاقة مع هذه السِّجِلاّت؟ فيُقال: إنّك لا تُظْلَم. قال: فتوضَعُ السِّجِلاّتُ في كَفَّة [والبطاقة في كفة]، قال: فطاشَتِ السِّجِلاّت، وثَقُلَتِ البطاقة)[٢٠٢].

---

[٢٠١] محمّد بن أحمد بن سالم السّفارينيّ، لوامِع الأنوار البهيّة وسواطِع الأسرار الأثريّة لشرح الدُّرَّةِ المُضِيَّةِ في عَقْدِ الفُرقة المَرْضِيَّة، مؤسّسة الخافِقَيْن، ط ٢، دمشق – سورية، ١٤٠٢ هـ. – ١٩٨٢ م.، ج ٢، ص ١٨٥.

[٢٠٢] أحمد بن حنبل، مُسنَد أحمد بن حنبل، المرجع السابق، ج ١١، ص ٥٧١، حديث رقم ٦٩٩٤.

الفصل الثّاني

الكون السّاجد

السّجود لغة:

السّجود لغة: اشتُقّت كلمة "السّجود" من فِعل "سَجَدَ"، السّين والجيم والدّال أصلٌ واحد مُطَّرِدٌ يدلّ على تَطامُنٍ[٢٠٣] وذُلّ. يُقال: سَجَد، إذا تَطامَن[٢٠٤].

وسَجَد: خضع[٢٠٥]. والاسم: السِّجدة، بالكَسر، وسورة السَّجدة، بالفَتح. وكلّ مَن ذَلَّ وخضع لِما أُمِرَ به، فقد سَجَد، ومنه قوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ اليَمينِ والشَّمائِلِ سُجَّداً للهِ وهُمْ داخِرونَ[٢٠٦]﴾[٢٠٧]، أي خُضَّعاً مُتَسَخِّرَةً لِما سُخِّرَتْ له[٢٠٨].

وأسْجَدَ الرَّجُل: إذا طَأْطَأَ رأسهُ وانحنى[٢٠٩]. وسَجَدَ يَسْجُدُ سُجوداً: وضع جبهته بالأرض. ويُقال: قومٌ سُجَّدٌ وسُجود[٢١٠]، وهو سجود الصّلاة، ولا خضوعَ أعظَم منه[٢١١].

ومن قول العرب: قد سَجَدَتِ الدّابة وأسَجَدَت: إذا خَفَضَتْ رأسها لتُرْكَب. وفي هذا أنشد أعرابِيٌّ من بني أسد:

وَقُلْنَ لَهُ أسْجِدْ لِلَيْلى فَأسْجَدا

يعني البَعير، أي طَأْطَأَ لها لتَرْكَبه[٢١٢].

---

[٢٠٣] تَطامَن: سَكَنَ، انْخَفَضَ.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٣٩٥.

[٢٠٤] أحمد بن فارس بن زكريّاء القزوينيّ الرّازيّ، معجم مقاييس اللّغة، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٣٩٩ هـ. – ١٩٧٩ م.، ج ٣، ص ١٣٣.

[٢٠٥] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط ٣، بيروت – لبنان، ١٤١٤ هـ. – ١٩٩٤ م.، ج ٣، ص ٢٠٦.

[٢٠٦] دَخَر: ذلّ وانقاد.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٢٢٢.

[٢٠٧] سورة النّحل، الآية ٤٨.

[٢٠٨] ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٠٦.

[٢٠٩] إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ الفارابيّ، الصّحاح تاج اللّغة وصِحاح العربيّة، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، ط ٤، بيروت – لبنان، ١٤٠٧ هـ. – ١٩٨٧ م.، ج ٢، ص ٤٨٤.

[٢١٠] ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٠٤.

[٢١١] ابن منظور، لسان العرب، المرجع نفسه، ج ٣، ص ٢٠٦.

ويُقال: أسْجَدَ إسْجاداً، والإسجاد: فتور الطَّرْف، وعينٌ ساجدة: إذا كانت فاترة[٢١٣]. والإسجادُ: إدامة النَّظَر وإمراضُ الأجفانِ[٢١٤]. وقال كُثَيِّر:

أغَرَّكِ مِنّا أنَّ ذلك عِنْدَنا وإسْجادَ عَيْنَيْكِ الصَّيودَيْنِ[٢١٥] رابِحُ[٢١٦]

المسجِد لغة:

المسجِد لغة: المكان الذي يُسجَد فيه، وكلّ مَوضِع يُتَعَبَّدُ فيه فهو مسجِد، قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مسجِداً وطَهوراً)[٢١٧].

والمَسْجَدْ بفَتح الجيم: مِحراب البيوت. ومُصلّى الجماعات: مسجِد، بكَسر الجيم، والمساجِدُ جَمْعُها. والمساجد أيضاً: الآرابُ التي يُسْجَدُ عليها[٢١٨]. والمَسْجِد: الإرْبُ الَّذي يُسْجَدُ عليه، مثل الكَفَّيْنِ والرُّكْبَتَيْنِ والقَدَمَيْنِ والجبهة، وكلّ إرْبٍ من هذه مَسْجِد، وجَمْعُها مساجِد. وَفَسَّرَ قومٌ من المُفَسِّرين: ﴿وأنَّ المَساجِدَ للهِ﴾[٢١٩]، يريد الآراب، وهي الأعضاء الَّتي يُسْجَدُ عليها، والله أعلم[٢٢٠]. ومن هذا قولهم: ويُجعل الكافور[٢٢١] في مساجِدِه: أي الميت[٢٢٢] [٢٢٣].

---

[٢١٢] إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ الفارابيّ، الصِّحاح تاج اللّغة وصِحاح العربيّة، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٨٤ – وانظر أحمد بن فارس بن زكريّاء القزوينيّ الرّازيّ، معجم مقاييس اللّغة، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٣٣.

[٢١٣] ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٠٥.

[٢١٤] إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ الفارابيّ، الصِّحاح تاج اللّغة وصِحاح العربيّة، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٨٤ – وانظر أحمد بن فارس بن زكريّاء القزوينيّ الرّازي، معجم مقاييس اللّغة، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٣٣.

[٢١٥] الصَّيود: الماهر في الصَّيْد.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٣٧٥.

[٢١٦] إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ الفارابيّ، الصِّحاح تاج اللّغة وصِحاح العربيّة، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٨٤.

[٢١٧] قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (أُعطيتُ خَمْساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعب مَسيرة شَهر، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مسجِداً وطَهوراً، وأيّما رجلٍ من أُمَّتي أدْرَكَتْهُ الصّلاة فَلْيُصِلِّ، وأُحِلَّتْ لِيَ الغَنائِم، وكان النَّبيُّ يُبْعَثُ إلى قومِه خاصّة، وبُعِثْتُ إلى النّاس كافّة، وأُعطيتُ الشّفاعة). البخاريّ، صحيح البخاريّ، المرجع السابق، ج ١، ص ٩٥، حديث رقم ٤٣٨.

[٢١٨] ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٠٤.

[٢١٩] سورة الجِنّ، الآية ١٨.

[٢٢٠] ابن دُرَيْدٍ الأزْدِيّ، جَمْهَرَةُ اللّغة، تحقيق رمزي منير بعلبكيّ، دار العلم للملايين، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧ م.، ج ١، ص ٤٤٧.

[٢٢١] الكافور: مادّة عطريّة تُستخرج من شجرة الكافور، وتُستعمل في الطِّبّ.

والمَسْجَدَةُ والسَّجّادَة: الخُمْرَة المَسْجودُ عليها[٢٢٤]. والسَّجّادَة: أثَرُ السُّجود في الوجه أيضاً. والمَسجَد بالفتح: جبهة الرَّجُلِ حيث يُصيبُه نَدْبُ السُّجود[٢٢٥].

ولعلّ تسمية دور العبادة الإسلاميّة بالمساجد ملحوظٌ لِما في السُّجود من غاية الخشوع. واختَصَّ "البيت العتيق" باسم "المسجِد الحرام"، إذ كان أوّلَ بيتٍ عُبِدَ الله فيه، وقد جاء بهذا الاسم في خمس عشرة آية من القرآن الكريم ومعه اسم "المسجِد الأقصى" في آية سورة "الإسراء"[٢٢٦].

السّجود اصطلاحاً:

السّجود اصطلاحاً: وضع الجبهة، أو بعضِها، على الأرض، أو ما اتَّصَلَ بها من ثابتٍ مُسْتَقِرٍّ على هيئة مخصوصة في الصّلاة.

ففي كلٍّ من الرّكوع والسّجود نزولٌ من قِيام، لكنّ النّزول في السّجود أكثر منه في الرّكوع[٢٢٧].

السّجود شاملٌ لجميع المخلوقات:

أشار الله عزّ وجلّ إلى أنّ جميع مخلوقاته تسجد له، وذلك بقوله: ﴿ولله يَسْجُدُ مَنْ في السَّماواتِ والأرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً﴾[٢٢٨]، و﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[٢٢٩] ﴿ولَكِنْ لا تَفْقَهونَ تَسْبيحَهُمْ﴾[٢٣٠].

"والسُّجود من جنس القنوت فإنّ السُّجود الشّامل لجميع المخلوقات هو المتضمّن لغاية الخضوع والذُّلّ وكلّ مخلوق فقد تواضع لعظمته وذَلَّ لعزَّته واستسلم لقدرته ولا يجب أنْ يكون سجود كلّ شيء مثل

المنجد في اللُّغة والأعلام، المرجع السّابق، المنجد في اللّغة، ص ٦٩١.

[٢٢٢] الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة، وزارة الأوقاف والشّئون الإسلاميّة، مطابع دار الصّفوة، ط ١، القاهرة – مصر، ج ٢٤، ص ٢٠١.

[٢٢٣] ويُجعل الكافور في مساجِدِه: يوضع الكافور على أماكن السّجود السّبعة من جسد الميت، وهي: الجبهة، والكَفَّيْن، والرُّكْبَتَيْن، والقَدَمَيْن.

[٢٢٤] الخُمْرَة: قطعة من القماش، أو الحَصير، توضع على الأرض ليقف ويَسْجُدَ عليها المُصَلّي، ضماناً لطهارة مكان الصّلاة.

[٢٢٥] ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٠٥.

[٢٢٦] عائشة عبد الرّحمن (بنت الشّاطئ)، التّفسير البيانيّ للقرآن الكريم، دار المعارف، ط ٧، القاهرة – مصر، ل. ت.، ج ٢، ص ٣٤.

[٢٢٧] الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة، المرجع السابق، ج ٢٣، ص ١٢٧.

[٢٢٨] سورة الرّعد، الآية ١٥.

[٢٢٩] سورة النّور، الآية ٤١.

[٢٣٠] سورة الإسراء، الآية ٤٤.

سجود الإنسان على سبعة أعضاء ووضع جبهة في رأس مدوَّر على التراب فإنَّ هذا سجود مخصوص من الإنسان ومن الأمم من يركع ولا يسجد وذلك سجودها"[٢٣١].

وقد سمّى الله تعالى المُنْحَنِيَ ساجداً وإن لم يصل إلى الأرض، قال تعالى: ﴿وإِذْ قُلْنا ادْخُلوا هَذِهِ القَرْيَةَ فَكُلوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وادْخُلوا البابَ سُجَّداً وقولوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ، وسَنَزيدُ المُحْسِنينَ﴾[٢٣٢]، وقال أيضاً: ﴿وإذ قيلَ لَهُمُ اسْكُنوا هَذِهِ القَرْيَةَ وكُلوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وقولوا حِطَّةٌ وادْخُلوا البابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطيئاتِكُمْ، سَنَزيدُ المُحْسِنينَ﴾[٢٣٣] [٢٣٤].

ومنهم مَن يَسجُد على جَنْبٍ كاليهود[٢٣٥]، فالسّجود اسم جِنْس، ولكن لَمّا شاعَ سجود الآدَمِيّينَ المسلمين صار كثيرٌ من النّاس يَظُنُّ أنّ هذا هو سُجود كلِّ أحد.

وكذلك لفظ "الصّلاة"، لّما كان المسلمون يُصَلّونَ الصّلاة المعروفة صار يَظُنُّ مَن يَظُنُّ أنّ كلّ مَن صلّى فهكذا يُصلّي، حتّى صار بعض أهل الكتاب يَنفِرونَ من قولنا إنّ اللهَ يُصلّي[٢٣٦] ويُترِّهونَهُ عن ذلك، فإنّهم لم يعرفوا من لفظ "الصّلاة" إلاّ دعاءَ المُصلّي لغيره وخضوعه له، ولا ريبَ أنّ اللهَ مُنَزَّهٌ عن ذلك، لكن

---

[٢٣١] ابن تَيْمِيَة، جامع الرّسائل، تحقيق د. محمّد رشاد سالم، دار العطاء، ط ١، الرّياض – السّعوديّة، ١٤٢٢ هـ. – ٢٠٠١ م.، ج ١، ص ٢٧.

[٢٣٢] سورة البقرة، الآية ٥٨.

[٢٣٣] سورة الأعراف، الآية ١٦١.

[٢٣٤] ابن تَيْمِيَة، جامع الرّسائل، المرجع السابق، ص ٢٨.

[٢٣٥] قال تعالى: ﴿وإِذْ أخَذْنا ميثاقَكُمْ ورَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطّورَ خُذوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوّةٍ واذْكُروا ما فيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقونَ﴾. سورة البقرة، الآية ٦٣. ذَكَرَ كثير من المفسِّرين أنَّ موسى عليه السّلام لّما جاء بني إسرائيل من عند الله بالألواح قال لهم: (خذوها والتَزِموها). فقالوا: "لا، إلاّ أن يكلِّمنا الله بها كما كلَّمَك". فصُعِقوا ثمَّ أُحْيوا، فقال لهم: (خذوها والتَزِموها). فقالوا: "لا". فأمر الله الملائكة فاقتلَعَت جبلاً من جبال فلسطين طوله فرسخ في مِثله، وكذلك كان عسكرهم، فجعل عليهم مِثْلَ الظُّلَّة، وقيل لهم: "خذوها، وعليكم الميثاق أن لا تُضيِّعوها، وإلاّ سقط عليكم الجبل". فسجدوا توبةً لله، وأخذوا التّوراة بالميثاق. قيل: "سجدوا على أنصاف وجوههم اليسرى، وجعلوا يلاحظون الجبل بأعينهم اليمنى وهم سجود، فصار ذلك سنّة في سجود اليهود".

محمّد صِدّيق خان بن حسن بن عليّ القِنَّوْجِيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصريَّة، صيدا / بيروت – لبنان، ١٤١٢ هـ. – ١٩٩٢ م.، ج ١، ص ١٨٨.

[٢٣٦] قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ ومَلائِكَتَهُ يُصَلّونَ على النَّبِيِّ، يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا صَلّوا عَلَيْهِ وسَلِّموا تَسْليماً﴾، سورة الأحزاب، الآية ٥٦، وصلاة الله على النَّبيِّ هي ثناؤه ورضوانه عليه، وصلاة الملائكة دعاءٌ واستغفارٌ له، وصلاة العباد عليه تشريف وتعظيم لشأنه.

جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر، أيسر التّفاسير لكلام العليّ الكبير، مكتبة العلوم والحكم، ط ٥، المدينة المنوّرة – المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤٢٤ هـ. – ٢٠٠٣ م.، ج ٤، ص ٢٩٠.

ليست هذه صلاتُهُ سبحانه. وقد قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ والأَرْضِ والطَّيْرُ صافّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسْبيحَهُ﴾[٢٣٧] [٢٣٨].

وكَثُرَ استعمال السّجود في العبادة من قديم الزّمن، وفي ذلك قال تعالى: ﴿وعَهِدْنا إلى إبْراهيمَ وإسْماعيلَ أنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطّائِفينَ والعاكِفينَ والرُّكَّعِ السُّجودِ﴾[٢٣٩]، وقال أيضاً: ﴿وإذْ بَوَّأْنا لإبْراهيمَ مَكانَ البَيْتِ أنْ لا تُشْرِكْ بي شَيْئاً وطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطّائِفينَ والقائِمينَ والرُّكَّعِ السُّجودِ﴾[٢٤٠].

وكان العرب، في الوثنيّة الجاهليّة، يَسجُدون لأوثانهم تَقَرُّباً وزُلْفى، ويعتقدون أن تلك الأوثان تشفع لهم عند الله تعالى وتُقرِّبهم عنده مَنزِلة، ولّما جاء الإسلام نسخ بنوره ظلام الوثنيّة وأبطل السّجود لغير الخالِق.

وأخذ السّجود دَلالَتَهُ الاصطلاحيّة على السّجدة في الصّلاة، يَتدرَّجُ فيها العابِد من الوقوف بين يَدَيِ اللهِ إلى الرّكوع، ثمّ يكون السّجود غاية الخشوع[٢٤١].

أنواع السّجود:

ينقسم السّجود إلى أنواع، ولكلِّ نوع من هذه الأنواع سبب وهدف، ومن هذه الأنواع:

أ – سجودُ عبادةٍ لله تعالى، وهو:

١ – سجودُ العُقَلاء تَعَبُّداً.

٢ – سجودُ المخلوقاتِ خُضوعاً وانْقِياداً.

ب – سجودُ إكرامٍ بمعنى التَّحيَّة.

ج – سجودٌ مَنْهِيٌّ عنه، وهو سجودٌ تَعَبُّدِيٌّ لغير الله.

أ – سجودُ عبادةٍ لله تعالى:

قال الرّاغب الأصفهانيّ: السّجود للهِ عامٌّ في الإنسان والحيوانات والجمادات، وذلك ضَرْبان:

---

[٢٣٧] سورة النّور، الآية ٤١.

[٢٣٨] ابن تَيْمِيَة، جامع الرّسائل، المرجع السابق، ص ٢٨.

[٢٣٩] سورة البقرة، الآية ١٢٥.

[٢٤٠] سورة الحجّ، الآية ٢٦.

[٢٤١] عائشة عبد الرّحمن (بنت الشّاطئ)، التّفسير البيانيّ للقرآن الكريم، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٤.

الأوّل: سجودٌ باختيار، وليس ذلك إلاّ للإنسان، وبه يَستحِقُّ الثّواب، ومنه قوله تعالى: ﴿فاسْجُدوا للهِ واعْبُدوا﴾[٢٤٢].

الثّاني: سجودُ تَسْخير، وهو للإنسان والحيوانات والنّباتات والجمادات، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وللهِ يَسْجُدُ مَنْ في السَّماواتِ والأرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وظِلالُهُمْ بالغُدُوِّ[٢٤٣] والآصالِ﴾[٢٤٤] [٢٤٥].

وسجود التّسخير هذا هو الدّلالة الصّامتة النّاطقة المُنَبِّهَةِ على كون كلّ الأنواع الأربعة مخلوقة، وأنّها خَلْقُ فاعِلٍ حَكيم، وخُصَّ السّجود في الشّريعة بالرُّكن المعروف من الصّلاة، وما يَجري مَجرى ذلك من سُجودِ القرآن وسُجودِ الشُّكْر[٢٤٦].

وقال تعالى: ﴿وللهِ يَسْجُدُ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ مِنْ دابَّةٍ والمَلائِكَةُ وهُمْ لا يَسْتَكْبِرونَ﴾[٢٤٧]، أي لا يَسْتَكْبِرونَ عن السُّجودِ لعَظَمَتِه، بل يَتَواضَعونَ ويَخْشَعونَ ويَخْضَعونَ لهَيْبَةِ جَلالِه. وقال تعالى في وصفِهِ إيّاهُم: ﴿يَخافونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلونَ ما يُؤْمَرونَ﴾[٢٤٨] [٢٤٩].

والسّجود في هذه الآية شاملٌ لنَوْعَيِ السّجود، لأنّه سجود طاعة وعبادة كسجود الملائكة والآدَمِيّين، وسجود انقِيادٍ وخضوعٍ كسجود الظِّلال والدَّواب، وجاء بلفظ "ما" الموضوعة لِما لا يَعْقِلُ تَغليباً لأنّه أكثرُ ممّا يَعْقِل، كتَغليبِ المُذَكَّرِ على المُؤَنَّث، وجَمْعُها جَمْعُ منْ يَعْقِل، لأنّه وَصَفَها بصِفَتِه، لأنّ السّجود من شأن مَن يَعْقِل، وهذه السّجدة من عزائم السّجود[٢٥٠].

---

[٢٤٢] سورة النّجم، الآية ٦٢.

[٢٤٣] الغَداة: ما بين الفجر وطلوع الشمس.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٤٤٦.

[٢٤٤] الأصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب.

مختار الصِّحاح، المرجع السّابق، ص ١٩.

[٢٤٥] سورة الرّعد، الآية ١٥.

[٢٤٦] الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة، المرجع السابق، ج ٢٤، ص ٢٠١.

[٢٤٧] سورة النّحل، الآية ٤٩.

[٢٤٨] سورة النّحل، الآية ٥٠.

[٢٤٩] عبد القادر بن ملّا حويش السَّيِّد محمود آل غازي العانيّ، بيان المعاني، مطبعة التَّرَقّي، ط ١، دمشق – سورية، ١٣٨٢ هـ – ١٩٦٥ م.، ج ٤، ص ٢٢٧.

[٢٥٠] عبد القادر بن ملّا حويش السَّيِّد محمود آل غازي العانيّ، بيان المعاني، المرجع السابق، ج ٤، ص ٢٢٧.

وقال تعالى: ﴿ولله يَسْجُدُ مَنْ في السَّماواتِ والأرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وظِلَالُهُمْ بالغُدُوِّ والآصال﴾[٢٥١]، وأُشيرَ في هذه الآية إلى سجود الموجودات العاقِلَة خاصّة، بدلالة لفظة ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ولله يَسْجُدُ مَنْ في السَّماواتِ﴾، مع العلم بأنّ "مَنْ" تُستَعملُ في العُقَلاء.

وبما أنّ الآية تُخبِر عن سجود الموجودات العاقِلَة كلِّها بلا استثناء، لا يمكن حَمْلُها على السّجود التّشريعيّ الصّادر من المؤمنين لأجل امتثال أمر إلَهِهم، لأنّه من الواضح عدم عموميّة هذا النّوع من السّجود لكلِّ مَن له عَقْلٌ وفِكْر، فإنّ كثيراً من النّاس يتركون عبادة ربِّهم والسّجود له، فعندئذٍ يجب تفسير الآية بالسّجود التّكوينيّ.

وقد أُشير في القرآن الكريم إلى هذا النّوع من السّجود، أي: سجود العُقَلاء، أيضاً في سورَتَي النّحل والحجّ، إذ يقول الحقّ سبحانه وتعالى في سورة النّحل: ﴿ولله يَسْجُدُ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ مِنْ دابَّةٍ والمَلائِكَةُ﴾[٢٥٢]، والشّاهد فيها هو سجود الملائكة. ويقول تعالى في سورة الحجّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّماواتِ ومَنْ في الأرْضِ﴾[٢٥٣] [٢٥٤].

وفي طائفة أُخرى من الآيات تحدّث القرآن عن نطاق أوسع للسّجود، فتحدّث عن سجود كلّ الدّواب[٢٥٥]، إذ يقول جلَّ وعلا كما في الآية السّابقة: ﴿ولله يَسْجُدُ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾[٢٥٦].

ثمّ تَحدَّث ثالثاً عن سجود الكواكب والنّباتات والأشجار، إذ قال الله تبارك وتعالى: ﴿والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدانِ﴾[٢٥٧].

ثمّ تَحدّث رابعاً عن سجود أكثَرَ شمولاً، إذ قال جلَّ شأنه وهو يُخبِر عن سجود ظلال الأجسام: ﴿أوَ لَمْ يَرَوْا إلى ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُ ظِلَالُهُ عَنِ اليَمينِ والشَّمائِلِ سُجَّداً لله وَهُمْ داخِرونَ﴾[٢٥٨].

---

[٢٥١] سورة الرّعد، الآية ١٥.

[٢٥٢] سورة النّحل، الآية ٤٩.

[٢٥٣] سورة الحجّ، الآية ١٨.

[٢٥٤] هذه رؤية القلب، أي: ألَمْ تَرَ بقلبك وعقلك.

[٢٥٥] الدّابّة: كلّ ما مشى رويداً، وقد غَلَبَ اللّفظ على ما يُركَب من الحيوان. ويدخل البشر في هذا الوصف.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٢١٩.

[٢٥٦] سورة النّحل، الآية ٤٩.

[٢٥٧] سورة الرّحمن، الآية ٦.

[٢٥٨] سورة النّحل، الآية ٤٨.

وتَحدّث خامساً عن سجود كلّ المخلوقات، بما فيها الشّمس والقمر والكواكب والجبال والشّجر والدّواب وكثير من الناس، وفي ذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ ومَنْ فِي الأَرْضِ والشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجومُ والجِبالُ والشَّجَرُ والدَّوابُّ وكَثيرٌ مِنَ النّاسِ﴾[٢٥٩].

وتفيد هذه النّصوص القرآنيّة بأنّ السّجود ظاهرةٌ عامّة، وحالةٌ تَشمُل كلّ أجزاء هذا الوجود دون أن تَختَصَّ بشيءٍ مُعَيَّن.

والمهمّ هنا هو فهم حقيقة هذا السّجود، وكيف أنّ هذه المخلوقات أجمَع، عاقِلِها وغيرِ عاقِلِها، تُظهر الخضوع أمام الله وتَسجد له سبحانه.

ويختلف سجود النّاس عن سجود غيرهم المذكورين في الآية، ووجه الدّلالة: إنّ الله تعالى قد أسْنَدَ السّجود إلى المذكورين في الآية، وحقيقة "سجود النّاس" هو: وضع الجبهة على الأرض، وحقيقة سجود الدّواب والشّمس والقمر والنّجوم هو: الخضوع والخشوع، لأنّ السّجود على الجبهة غير مُتَصَوَّرٍ منها، فاستُعْمِلَ "السّجود" في الآية في مَعْنَيَيْه، إذ إنّ لفظ "السّجود" مشتركٌ لفظيٌّ بين الخشوع ووضعِ الجبهة[٢٦٠].

١ – سجودُ العُقَلاء تَعَبُّداً:

إنّ سجودَ العقلاءِ لله تَعَبُّداً يشمل الجنّ والإنْس من المؤمنين، وهو في الإنْس على الوجه المعروف شرعاً، ومنه: السّجود في الصّلاة، وسجود التّلاوة، وسجود الشُّكر.

ومن العقلاءِ ممّن يَسجدونَ لله نوعٌ آخَرُ من الخلائِق هم الملائكة.

أ – سجود الجنّ:

إنّ الجنّ هم مخلوقات عاقلة مكلَّفة ويجري عليها الحساب في الآخرة كما يجري على بني آدم، خلَقها الله من مارِجٍ من نار[٢٦١]، وخلَق الإنسان من طين الأرض من صَلْصالٍ[٢٦٢] كالفَخّار، وقد أشار الخالق

---

[٢٥٩] سورة الحجّ، الآية ١٨.

[٢٦٠] لمزيد من التفصيل انظر عبد الكريم بن عليّ بن محمّد النّملة، المُهذَّب في علم أصول الفقه المقارَن (تحريرٌ لمسائله ودراستها دراسة نظريّة تطبيقيّة)، مكتبة الرُّشد، ط ١، الرّياض – المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤٢٠ هـ. - ١٩٩٩ م.، ج ٣، ص ١١٠١ - ١١٠٦.

[٢٦١] مارِجٌ من نار: نارٌ لا دخان لها.

مختار الصّحاح، المرجع السّابق، ص ٢٩٢.

[٢٦٢] الصَّلْصال: الطّين الحُرُّ خُلِطَ بالرّمل فصار يتصَلْصَل (يُسمَع له صوت) إذا جَفّ، فإذا طُبِخَ بالنّار فهو "الفَخّار".

مختار الصّحاح، المرجع السّابق، ص ١٧٨.

سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله: ﴿خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالفَخّارِ * وخَلَقَ الجانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ * فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾[٢٦٣].

ومن الجنّ المؤمِنُ والكافِر، ومِن كافِرِهِمْ مَن يُوَسْوِسُ للنّاس كما يُوَسْوِسُ النّاس لبعضِهِم البعض بعمل السّوء، قال تعالى: ﴿الَّذي يُوَسْوِسُ في صُدورِ النّاسِ * مِنَ الجِنَّةِ والنّاسِ﴾[٢٦٤].

وذَكَرَ القرآن الكريم الجنّ في أكثر من موضعٍ من آياته، كما أنّ هناك سورةٌ فيه تَحمِل اسمَهم وهي سورة "الجِنّ"، التي قال فيها سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أوحِيَ إلَيَّ أنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ فقالوا إنّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدي إلى الرُّشْدِ فَآمَنّا بِهِ، ولَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أحَداً * وأنّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنا[٢٦٥] ما اتَّخَذَ صاحِبَةً ولا وَلَداً﴾[٢٦٦]، إلى قوله تعالى: ﴿وأمّا

القاسِطونَ[٢٦٧] فَكانوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[٢٦٨].

وقد جاءت هذه الآيات إخباراً للرّسول عليه الصّلاة والسّلام باستماع نفرٍ من الجنّ إليه وهو يقرأ القرآن بأصحابه، وذلك بعد أن مُنع الجنّ من اسْتِراقِ أخبار السّماء، فعرفوا أنّ هذا المنعَ ما حصل إلاّ لشيءٍ قد حدث في الأرض، فجابوا الأرض، فكان النَّفَرُ الذين أخَذوا نحو تِهامَةَ في بلاد الحجاز قد مرّوا على الرّسول عليه الصّلاة والسّلام وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر، فلمّا سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السّماء، فرَجَعوا إلى قومهم مُنْذِرين[٢٦٩]، فأنزل الله تعالى إلى نبيّه صلّى الله

---

[٢٦٣] سورة الرّحمن، الآيات ١٤ – ١٦.

[٢٦٤] سورة النّاس، الآيتان ٥ – ٦.

[٢٦٥] جَدُّ رَبِّنا: عَظَمَةُ ربِّنا، وقيل: غِناه.

مختار الصّحاح، المرجع السّابق، ص ٥٤.

[٢٦٦] سورة الجنّ، الآيات ١ – ٣.

[٢٦٧] القاسِطون: الجائرون.

مختار الصّحاح، المرجع السّابق، ص ٢٥٣.

[٢٦٨] سورة الجنّ، الآية ١٥.

[٢٦٩] لمزيد من التّفصيل انظر محمّد بن عبد الله الشِّبليّ الدّمشقيّ، آكام المُرجان في أحكام الجانّ، تحقيق إبراهيم محمّد الجمل، مكتبة القرآن، القاهرة – مصر، ل. ت.، ص ٦٨.

عليه وسلّم: ﴿قُلْ أوحِيَ إلَيَّ أنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ﴾[٢٧٠]، و لم يكن يعلم باستماعهم إليه على الرّاجح من الرّوايات في ذلك، وظاهر القرآن يَدُلُّ عليه[٢٧١].

وقد دلّت هذه الآيات على إيمانهم بالقرآن بعد استماعهم له، وأخذِهم عهداً على أنفسهم أن لا يشركوا بالله، وذلك في قوله تعالى عنهم: ﴿إنّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدي إلى الرُّشْدِ فَآمَنّا بِهِ، ولَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أحَداً﴾[٢٧٢]، وقوله عنهم: ﴿وأنّا لَمّا سَمِعْنا الهُدى آمَنّا بِهِ﴾[٢٧٣].

ففي إيمانهم بالقرآن، ووصفِهم له بأنّه يهدي إلى الرُّشد، وعدم إشراكهم بالله، دلالة على أنّهم مكلَّفون، وكذلك مسارعتهم لاستماعه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وأنَّهُ لَمّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعوهُ كادوا يَكونونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾[٢٧٤]، أي: لّما قام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدعو ربَّه ويقرأ القرآن اجتمع الجنّ عليه متلبِّدين متراكِمين، حرصاً على ما جاء به من الهدى. فقد كانوا فرِحين حريصين متأمِّلين عند سماعهم للقرآن، وفي هذا دلالة على كمال عقولهم، وهو يقتضي التَّكليف[٢٧٥].

وقد خاطب الباري تعالى الجِنّ والإنْس معاً في سورة الرّحمن في واحد وثلاثين موضعاً، وفي هذه المواضع امْتِنانٌ من الله على عباده بهذه النِّعَمِ التي لا يجحدُها إلاّ كافر، وذلك بقوله: ﴿فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما

---

[٢٧٠] سورة الجنّ، الآية ١.

[٢٧١] تدلّ الآية الأولى من سورة "الجِنّ" على أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لم يكن يعلم باستماع الجِنِّ إليه، فقد قال الله عزّ وجلّ لرسوله صلّى الله عليه وسلّم في هذه الآية: ﴿قُلْ أوحِيَ إلَيَّ أنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ﴾، و لم يَقُلْ له: "قل استمع إليّ نفرٌ من الجِنّ". و"الوحي" إخبار بأمر في عالَم الغيب غير معلوم، بينما "القول بالاستماع" إخبار بأمر معلوم.

[٢٧٢] سورة الجنّ، الآيتان ١ – ٢.

[٢٧٣] سورة الجنّ، الآية ١٣.

[٢٧٤] سورة الجنّ، الآية ١٩.

[٢٧٥] التّكليف: هو إلزام المخاطَب بتنفيذ أمرٍ ما. والمكلَّف في الإسلام هو كلّ مسلم عاقل بلَغ بلوغاً جسديّاً*، بحيث أصبح مكلَّفاً بتنفيذ أوامر الله عزّ وجلّ، وذلك بتأدية الطّاعات واجتناب المحرّمات.

والمخاطبة بالتّكليف موجَّهةٌ إلى جميع العقلاء من الثَّقَلَيْن، الجِنِّ والإنس، المسلمين وغير المسلمين، لأنّ الله عزّ وجلّ وصف نفسه مرّات كثيرة في القرآن الكريم بكونه ﴿ربَّ العالمين﴾، وخاطب رسوله صلّى الله عليه وسلّم بقوله: ﴿وما أرْسَلْناكَ إلاّ رحمة للعالمين﴾، سورة الأنبياء، الآية ١٠٧، وبقوله: ﴿وما أرْسَلْناكَ إلاّ كافّةً للنّاس بَشيراً ونذيراً﴾، سورة سَبَأ، الآية ٢٨، وخاطب الثَّقَلَيْنِ بقوله: ﴿وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاّ لِيَعْبُدونِ﴾، سورة الذّاريات، الآية ٥٦.

وممّا يدلّ على هذا التّكليف للثَّقَلَيْنِ الآيات الكثيرة التي تخاطبهما في القرآن الكريم بأنّ الله عزّ وجلّ أرسل لهم رُسُلاً لدعوتهم إلى عبادته، وأنّ الطّائعين لأوامره سيَلْقَوْنَ ثواباً، وأنّ العاصين لها سيَلْقَوْنَ عقاباً، ومن هذه الآياتِ الآيةُ التي تكرَّرَت /٣١/ مرّة في سورة الرّحمن، وهي: ﴿فبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

* البلوغ الجسديّ: بدء نزول "المَنِيِ" من الصَّبيّ، وبدء نزول "دم الحيض" من الفتاة.

تُكَذِّبانِ﴾[٢٧٦]. وعن جابر قال: "خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرّحمن من أوّلِها إلى آخرها فسكتوا، فقال: (لقد قرأتُها على الجنّ ليلة الجنّ فكانوا أحْسَنَ مردوداً منكم، كنتُ كلَّما أتيتُ على قوله: ﴿فبأيّ آلاءِ ربِّكما تُكذِّبان﴾ قالوا: "لا بشيء من نِعَمِكَ ربَّنا نُكذِّب، فلَك الحمد")"[٢٧٧].

وروى مسلم في حديث ورد عن عامرٍ قال: سألتُ علقمة: هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليلة الجنّ؟ قال: فقال علقمة: أنا سألتُ ابن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليلة الجنّ؟ قال: لا، ولكنّا كنّا مع رسول الله ذات ليلة ففقدناه فالتَمَسْناهُ في الأودية والشِّعاب. فقلنا: اسْتُطيرَ أو اغْتيل[٢٧٨]. قال: فبِتْنا بِشَرِّ ليلةٍ بات بها قوم، فلمّا أصبحنا إذا هو جاء من قِبَلِ حِراء. قال: فقلنا يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبِتْنا بِشَرِّ ليلةٍ بات بها قوم. فقال: (أتاني داعي الجنّ فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن). قال: فانطلَق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزّاد فقال: (لكم كلّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه، يقع في أيديكم أوْفَرَ ما يكون لحماً، وكلّ بَعْرَةٍ[٢٧٩] عَلَفٌ لدوابِّكم). فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (فلا تَسْتَنْجوا[٢٨٠] بهما فإنّهما طعام إخوانكم)[٢٨١].

وقد ذكر الله عزّ وجلّ قصّة استماع الجنّ لتلاوة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم للقرآن الكريم، ومن ثَمَّ دعوتهم قومهم إلى الإسلام، في عدّة آيات من القرآن الكريم منها قوله عزّ مِن قائل: ﴿وإذْ صَرَفْنا إلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعونَ القُرْآنَ فَلَمّا حَضَروهُ قالوا أنْصِتوا، فَلَمّا قُضِيَ وَلَّوْا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرينَ * قالوا يا قَوْمَنا إنّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ موسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدي إلى الحَقِّ وإلى طَريقٍ مُسْتَقيمٍ * يا

---

[٢٧٦] سورة الرّحمن، الآية ١٣.

[٢٧٧] التِّرْمِذِيّ، سُنَنُ التِّرْمِذِيّ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ، ط ٢، القاهرة – مصر، ١٣٩٥ هـ. - ١٩٧٥ م.، ج ٥، ص ٣٩٩، حديث رقم ٣٢٩١.

[٢٧٨] استُطير: طارت به الجنّ، واغتيل: قُتِلَ سِرّاً في خُفْيَة.

النَّوَوِيّ، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجّاج، دار إحياء التّراث العربيّ، ط ٢، بيروت – لبنان، ١٣٩٢هـ. **– ١٩٧٢ م.**، ج ٤، ص ١٧٠.

[٢٧٩] البَعْر: رجيع (رَوْث الحيوانات) ذوات الخُفِّ (مثل: الجِمال) وذوات الظِّلْف (مثل: البقر، والماعز، والظِباء).

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٥٦.

[٢٨٠] الاسْتِنْجاء: التَّطَهُّرُ من النّجاسة الخارجة من البدن.

[٢٨١] مسلم، صحيح مسلم، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التّراث العربيّ، ط ١، بيروت - لبنان، ل. ت.، ج ١، ص ٣٣٢، حديث رقم ٤٥٠.

قَوْمَنا أجيبوا داعِيَ اللهِ وآمِنوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنوبِكُمْ ويُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أليمٍ * ومَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ في الأرْضِ ولَيْسَ لَهُ مِنْ دونِهِ أوْلِياءُ، أولَئِكَ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾[٢٨٢].

وتدلّ هذه الآيات، من وجوه عدّة، على تكليف الجنّ، ومن هذه الوجوه:

١ – أنّ الله تعالى صرَفهم إلى رسوله صلّى الله عليه وسلّم ليستمعوا القرآن ومن ثَمَّ ليؤمنوا به ويأتمروا بأوامره وينتهوا عن نواهيه. ولو لم يُرِد الله تعالى هدايتهم وتكليفهم لم يصرِفهم إلى الاستماع.

٢ – أنّهم كانوا مكلَّفين فعلاً كونهم كانوا مؤمنين بالله أصلاً، لأنّهم كانوا يهوداً كونهم ذَكَروا نبيّ الله موسى عليه السّلام بقولهم: ﴿إنّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ موسى﴾، ممّا يعني أنّه لم تبلُغهم دعوة نبيّ الله عيسى عليه السّلام.

٣ – أنّهم قالوا لقومِهم: ﴿يا قَوْمَنا أجيبوا داعِيَ اللهِ وآمِنوا بِهِ﴾[٢٨٣]، والآية صريحة في أنّهم مكلَّفون، من حيث أنّهم دَعَوْا قومهم إلى اعتناق الإسلام انطلاقاً من أنّ تكليفهم يتضمّن دعوة الآخرين إلى الإسلام من باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر[٢٨٤].

ومن الأدلّة على تكليف الجنّ أيضاً قول الله تعالى: ﴿أولَئِكَ الَّذينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبلِهِمْ مِنَ الجِنِّ والإنْسِ، إنَّهُمْ كانوا خاسِرينَ * ولِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمّا عَمِلوا، ولِيُوَفِّيَهُمْ أعْمالَهُمْ وهُمْ لا يُظْلَمونَ﴾[٢٨٥]، فقد أخبر الله تعالى في الآية الأولى أنّ مِنَ الجنّ مَن حَقَّ عليه القول، أي وَجَبَ عليه العذاب كما وجب على أُمَمٍ قد مضت من الجنّ والإنْس. ثمّ قال تعالى في الآية الثّانية التّالية للأولى مباشرة: ﴿ولِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمّا عَمِلوا﴾، أي أنّ الجنّ والإنْس سيُوَفَّوْنَ يوم القيامة ما عمِلوا من خيرٍ وشرٍّ ولا يُظلَمون شيئاً من هذه الأعمال. ولهذا فإنّ الثّواب والعقاب المذكوران في هاتَين الآيتَين يدلاّن دلالة قاطعة على أنّ الجنّ والإنْس كانوا مأمورين بالشّرائع، متعبَّدين بها في الدّنيا، ولذلك استحقّوا درجات الجنّة والنّار في الآخرة.

كما أورد الله تعالى آيات أخرى في القرآن الكريم دالّة على تكليف الجنّ، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ويَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَميعاً يا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإنْسِ، وقالَ أوْلِياؤهُمْ مِنَ الإنْسِ رَبَّنا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وبَلَغْنا أجَلَنا الَّذي أجَّلْتَ لَنا، قالَ النّارُ مَثْواكُمْ خالِدينَ فيها إلاّ ما شاءَ اللهُ، إنَّ رَبَّكَ حَكيمٌ

---

[٢٨٢] سورة الأحقاف، الآيات ٢٩ – ٣٢.

[٢٨٣] سورة الأحقاف، الآية ٣١.

[٢٨٤] http://www.dorar.net/enc/aqadia

[٢٨٥] سورة الأحقاف، الآيتان ١٨ – ١٩.

عَليمٌ﴾[٢٨٦]، ثمّ قوله بعد ذلك: ﴿يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنْسِ ألَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصّونَ عَلَيْكُمْ آياتي ويُنْذِرونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا، قالوا شَهِدْنا على أنْفُسِنا، وغَرَّتْهُمُ الحَياةُ الدُّنْيا وشَهِدوا على أنفُسِهِمْ أنَّهُمْ كانوا كافِرينَ﴾[٢٨٧].

وقد اختلف أهل العلم في ماهِيَة الرُّسُلِ المذكورين في هذه الآية، من حيث هل هم رُسُلٌ من البشر فقط، أم هم رُسُلٌ من البشر إلى البشر ورُسُلٌ من الجن إلى الجنّ، ويمكن اختصار معظم اختلاف أقوال العلماء في هذه المسألة في قولَين:

القول الأوّل: ليس في الجنّ أنبياء ورُسُل، وإنّما قد يكون منهم نُذُر[٢٨٨]، وهذا قول جمهور أهل العلم، واستدلّوا على ذلك بأدلة عدّة منها:

١ – قوله تعالى: ﴿وما أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إلاّ رِجالاً نوحي إلَيْهِمْ مِنْ أهْلِ القُرى﴾[٢٨٩]، ورجال الجنّ ليسوا كرجال أهل القرى البشريّين.

٢ – قوله تعالى: ﴿وما أرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ المُرْسَلينَ إلاّ إنَّهُمْ لَيَأْكُلونَ الطَّعامَ ويَمْشونَ في الأسْواقِ﴾[٢٩٠]، والجنّ لا يأكلون طعام البشر ولا يمشون في أسواقهم.

٣ – قوله تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السّلام: ﴿وجَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ والكِتابَ﴾[٢٩١]، والجنّ ليسوا من ذُرِّيَّةِ إبراهيم عليه السّلام.

القول الثّاني: يوجد في الجنّ أنبياءٌ ورُسُلٌ من جنسهم، واستدلّوا لذلك بقول الله تعالى: ﴿يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنْسِ ألَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصّونَ عَلَيْكُمْ آياتي ويُنْذِرونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا، قالوا شَهِدْنا على أنْفُسِنا، وغَرَّتْهُمُ الحَياةُ الدُّنْيا وشَهِدوا على أنْفُسِهِمْ أنَّهُمْ كانوا كافِرينَ﴾[٢٩٢].

---

[٢٨٦] سورة الأنعام، الآية ١٢٨.

[٢٨٧] سورة الأنعام، الآية ١٣٠.

[٢٨٨] قال ابن عبّاس: رُسُلُ الجِنِّ هم الذين بلّغوا قومهم ما سمعوه من الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَلَّوْا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرينَ﴾، سورة الأحقاف، الآية ٢٩.

محمّد كْرَيِّمْ راجِح، مختصر تفسير القرطبيّ، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٤٨.

[٢٨٩] سورة يوسف، الآية ١٠٩.

[٢٩٠] سورة الفرقان، الآية ٢٠.

[٢٩١] سورة العنكبوت، الآية ٢٧.

[٢٩٢] سورة الأنعام، الآية ١٣٠.

وأمّا عن كيفيّة عبادة الجنّ وسجودهم فلا يعرفها البشر، لأنّ الجنّ يَرَوْنَ البشر ولا يراهم البشر، وفي ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وقَبيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾[٢٩٣].

وقد ذكر الباري سبحانه وتعالى في القرآن الكريم الغاية من خَلْقِ الجنّ والإنْس بقوله جلّ من قائِل: ﴿وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاّ لِيَعْبُدونِ﴾[٢٩٤]، والسّجود لله تبارك وتعالى هو من ضمن العبادة.

ب – سجود الإنْس (البشر):

فرض الله تبارك وتعالى على الإنْس السّجود له، وحدّد ثلاث أوقات لأداء هذا السّجود، وهذه الأوقات هي الأوقات التّالية:

١ – سجود الصّلاة، عند أداء الصّلاة.

٢ – سجود التّلاوة، عند تلاوة آيات السّجود في القرآن الكريم.

٣ – سجود الشّكر، عند شُكر الله تبارك وتعالى على نعمةٍ من نعمه.

١ – سجود الصّلاة:

إن أصل الصَّلاة ثلاثة أشياء: أَن يخضع المصلّي للهِ تعالى بقلبه، ويذكر الله بلسانه، ويُعَظِّمَهُ غاية التَّعظيم بجسده[٢٩٥].

وأجْمَعَ الفقهاء على أنّ السّجود في الصّلاة فرض، وعلى أنّه ركن من أركان الصّلاة بنصّ الكتاب والسُّنَّة، وأجمعوا كذلك على وجوب سجدَتَين في كلّ ركعة من ركعات الصّلاة، سواءً كانت هذه الصّلاة فرضاً أو سُنَّة[٢٩٦].

وقد نصّ القرآن الكريم، في آيات عديدة، على وجوب السّجود لله تعالى خلال الصّلاة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا ارْكَعوا واسْجُدوا واعْبُدوا رَبَّكُمْ وافْعَلوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ﴾[٢٩٧].

كما نصّت السُّنَّة على ذلك أيضاً في أحاديث عديدة، ومن ذلك قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للّذي لم يُحسِن تأدية صلاته: (ثمّ اسْجُدْ حتّى تطمئنّ ساجداً)[٢٩٨]. وقوله صلّى الله عليه وسلّم أيضاً:

---

[٢٩٣] سورة الأعراف، الآية ٢٧.

[٢٩٤] سورة الذّاريات، الآية ٥٦.

[٢٩٥] الدَّهْلَوِيّ، حُجَّةُ الله البالغة، تحقيق السَّيِّد سابِق، دار الجيل، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٢٦ هـ. – ٢٠٠٥ م.، ج ٢، ص ٦.

[٢٩٦] الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة، المرجع السابق، ج ٢٤، ص ٢٠٢.

[٢٩٧] سورة الحجّ، الآية ٧٧.

[٢٩٨] البخاريّ، صحيح البخاريّ، المرجع السابق، ج ١، ص ١٥٨، حديث رقم ٧٩٣.

(أُمِرْتُ بالسّجود على سبعة أعْظُم: اليدين، والرُّكبتين، والقدَمَين، والجبهة)[٢٩٩]. وقوله صلّى الله عليه وسلّم كذلك: (إذا سجدتَ فأمكِن وجهك من السّجود كلِّه حتّى تطمئنّ ساجداً، ولا تَنقُر نقراً)"[٣٠٠].

ورُوِيَ عن عُقبة بن عامر رضي الله عنه قال: "لّما نَزَلَت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ﴾[٣٠١]، قال لنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (اجْعَلوها في رُكوعِكُم). فلمّا نَزَلَت: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلى﴾[٣٠٢]، قال: (اجْعَلوها في سُجودِكُم)"[٣٠٣].

وأمّا كيفيّة السّجود فهي أن يعتدل السّاجد في سجوده، ويَرفَع ذراعيه عن الأرض ولا يَفْتَرِشْهُما، ويَنْصُبَ القدَمَين، ويُوجِّه أصابع الرِّجلَين واليدين إلى القِبلة، لِما رواه أنَس ابن مالك رضي الله عنه عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: (اعتدِلوا في السّجود، ولا يَبسُط أحدُكُم ذراعيه انبساط الكلب)[٣٠٤].

وعن أبي حُمَيْدٍ السّاعديّ: أنا كنت أحفظكم لصلاة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ... "فإذا سجد وضع يديه غير مُفْتَرِشٍ ولا قابِضَهُما، واستقبَل بأطراف أصابع رِجلَيه القِبلة"[٣٠٥].

أهميّة السّجود:

أشار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى أهميّة السّجود عندما نصح ثَوْبانَ رضي الله عنه بقوله له: (عليكَ بكثرة السّجود لله، فإنّك لن تسجد لله سجدةً إلاّ رفَعكَ الله بها درجة، وحَطَّ بها عنكَ خطيئة)[٣٠٦]. وعن ربيع بن كعب الأسْلَمِيِّ رضي الله عنه قال: "كنتُ أبيتُ مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأتيتُه بوضوئه وحاجته، فقال لي: (سَلْ). فقلت: أسألُكَ مرافقتَكَ في الجنَة. قال: (أوَ غَيْرَ ذلك؟). قلت: هو ذاك. قال: (فأعِنّي على نفسِكَ بكَثرة السّجود)"[٣٠٧].

---

[٢٩٩] الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة، المرجع السابق، ج ٢٤، ص ٢٠٢ – ٢٠٣.

[٣٠٠] الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة، المرجع السابق، ج ٢٤، ص ٢٠٣.

[٣٠١] سورة الواقعة، الآية ٧٤.

[٣٠٢] سورة الأعلى، الآية ١.

[٣٠٣] أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، المرجع السابق، ج ٢٨، ص ٦٣٠، حديث رقم ١٧٤١٤.

[٣٠٤] أحمد بن حَنبل، مُسْنَدُ أحمد بن حَنبل، المرجع نفسه، ج ١٩، ص ١٩٤، حديث رقم ١٢١٤٩.

[٣٠٥] ابن بطال، شرح صحيح البخارى، لابن بطال، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، ط ٢، الرياض – السعودية، ١٤٢٣هـ. – ٢٠٠٣م.، ج ٢، ص ٤٤٢.

[٣٠٦] ابن ماجة، سُنن ابن ماجة، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقيّ، دار إحياء الكتب العربيّة / فيصل عيسى البابيّ الحلبيّ، القاهرة – مصر، ل. ت.، ج ١، ص ٤٥٧، حديث رقم ١٤٢٢.

[٣٠٧] مسلم بن الحجّاج، صحيح مسلم، ج ١، ص ٣٥٣، حديث رقم ٤٨٩.

النّظر إلى موضع السّجود أثناء الصّلاة:

ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، "أنَّ النَّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم كان إذا صلّى رفع بصره إلى السّماء، فنَزَلَت: ﴿الَّذينَ هُمْ في صَلاتِهِمْ خاشِعونَ﴾[٣٠٨]، فطَأْطَأَ رأسَه"[٣٠٩].

عباد الله القانتين:

أشار الله سبحانه وتعالى إلى صفات عباده القانتين له في مواضع عدّة من القرآن الكريم، ومن هذه الصّفات:

١ – ﴿يَتْلونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيْلِ وهُمْ يَسْجُدونَ﴾[٣١٠].

٢ – ﴿إنّ الّذين عند ربِّكَ لا يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبادَتِهِ ويُسَبِّحونَهُ ولَهُ يَسْجُدون﴾[٣١١].

٣ – ﴿ولله يَسْجُدُ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ مِنْ دابَّةٍ والمَلائِكَةُ وهُمْ لا يَسْتَكْبِرونَ﴾[٣١٢].

٤ – ﴿إنَّ الَّذينَ أوتوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرّونَ لِلأذْقانِ سُجَّداً﴾[٣١٣].

٥ – ﴿إذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمَنِ خَرّوا سُجَّداً وبُكِيّاً﴾[٣١٤].

٦ – ﴿والَّذينَ يَبيتونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وقِياماً﴾[٣١٥].

٧ – ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدينَ﴾[٣١٦].

٨ – ﴿الَّذي يَراكَ حينَ تَقومُ * وتَقَلُّبَكَ في السّاجِدينَ﴾[٣١٧].

٩ – ﴿إنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنا الَّذينَ إذا ذُكِّروا بِها خَرّوا سُجَّداً وسَبَّحوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وهُمْ لا يَسْتَكْبِرونَ﴾[٣١٨].

١٠ – ﴿أمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وقائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ ويَرْجو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾[٣١٩].

---

[٣٠٨] سورة المؤمنون، الآية ٢.

[٣٠٩] الحاكم النَّيْسابوريّ، المُستَدرَك على الصّحيحَين، تحقيق مُقبل بن هادي الوادِعيّ، دار الحرَمين، ط ١، القاهرة – مصر، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.، ج ٢، ص ٤٦٣، حديث رقم ٣٥٤٠.

[٣١٠] سورة آل عِمران، الآية ١١٣.

[٣١١] سورة الأعراف، الآية ٢٠٦.

[٣١٢] سورة النّحل، الآية ٤٩.

[٣١٣] سورة الإسراء، الآية ١٠٧.

[٣١٤] سورة مريم، الآية ٥٨.

[٣١٥] سورة الفرقان، الآية ٦٤.

[٣١٦] سورة الشّعراء، الآية ٤٦.

[٣١٧] سورة الشُّعراء، الآيتان ٢١٨ – ٢١٩.

[٣١٨] سورة السّجدة، الآية ١٥.

١١ – ﴿سيماهُمْ في وُجوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجودِ﴾[٣٢٠].

١٢ – ﴿فَاسْجُدوا للهِ واعْبُدوا﴾[٣٢١].

٢ – *سجود التّلاوة:*

إنّ سجود التّلاوة هو سجود يُطلب من قارئ القرآن الكريم، أو من مُستَمِعِ القراءة، وذلك عند تلاوة القارئ لآية من آيات السّجود المحدَّدَة في القرآن الكريم، وعددها خمس عشرة آية[٣٢٢].

وقد اتّفق الفقهاء على مشروعيّة سجود التّلاوة للآيات والأحاديث الواردة فيه، لكنّهم اختلفوا في صِفة هذه المشروعيّة، هل هي واجبة[٣٢٣] أم مندوبة[٣٢٤].

فذهب الشّافعيّة والحنابلة إلى أنّ سجود التلاوة سُنّة[٣٢٥] مؤكّدة عقب تلاوة آية السّجدة لقول الله تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ أوتوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرّونَ لِلْأذْقانَ سُجَّداً ويَقولونَ سُبْحانَ رَبِّنا إنْ كانَ وَعْدُ

---

[٣١٩] سورة الزُّمَر، الآية ٩.

[٣٢٠] سورة الفتح، الآية ٢٩.

[٣٢١] سورة النّجم، الآية ٦٢.

[٣٢٢] وردت آيات السّجود في القرآن الكريم في السُّوَر التّالية: سورة الأعراف، وسورة الرّعد، وسورة النّحل، وسورة الإسراء، وسورة مريم، وسَجْدَتانِ في سورة الحجّ، وسورة الفرقان، وسورة النّمل، وسورة السّجدة، وسورة ص، وسورة فُصِّلَت، وسورة النّجم، وسورة الانشقاق، وسورة العَلَق.

[٣٢٣] الواجب: هو بمعنى "الفرض"، ولكنّه دون الفرض، و"الفرض" هو ما ثَبُتَ اللّزوم فيه (لزوم فِعلِه) بدليل قَطْعِيٍّ لا شُبهة فيه (مثل : الصّلاة، والصّيام، والزّكاة)، ويَكْفُرُ مُنْكِرُه، أمّا "الواجب" فهو ما ثَبُتَ اللّزوم فيه (لزوم فِعلِه) بدليل ظَنِّيٍّ فيه شُبهة (مثل: صلاة الوتر، وصلاة العيدَين)، ولا يَكْفُرُ مُنْكِرُه*. وحُكمه أنّه يَلزم الإتيان به، ويُثاب فاعله، ويُعاقَب تاركه**.

* محمّد أبو زهرة، أصول الفقه، دار الفكر العربي، القاهرة – مصر، ل. ط، ل. ت.، ص ٢٣.

** د. وهبة الزّحيليّ، أصول الفقه الإسلاميّ، دار الفكر، دمشق – سورية / دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، ط ٢، ١٤١٧ هـ. – ١٩٩٦ م.، ج ١، ص ٤٦.

[٣٢٤] المندوب: ويسمّى أيضاً: "المُسْتَحَبّ". وهو ما طَلب الشّارع (أحكام الإسلام) فِعلَه طلباً غير لازم*. وهو أمر يُعَدُّ من السُّنَّة، ولكنّه دون السُّنَّةِ المؤكّدَة والسُّنَّةِ غير المؤكّدَة. وحُكمه أن يُثاب فاعله، ولا يُلام تاركه (مثل: تعجيل الإفطار، وتأخير السُّحور)**.

* الإمام محمّد أبو زهرة، أصول الفقه، المرجع السّابق، ص ٣١.

** د. إبراهيم محمّد سلقيني، الفقه الإسلاميّ، أحكام العبادات، دار الأنصاريّ، ط ١، حلب – سوريا، ل. ت.، ص ١٩.

[٣٢٥] السُّنَّة: هي أقوال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأفعالُه وتقريراته (يَرى فِعلاً، أو يَسمع قولاً، لأحد الصّحابة، فيُقِرُّهُ بعدم إنكارِه له)*. وهي ما طَلب الشّرع (أحكام الإسلام) فِعلَه طلباً غير لازم. وحُكمها: يُثاب فاعلها، ولا يُعاقَب تاركها، ولكنّه مُعَرَّضٌ

رَبِّنا لَمَفعولاً ويَخِرّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكونَ ويَزيدُهُمْ خُشوعاً﴾[٣٢٦]، ولِما ورد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (إذا قرأ ابن آدم السّجدة فسجد اعتزل الشّيطان يبكي، يقول: يا وَيْلَه)، وفي رواية: (يا وَيْلي)، (أُمِرَ ابن آدم بالسّجود فسجد فلَهُ الجنّة، وأُمِرْتُ بالسّجود فأَبَيْتُ فَلِيَ النّار)[٣٢٧]، ولِما روى عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقرأ علينا السّورة فيها السّجدة فيسجد ونسجد[٣٢٨].

وليس سجود التّلاوة بواجب عندهم، لأنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم تركه[٣٢٩]. فقد ورد عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه أنّه قال: قرأتُ على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ﴿والنَّجْمِ﴾[٣٣٠] فلم يسجد فيها[٣٣١]، وفي رواية: فلم يسجد منّا أحد. وروى البخاريّ أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه "قرأ يوم الجمعة على المنبر بسورة النّحل، حتّى إذا جاء السّجدة نزل فسجد وسجد النّاس. حتّى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتّى إذا جاء السّجدة قال: (يا أيّها النّاس إنّا نَمُرُّ بالسّجود، فمَن سجد فقد أصاب، ومَن لم يسجد فلا إثم عليه)، و لم يسجد عمر رضي الله عنه"[٣٣٢].

واختلف فقهاء المالكيّة في حكم سجود التّلاوة، هل هو سُنَّةٌ غير مؤكّدَة أو فضيلة، والقول بالسُّنِّيَّةِ شَهَرَهُ ابن عطاء الله وابن الفاكهاني، وعليه الأكثر، والقول بأنّه فضيلة هو قول الباجي وابن الكاتب، وصدر به ابن الحاجب ومن قاعدته تشهير ما صدر به، وهذا الخلاف في حقّ المكلّف. أمّا الصَّبِيُّ فيُندب له فقط، وفائدة الخلاف كَثرة الثّواب وقِلّتُه، وأمّا السّجود في الصّلاة، ولو فرضاً، فمطلوب على القولين، وقال ابن العربيّ: وسجود التّلاوة واجب وجوبَ سُنَّةٍ لا يأثم مَن تركه عامداً.

للعِتاب من الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. وتنقسم إلى قسمين: السُّنَّةُ المؤكّدَة، وهي ما (أفعالٌ) واظَبَ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على فِعلِها، والسُّنَّةُ غير المؤكّدَة، وهي التي (أفعالٌ) لم يُواظِب على فِعلِها**.

* الإمام محمّد أبو زهرة، أصول الفقه، المرجع السّابق، ص ٨٢.

** د. إبراهيم محمّد سلقيني، الفقه الإسلاميّ، أحكام العبادات، المرجع السّابق، ص ١٨ - ١٩.

[٣٢٦] سورة الإسراء، الآية ١٠٩.

[٣٢٧] مسلم بن الحجّاج، صحيح مسلم، المرجع السابق، ج ١، ص ٨٧، حديث رقم ٨١.

[٣٢٨] البخاريّ، صحيح البخاريّ، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤١، حديث رقم ١٠٧٥.

[٣٢٩] الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة، المرجع السابق، ج ٢٤، ص ٢١٢.

[٣٣٠] المقصود: سورة النّجم.

[٣٣١] البخاريّ، صحيح البخاريّ، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤١، حديث رقم ١٠٧٣.

[٣٣٢] البخاريّ، صحيح البخاريّ، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤٢، حديث رقم ١٠٧٧.

وذهب الحنفيّة إلى أنّ سجود التّلاوة، أو بَدَلَه كالإيماء، واجب لحديث: (السّجدة على مَن سَمِعَها)[٣٣٣][٣٣٤].

واتّفق أهل المذاهب الأربعة على أنّ سجدة التّلاوة، كصلاة النّافلة، يُشترط لها طهارة الحَدَثِ وغير ذلك من شروط الصّلاة، ويجوز للمسافر أن يَسجُدَها على الدّابة. وممّا جاء في سجودها على الّدابة، عن ابن عمر رضي الله عنهما، "أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قرأ عام الفَتح سجدةً فسجد النّاس كلُّهم، منهم الرّاكب والسّاجد في الأرض، حتّى إنّ الرّاكب لَيسجد على يده"[٣٣٥].

٣ – سجود الشّكر:

أمر الإسلام المسلمين بالسّجود في حالات أخرى غير حالة الصّلاة وحالة التّلاوة، كحالة سهو المصلّي خلال صلاته عن أداء بعض متطلّبات صحّتها، وأحكام هذا الأمر التّفصيليّة مذكورة في كتب الفقه، وكحالة شكر الله تعالى عند إنعامِه عليه، أو على آخرين، بنعمة، كشِفاء مريض، أو قدوم غائب، أو الرِّزق بمولود، أو اندفاع نقمة، أو نصرٍ للإسلام، أو فتحٍ للمسلمين، أو نحو ذلك.

وورد أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "كان إذا جاءَهُ أمْرٌ يَسُرُّهُ خَرَّ ساجِدًا لله"[٣٣٦]، وأنّ أبا بكر الصِّدّيق رضي الله عنه سجد حين جاءه خبر قتل مُسَيْلِمَةَ الكذّاب في فتح "اليمامة"[٣٣٧].

وذهب "الشّافعية والحنابلة في حُكم سجود الشّكر، عند وجود سببه، أنه سُنَّة، لِما ورد من الأحاديث الدّالة على أنّ النَّبِيَّ صلّى الله عليه وسلّم كان يفعله.

وأفاد الزّرقانيّ، على القول بمشروعيّته عند المالكيّة، أنّه على هذا القول غير مطلوب، أي ليس مُستَحَبًّا[٣٣٨]، ولكنّه جائز فقط.

---

[٣٣٣] البيهقيّ، السُّنَنُ الكبرى، تحقيق محمّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، ط ٣، ١٤٢٤ هـ. – ٢٠٠٣ م.، ج ٢، ص ٤٥٩، حديث رقم ٣٧٦٨.

[٣٣٤] الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة، المرجع السابق، ج ٢٤، ص ٢١٣.

[٣٣٥] أبو داود، سُنن أبي داود، تحقيق محمّد مُحيي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، صيدا / بيروت – لبنان، ل. ت.، ج ٢، ص ٦٠، حديث رقم ١٤١١.

[٣٣٦] الدّارقَطنِيّ، سُنن الدّارقَطنِيّ، تحقيق شُعَيْب الأرنؤوط وآخرون، مؤسّسة الرّسالة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٢٤ هـ. – ٢٠٠٤ م.، ج ٥، ص ٢٦٠، حديث رقم ٤٢٨٥.

[٣٣٧] الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة، المرجع السابق، ج ٢٤، ص ٢٤٦.

[٣٣٨] المُستَحَبّ: ما رَغَّبَ به الشّارع ولم يوجِبْه.

الجُرجانيّ، التّعريفات، المرجع السابق، ص ٢٧٢.

ومشهور مذهب المالكيّة أنَّ سجود الشّكر مكروه[٣٣٩]، وهو نصّ مالك، والظّاهر أنّها عنده كراهَةُ تحريم.
ومذهب أبي حنيفة الكراهة، إلاّ أنّهم صرّحوا بما يدلّ على أنَّها كراهَةُ تنزيه، فعبارة الفتاوى الهنديّة: سجدة الشّكر لا عبرة بها، وهي مكروهة عند أبي حنيفة لا يُثاب عليها، وتَرْكُها أولى"[٣٤٠].

شروط سجود الشّكر:

"صرّح الشّافعية والحنابلة بأنّ سجود الشّكر يُشترط له ما يُشترط للصّلاة، أي من الطّهارة، واستقبال القِبلة، وستر العورة، واجتناب النّجاسة.

وعلى هذا فمَن كان فاقِدَ الطَّهورَين[٣٤١] ليس له أن يسجد للشّكر كما صرّح به الشّرقاويّ.

وعلى القول بجواز سجود الشّكر عند المالكيّة، فالمشهور أنَّه يفتقر إلى طهارة على ظاهر المذهب، واختار بعض المالكيّة عدم افتقاره إلى ذلك، قال الحطّاب: لأنَّ سرّ المعنى الذي يُؤْتى بالسّجود لأجله يزول لو تراخى حتّى يتطهّر. واختار ابن تيميَة أنَّه لا يُشترط الطّهارة لسجود الشّكر"[٣٤٢].

كيفيّة سجود الشّكر:

"صرّح الشّافعيّة والحنابلة بأنَّ سجود الشّكر تُعتبر في صفاته صفات سجود التّلاوة خارج الصّلاة، وإذا أراد أن يسجد للشّكر لله تعالى يَستقبل القِبلة ويُكَبِّرُ ويَسجد سجدة يَحمَد الله تعالى فيها ويُسَبِّحُه[٣٤٣].

ثمّ يُكَبِّرُ تكبيرة أخرى ويرفع رأسه. قال في الفتاوى الهنديّة: كما في سجود التّلاوة، وقد قال في سجود التّلاوة: يُكَبِّرُ للسّجود ولا يَرفَع يديه. وإذا رَفَعَ من السّجود فلا تَشَهُّدَ عليه ولا سَلام.

غير أنَّ في التَّشهُّد والتّسليم من سجود الشّكر بعد الرّفع عند الشّافعية ثلاثة أقوال أصَحُّها: أنّه يُسَلِّمُ ولا يَتَشَهَّد.

وعند الحنابلة اختلاف في سجود التّلاوة هل يرفع يديه عند تكبيرها الأولى أم لا، ومقتضى ذلك جريان الخلاف في مثل ذلك في سجدة الشّكر، ويُسَلِّم، ولا تَشَهُّدَ عليه.

---

[٣٣٩] المكروه: ما هو راجِحُ التَّرك (أمرٌ مطلوب تركه أكثر ممّا هو مطلوب فِعلُه)، فإن كان إلى الحرام أقرب تكون كراهته تحريميّة، وإن كان إلى الحِلِّ (الحلال) أقرب تكون تنزيهيّة، ولا يُعاقَب على فِعلِه.
الجرجانيّ، التّعريفات، المرجع نفسه، ص ٢٩٣.

[٣٤٠] الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة، المرجع السابق، ج ٢٤، ص ٢٤٧.

[٣٤١] الطَّهوران: الماء والتُّراب. وفاقِدُ الطَّهورَين: مَن لا يَجِدُ الماءَ للوضوء، ولا التُّرابَ للتَّيَمُّم، عند دخول وقت الصّلاة. ويَدخُل في حُكم فاقِدِ الطَّهورَين مَن يمنعه مرض، أو حروق، من استعمال الماء والتُّراب.

[٣٤٢] الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة، المرجع السابق، ج ٢٤، ص ٢٤٨.

[٣٤٣] الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة، المرجع نفسه، ج ٢٤، ص ٢٤٨.

وصرّحوا أيضاً بأنّه يُعتبر في سجود الشّكر السّجود على الأعضاء السّبعة[٣٤٤]، وأنّ ذلك رُكْنٌ[٣٤٥] فيه، ويجب فيه التّكبير والتّسبيح، إلاّ أنّه ليس فيه تَشَهُّدٌ ولا جلوسَ له، وأنّه تُجزِئ فيه تسليمة واحدة"[٣٤٦].

الاعتراض على السّجود:

أشار القرآن الكريم إلى نماذج عدّة لرفض عقلاء، كان ظاهرهم الإيمان، السّجود عندما أمرهم الله به، ومن هذه النّماذج:

١ – بنو إسرائيل: أمر الله تعالى بني إسرائيل بالسّجود له في موضع معيَّن، ودُعاءَه بكلام محدّد، ولكنّ بني إسرائيل بدّلوا أمر الله تعالى، فلم يسجدوا و لم يلتزموا بالدّعاء المحدَّد، فعذّبهم الله تعالى بذنبهم. وقد أورد الله تعالى هذا الأمر في القرآن الكريم بقوله عزّ من قائل: ﴿وإذْ قُلْنا ادْخُلوا هَذِهِ القَرْيَةَ فَكُلوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وادْخُلوا البابَ سُجَّداً وقولوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وسَنَزيدُ المُحْسنينَ * فَبَدَّلَ الَّذينَ ظَلَموا قَوْلاً غَيْرَ الَّذي قيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا على الَّذينَ ظَلَموا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانوا يَفْسُقونَ﴾[٣٤٧]. وورد عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في هذا الأمر أنّه قال: (قيل لبني إسرائيل: ﴿ادْخُلوا البابَ سُجَّداً وقولوا حِطَّةٌ[٣٤٨] نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ﴾[٣٤٩]، فبدَّلوا[٣٥٠] فدخلوا يزحفون على أستاهِهِم[٣٥١]، وقالوا: حبّة في شَعرة)[٣٥٢].

---

[٣٤٤] الأعضاء السّبعة: الأعضاء التي يجب السّجود عليها في كلّ سجدة من سجدات الصّلاة ليَصِحَّ السّجود، وهي: جبهة الرّأس، والكفّان، والرُّكبتان، وأصابع القدَمَين.

[٣٤٥] الرُّكن: رُكْنُ الشّيء ما يَتِمُّ به، وهو داخِل فيه.

الجرجانيّ، التّعريفات، المرجع السابق، ص ١٤٩.

[٣٤٦] الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة، المرجع السابق، ج ٢٤، ص ٢٤٩.

[٣٤٧] سورة البقرة، الآيتان ٥٨ – ٥٩.

[٣٤٨] حِطَّة: أي احْطُطْ عنّا خطايانا، أي: حُطَّ عنّا خطايانا. هذا قول الحسن، وقَتادَة، وعطاء. وقال عِكْرِمَةُ وغيره: أُي قولوا: "لا إله إلاّ الله"، وكأنّ أصحاب هذا القول اعتبروا الكلمة التي تُحَطُّ بها الخطايا هي كلمة التّوحيد. وقال سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس: "أُمِروا بالاستغفار".

ابن قَيِّم الجَوْزِيَّة، إغاثة اللّهفان من مَصايد الشّيطان، تحقيق محمّد حامد الفَقيّ، مكتبة المعارف، ط ١، الرّياض – المملكة العربيّة السّعوديّة، ل. ت.، ج ٢، ص ٣٠٨.

[٣٤٩] سورة البقرة، الآية ٥٨.

[٣٥٠] بدّلوا: التّبديل هو التّغيير.

[٣٥١] أستاهِهم: أدبارِهم.

[٣٥٢] البخاريّ، صحيح البخاريّ، المرجع السابق، ج ٦، ص ٦٠، رقم الحديث ٤٦٤١.

٢ – المنافقون: هم الذين يُظهِرونَ الإيمان باللّسان، ويَكتمون الكفر بالقلب[٣٥٣]، وفي القرآن الكريم سورة باسمهم هي سورة المنافقون، وذَكَرَهُمُ الله تعالى في سورة القلم في موقف من مواقف يوم القيامة بقوله جلَّ من قائل: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ ويُدْعَوْنَ إلى السُّجودِ فلا يَستَطيعونَ * خاشِعَةً أبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُم ذِلَّةٌ، وقَدْ كانوا يُدْعَوْنَ إلى السُّجودِ وهُمْ سالِمونَ﴾[٣٥٤].

وفي معنى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ﴾ "قال ابن عبّاس: هي أشدُّ ساعةٍ في يوم القيامة، وقال أبو عبيدة: إذا اشتدَّ الحرب والأمر قيل: كَشَفَ الأمْرُ عن ساقِه. والأصل فيه أنَّ مَن وقع في شيء يَحتاج فيه إلى الجِدِّ شَمَّرَ عن ساقِه، فاستُعيرَت السّاق والكشف عنها في موضع الشِّدَّة. ﴿ويُدْعوْنَ إلى السُّجودُ فَلا يَسْتَطيعونَ﴾ كأنَّ ظُهورَهم السّفافيد[٣٥٥]، ﴿خاشِعَةً أبْصارُهُمْ﴾ أي ذليلة متواضعة. ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وذلك أنَّ المؤمنين يرفعون رؤوسَهم ووجوهَهم أشدُّ بياضاً من الثّلج، وتَسْوَدُّ وجوه المنافقين والكافرين حتّى تَرجِع أشدَّ سواداً من القار[٣٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وقَدْ كانوا يُدعَوْنَ إلى السُّجودِ﴾ أي في الدّنيا ﴿وهُمْ سالِمونَ﴾ مُعافونَ أصِحّاء. قيل: أي يُدْعَوْنَ بالأذان والإقامة فيَأْبونَه. وقيل: كانوا يَسمعون: حيَّ على الفلاح، فلا يجيبون"[٣٥٧].

٣ – إبليس: أمر الله تعالى إبليس بالسّجود لآدم عليه السّلام، سجود تحيّة وليس سجود عبادة، فأبى تَكَبُّراً على آدم عليه السّلام. وقد أورد الله تعالى هذا الأمر في القرآن الكريم بقوله عزّ من قائل: ﴿إذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طينٍ * فَإذا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فيهِ مِنْ روحي فَقَعوا لَهُ ساجِدينَ * فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أجْمَعونَ * إلاّ إبْليسَ اسْتَكْبَرَ وكانَ مِنَ الكافِرينَ﴾[٣٥٨].

وذكَر الله تعالى سبب رفض إبليس السّجود في الآيات التّالية بقوله عزّ من قائل: ﴿قالَ يا إبْليسُ ما مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ، أسْتَكْبَرْتَ أمْ كُنْتَ مِنَ العالينَ * قالَ أنا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَني مِنْ نارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ

---

[٣٥٣] الجرجانيّ، التّعريفات، المرجع السابق، ص ٣١١.

[٣٥٤] سورة القلم، الآيتان ٤٢ – ٤٣.

[٣٥٥] السَّفّود: عودٌ من حديد يُنْظَمُ [يُصَفُّ] فيه اللَّحْمُ ليُشْوى.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٣١٢.

[٣٥٦] القار: الزِّفْت.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٥٢٢.

[٣٥٧] محمّد كُرَيِّمْ راجِح، مختصر تفسير القرطبيّ، المرجع السابق، ج ٥، ص ٢٣٦ – ٢٣٧.

[٣٥٨] سورة ص، الآيات ٧١ – ٧٤.

طينٍ﴾[٣٥٩]، أي أنّه اعتبر، استكباراً[٣٦٠]، أنّ النّار، مادَّةَ خَلْقِهِ، أعلى مرتبةً من الطّين، مادَّةَ خَلْقِ آدم عليه السّلام.

فكانت عاقبة استكباره ومعصيته أمْرَ الله تعالى ما ذَكَرَهُ الله تعالى في القرآن الكريم بقوله جلّ وعلا: ﴿قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجيمٌ * وإنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتي إلى يَوْمِ الدّينِ﴾[٣٦١].

ج – سجود الملائكة:

خَلَقَ الله عزّ وجلّ خَلْقاً من نورٍ لا يملكون حقّ الاختيار في أفعالهم، ومعصومون عن بواعث الشّهوة والغضب وحوادث الحقد والحسد، وهذا الخَلْقُ هم الملائكة. وقد وصف الله تعالى الملائكة بأنّهم من السّاجدين له ولا يعصونه فيما أمَر، وذلك بقوله في القرآن الكريم: ﴿ولله يَسْجُدُ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ مِنْ دابَّةٍ والمَلائِكَةُ وهُمْ لا يَسْتَكْبِرونَ * يَخافونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ويَفْعَلونَ ما يُؤْمَرونَ﴾[٣٦٢]، وقوله أيضاً: ﴿إنَّ الَّذينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبادَتِهِ ويُسَبِّحونَهُ ولَهُ يَسْجُدونَ﴾[٣٦٣].

ومعنى ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أنّ الملائكة قريبون من رحمته، وكلّ قريبٍ من رحمة الله عزّ وجلّ فهو عنده. وقيل: لأنّهم رُسُلُ الله، كما يُقال: عند الخليفة جيش كثير. وقيل: هذا على جهة التّشريف لهم، وأنّهم بالمكان المُكَرَّم، فهو عبارة عن قُرْبِهِمْ في الكرامة لا في المسافة.

وهؤلاء الملائكة المقرَّبون بالفضل والكرامة ﴿لا يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبادَتِهِ﴾، أي لا يتكبَّرون عن عبادة الله. ﴿ويُسَبِّحونَهُ﴾، أي ويُعظِّمونَه ويُتزِّهونَه عن كلِّ سوء، ويَذكُرونَه فيقولون: سبحان الله. ﴿وله يَسْجُدونَ﴾، قيل: يُصَلّونَ له، وقيل: يَذِلّونَ له، خلافَ أهل المعاصي[٣٦٤]. وفي الحديث الشّريف: (أطَّتِ السَّماءُ[٣٦٥] وَحَقَّ لها أنْ تَئِطّ، ما فيها مَوْضِعُ أرْبَعِ أصابِعَ إلاّ عليه مَلَكٌ ساجِد)[٣٦٦].

---

[٣٥٩] سورة ص، الآيتان ٧٥ – ٧٦.

[٣٦٠] كان الكِبْرُ بدءَ الذّنوب، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (لا يدخل الجنّة مَن كان في قلبه مِثْقالُ حبّة من خَرْدَلٍ من كِبْر)، أحمد بن حنبل، مسند أحمد، المرجع السابق، ج ٧، ص ٣٣٥، حديث رقم ٤٣١٠.

وقد كان في قلب إبليسَ من الكِبْرِ والكُفْرِ والعَنادِ ما اقتضى طَرده وإبعاده عن الجنّة. ﴿وكانَ مِنَ الكافِرينَ﴾، سورة ص، الآية ٧٤، أي: وصار من الكافرين بسبب معصيته أمر الله لتكبُّره.

[٣٦١] سورة ص، الآيتان ٧٧ – ٧٨.

[٣٦٢] سورة النّحل، الآيتان ٤٩ – ٥٠.

[٣٦٣] سورة الأعراف، الآية ٢٠٦.

[٣٦٤] القرطبيّ، تفسير القرطبيّ، المرجع السابق، ج ٧، ص ٣٥٦. وانظر أيضاً: البَغَويّ، تفسير البَغَويّ، تحقيق محمّد عبد الله النّمر وآخَرون، دار طيبة، ط ٤، ١٤١٧ هـ. – ١٩٩٧ م.، ج ٣، ص ٣٢١.

[٣٦٥] أطّ: صَوَّت. أطَّتِ السَّماء: صَدَرَ عنها صَوْت.

وقيل: سبب نزول هذه الآية أنّ كفّار مكّة قالوا: "أنسجُد لِما تأمُرُنا؟". فنزلت هذه الآية تُخبِر أنّ الملائكة، وهم أكبر شأناً من هؤلاء الكفّار، لا يتكبَّرون عن عبادة الله[٣٦٧].

٢ – *سجود المخلوقات خضوعاً وانقياداً:*

أشار الله تعالى، في عدد من آيات القرآن الكريم، إلى أنّ جميع المخلوقات، بما فيها السّماوات والأرض ومَن فيهن، تسجد له خاضعة منقادة لأمره، ومن هذه الآياتِ الآياتُ التّالية:

١ – ﴿والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدانِ﴾[٣٦٨].

٢ – ﴿ولله يَسْجُدُ مَنْ في السَّماواتِ والأرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً﴾[٣٦٩] .

٣ – ﴿ثُمَّ اسْتَوى إلى السَّماءِ وهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها ولِلأرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أوْ كَرْهاً قالَتا أتَيْنا طائِعينَ﴾[٣٧٠].

٤ – ﴿أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّماواتِ ومَنْ في الأرْضِ والشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجومُ والجِبالُ والشَّجَرُ والدَّوابُ وكَثيرٌ مِنَ النّاسِ، وكَثيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذابُ، ومَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ، إنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾[٣٧١].

وأجناس الكون التي يعرفها الإنسان أربعة: إمّا جماد، فإذا وُجِدَتْ خاصِّيَّة النُّمُوِّ كان النّبات، وإذا وُجِدَتْ خاصِّيَّة الحركة والحِسِّ كان الحيوان، فإذا وُجِدَتْ خاصِّيَّة الفِكْرِ كان الإنسان، وإذا وُجِدَتْ خاصِّيَّة العِلم الذّاتيّ النّورانيّ كان المَلَك[٣٧٢].

وتختلف كيفيّة السّجود تبعاً لطبيعة خَلْقِ كلّ جنس من المخلوقات و﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسْبِيحَهُ﴾[٣٧٣] ﴿ولَكِنْ لا تَفْقَهونَ تَسْبيحَهُمْ﴾[٣٧٤]. وسيتمّ فيما يلي عرض لكيفيّة سجود بعض أجناس المخلوقات التي ورد ذِكرها في القرآن الكريم، وهذه الأجناس هي:

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٢٠.

[٣٦٦] أحمد بن حَنبل، مُسند أحمد بن حَنبل، المرجع السابق، ج ٣٥، ص ٤٠٥، حديث رقم ٢١٥١٦.

[٣٦٧] ابن الجوزيّ، زادُ المَسير في عِلم التّفسير، تحقيق عبد الرّزاق المهديّ، دار الكتاب العربيّ، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٢٢ هـ. – ٢٠٠٢ م.، ص ١٨٥.

[٣٦٨] سورة الرّحمن، الآية ٦.

[٣٦٩] سورة الرّعد، الآية ١٥.

[٣٧٠] سورة فُصِّلَت، الآية ١١.

[٣٧١] سورة الحجّ، الآية ١٨.

[٣٧٢] محمّد متولّي الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ – الخواطر، مطابع أخبار اليوم، القاهرة – مصر، ١٩٩٧ م.، ج ١٣، ص ٧٩٧٨.

[٣٧٣] سورة النّور، الآية ٤١.

١ – النّجم والشّجر.

٢ – الظّلال.

٣ – الشّمس.

١ – سجود النّجم والشّجر:

قال الله تعالى: ﴿والنَّجمُ والشَّجَرُ يَسْجُدانِ﴾[٣٧٥]، وفي "النَّجْمِ" قولان: أحدهما: نجمُ السّماء، وهو موحَّد، والمراد به جميع النّجوم، قاله مجاهد. الثّاني: أنّ "النَّجْمَ" النّباتُ الذي قد نَجَمَ[٣٧٦] في الأرض وانبسط فيها ليس له ساق، كالبُقول، والشّجر ما كان على ساق، قاله ابن عبّاس.

وفي سجودهما خمسة أقاويل:

أحدها: هو سجود ظِلِّهما، قاله الضّحّاك.

الثّاني: هو ما فيهما من الصَّنعة والقُدرَة التي توجِب السّجود والخضوع، قاله ابن بحر.

الثّالث: أنّ سجودهما دوران الظِّلِّ معهما، كما قال تعالى: ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ﴾[٣٧٧]، قاله الزَّجّاج.

الرّابع: أنّ سجود النّجم أُفولُه، وسجود الشّجر إمكان الاجتناء[٣٧٨] لِثمارها، قاله الماوِرْدِيّ.

الخامس: أنّ سجودهما أنّهما يَستقبِلان الشّمس إذا أشرَقَت ثمّ يَميلان معها إذا انكسر الفَيْء، قاله الفَرّاء[٣٧٩].

والسّجود عبارة عن التَّذَلُّلِ والانقِياد لله تعالى[٣٨٠]، وحقيقة السّجود توجد من النّجم والشّجر وإن لم تكن مَرْئِيَّة، كما يُسبِّح كلٌّ منهما وإن لم يُفْقَه تَسبيحُهُما، فقد قال تعالى: ﴿وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولَكِنْ لا تَفْقَهونَ تَسْبيحَهُمْ﴾[٣٨١].

---

[٣٧٤] سورة الإسراء، الآية ٤٤.

[٣٧٥] سورة الرّحمن، الآية ٦.

[٣٧٦] نَجَم: ظَهَرَ وطَلَع.

مختار الصِّحاح، المرجع السّابق، ص ٣٠٥.

[٣٧٧] سورة النّحل، الآية ٤٨.

[٣٧٨] اجْتَنى: التَقَط. والمقصود هنا: قَطْفُ الثَّمَر.

مختار الصِّحاح، المرجع السّابق، ص ٦٢.

[٣٧٩] الماوِرْدِيّ، تفسير الماوِرْدِيّ، تحقيق السَّيِّد بن عبد المقصود بن عبد الرّحيم، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت – لبنان، ل. ت.، ج ٥، ص ٤٢٤.

والسّجود وضع الجبهة، أو مَقاديم الرّأس، على الأرض، والنّجم والشّجر، في الحقيقة، رُؤوسُهُما على الأرض وأرجُلُهُما في الهواء، لأنّ الرّأس من الحيوان ما به شُرْبُهُ وإغْذاؤه، وللنّجم والشّجر اغْتِذاؤهُما وشُرْبُهُما بأجْذالِهِما[٣٨٢]، ولأنّ الرّأس لا تَبقى بدونه الحياة، والنّجم والشّجر لا يَبقى شيءٌ منهما ثابتاً غَضّاً عند وقوع الخَلل في أُصولِهما، ويَبقى عند قَطْعِ فروعِهما وأعاليهما، وإنّما يُقال للفروع: رُؤوس الأشجار، لأنّ الرّأس في الإنسان هو ما يلي جهة فَوْق، فقيل لأعالي الشّجر: رُؤوس، والنّجم (البُقول) والشّجر رُؤوسُهما على الأرض دائماً، فهو سُجودُهما بالشَّبَه لا بطريق الحقيقة[٣٨٣].

٢ – *سجود الظِّلال*[٣٨٤].

قال الله تعالى: ﴿أوَلَمْ يَرَوْا إلى ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ اليَمينِ والشَّمائِلِ سُجَّداً للهِ وهُمْ داخِرونَ﴾[٣٨٥].

و﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ﴾، تتحوَّل ظِلالُه[٣٨٦] من جانب إلى آخر، الآية وأمّا الفرق بين الفَيْءِ والظِّلّ: فيُقال: إنّ الظِّلَّ بالغَداة، والفَيْءَ بالعَشِيّ، ويقال: إنّ معناهما واحد[٣٨٧].

---

[٣٨٠] ابن جُزَيّ الكَلْبِيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل، تحقيق د. عبد الله الخالديّ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٦ هـ. – ١٩٩٥ م.، ج ٢، ص ٣٢٧.

[٣٨١] سورة الإسراء، الآية ٤٤.

[٣٨٢] الجِذْل: أصل الشّجرة بعد ذهاب الفرع.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٩٧.

[٣٨٣] الرّازيّ، التّفسير الكبير، المرجع السابق، ج ٢٩، ص ٣٤١.

[٣٨٤] إنّ معنى سجود الظّلال أنّ الله خَلَقَها من أعراض الأجسام الأرضيّة، فهي مرتبطة بنظام انعكاس أشعّة الشّمس عليها وانتهاء الأشعّة إلى صلابة وجه الأرض حتّى تكون الظِّلال واقعةً على الأرض وقوع السّاجِد، فإذا كان مِن النّاس مَن يأبى السّجود لله، أو يَتْرُكُهُ اشتِغالاً عنه بالسّجود للأصنام، فقد جعل الله مِثالَهُ(#) شاهداً على استحقاق الله السّجود إليه شهادة رمزيّة. ولو جَعل الله الشّمسَ شَمْسَيْنِ مُتَقابِلَتَيْنِ على السّواء لانْعَدَمَتِ الظِّلال(##)، ولو جَعل وجهَ الأرض شفّافاً، أو لامِعاً كالماء، لم يَظهر الظِّلُّ عليه بَيِّناً. فهذا من رموز الصَّنعة التي أوْجَدَها اللهُ وأدَقَّها دِقّةً بديعة، وجَعل نظام الموجودات الأرضيّة مُهَيَّئَةً لها في الخِلْقَةِ لِحِكَمٍ مُجتمِعة، منها: أن تكون رموزاً دالّةً على انفراده تعالى بالإلهيَّة، وعلى حاجة المخلوقات إليه، وجَعل أكثرَها في نوع الإنسان لأنَّ نوعه مُخْتَصٌّ بالكُفران دون الحيوان.

ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، المرجع السابق، ج ١٣، ص ١١١.

(#) مِثالَه: مِثالَ الظِّلال.

(##) قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ولَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَليلاً﴾، سورة الفرقان، الآية ٤٥.

[٣٨٥] سورة النّحل، الآية ٤٨.

وقيل: ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ﴾، يرجع، والفَيْء: الرّجوع، وبه سُمِّي الظِّلُّ بعد الزَّوال لرُجوعِه، أو يَتَمَيَّل، أو يَدور، أو يتحوّل. ﴿عَنِ اليَمينِ والشَّمائِلِ﴾ تارة إلى جهة اليمين وتارة إلى جهة الشّمال[٣٨٨]، أو اليمين أوّل النهار والشّمال آخره. ﴿سُجَّداً﴾، ظِلُّ كلّ شيءٍ سجوده، أو سجود الظِّلِّ بسجود شخصه، أو سجود الظِّلال كسجود الأشخاص تَسجُد خاضعة لله. ﴿داخِرونَ﴾، صاغِرون خاضِعون[٣٨٩]، مُسْتَذَلّونَ مُنقادون.

وقال الحسن البَصْرِيّ: يا ابن آدم، ظِلُّكَ يَسجُد لله تعالى، وأنت لا تَسجُد، فبِئْسَ ما صَنَعت[٣٩٠].

وقال تعالى في سورة الرّعد: ﴿ولِلّهِ يَسْجُدُ مَنْ في السَّماواتِ والأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وظِلالُهُمْ بِالغُدُوِّ والآصالِ﴾[٣٩١]، يعني: السّاجدون هم الملائكة والمؤمنون، و﴿كَرْهاً﴾: يعني مَن أُكْرِهَ على السّجود من الكافرين والمنافقين، هذا قول المُفَسِّرين.

وقيل: سجود الكارِهِ التَّذَلُّلُ والانقِياد لِما يريده الله منه من عافية ومرض، وغنى وفقر، وحياة وموت، فالكافر في حكم السّاجد لله من هذا الوجه[٣٩٢].

---

[٣٨٦] تبدأ حركة الظِّلِّ مع ابتداء النّهار ويكون ظلُّ الشّيء أضعاف أصلِه، ثمّ ينكمش رُوَيْداً رُوَيْداً حتّى يقع تحت قدَميه عند الزّوال، ثمّ يبدأ في الطّول شيئاً فشيئاً، حتّى يعودَ كما بدأ أوّل النّهار في طوله وامتداده، أضعافاً مضاعَفة. إنّها دورة كاملة للظِّلِّ على الأرض، أشْبَهُ بدورة الأفلاك في مداراتها – عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن، دار الفكر العربيّ، ط ١، القاهرة – مصر، ل. ت.، ج ٧، ص ٨٩.

[٣٨٧] منصور بن محمّد بن عبد الجبّار بن أحمد المَرْوَزِيّ، تفسير القرآن، تحقيق ياسر بن إبراهيم، دار الوطن، ط ١، الرّياض – السّعوديّة، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م.، ج ٣، ص ١٧٦.

[٣٨٨] ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عن اليَمين والشَّمائِلِ﴾، سورة النّحل، الآية ٤٨: قيل: إنّ العرب إذا ذَكَرَتْ صيغَتَيْ جَمْعٍ عَبَّرَتْ عن إحداهما بلفظ المُفْرَد كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنّورَ﴾، سورة الأنعام، الآية ١، و﴿خَتَمَ اللهُ على قُلوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ﴾، سورة البقرة، الآية ٧. وقيل: إذا فَسَّرْنا اليمين بالمشرق كانت النّقطة التي هي مَشرِق الشّمس واحدةً بعينها فكانت اليمين واحدة، وأمّا الشّمائِل فهي عبارة عن الانحرافات الواقعة في تلك الظِّلال بعد وقوعها على الأرض، وهي كثيرة، فلذلك عُبِّرَ عنها بصيغة الجَمع. وقيل: اليمين مُفْرَدٌ لفظاً لكنّه جَمْعٌ مَعنى فيُطابِقُ الشّمائِل من حيث المعنى.

ولمزيد من التّفصيل انظر الألوسيّ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المَثاني، تحقيق عليّ عبد الباري عطيّة، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٥ ه. – ١٩٩٥ م.، ج ٧، ص ٣٩٤ – ٣٩٥.

[٣٨٩] عزّ الدّين عبد العزيز بن عبد السّلام المُلَقَّب بسلطان العلماء، تفسير القرآن (اختصار لتفسير الماوَرْدِيّ)، تحقيق د. عبد الله بن إبراهيم الوهيبيّ، دار ابن حزم، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٦ ه. –١٩٩٦ م.، ج ٢، ص ١٩٣.

[٣٩٠] منصور بن محمّد بن عبد الجبّار بن أحمد المَرْوَزِيّ، تفسير القرآن، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٧٦.

[٣٩١] سورة الرّعد، الآية ١٥.

ومعنى ﴿وظِلالُهُمْ بِالغُدُوِّ والآصالِ﴾: ظِلُّ كلّ شخصٍ مؤمنٍ أو كافر، فإنّ ظِلَّهُ يسجد لله تعالى. وقال مجاهد: ظِلُّ المؤمن يسجد طوعاً وهو طائِع، وظِلُّ الكافر يسجد طوعاً وهو كارِه.

وقيل: سجود الظِّلال تَمايُلُها من جانب إلى جانب، وانقِيادُها للتّسخير بالطّول والقِصَر[٣٩٣]، بسبب انحطاط الشّمس وارتفاعِها، فهي منقادةٌ مستسلمةٌ في طولها وقِصَرِها ومَيْلِها، وإنّما خُصِّصَ الغُدُوُّ والآصالُ بالذِّكرِ لأنّ الظِّلالَ إنّما تَعْظُمُ وتَكْثُرُ في هذَين الوقتَين[٣٩٤]. وقيل: إنّ سجود الظِّلِّ هو تسخيره وتذليله لما أُريد له. وقيل: إنّ معنى قوله: ﴿وظِلالُهُمْ﴾، أشخاصُهُم، ﴿بِالغُدُوِّ والآصالِ﴾، بالبُكَرِ[٣٩٥] والعَشايا[٣٩٦] [٣٩٧].

والمراد بهذا السّجود قولان:

القول الأوّل: إنّ المراد منه السّجود بمعنى وضع الجبهة على الأرض، وعلى هذا الوجه ففيه وجهان:

أحدهما: إنّ اللّفظ، وإن كان عامّاً، إلاّ أنّ المراد به الخصوص، وهم المؤمنون يسجدون لله طوعاً بسهولة ونشاط، ومِن المسلمين مَن يسجد لله كرْهاً لصعوبة ذلك عليه، مع أنّه يَحمِل نفسه على أداء تلك الطّاعة، شاء أم أبى. والثّاني: إنّ اللّفظ عامّ، والمراد منه أيضاً العامّ، وعلى هذا ففي الآية إشكال، لأنّه ليس كلّ مَن في السّموات والأرض يسجد لله، بل الملائكة يسجدون لله، والمؤمنون من الجنّ والإنْس يسجدون لله، وأمّا الكافرون فلا يَسجدون.

الجواب عنه من وجهين: الأوّل: إنّ المراد من قوله: ﴿ولله يَسْجُدُ مَنْ في السَّماواتِ والأرْضِ﴾، أي: ويجب على كلّ مَن في السّموات والأرض أن يسجد لله، فعَبَّرَ عن الوجوب بالوقوع والحصول. والثّاني:

---

[٣٩٢] النَّيْسابورِيّ (علي بن أحمد بن محمّد بن علي الواحدي)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق وتعليق الشّيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٥ هـ. - ١٩٩٤ م.، ج ٣، ص ١١.

ولمزيد من التّفصيل انظر عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن، المرجع السابق، ج ٧، ص ٨٩.

[٣٩٣] النَّيْسابورِيّ (علي بن أحمد بن محمّد بن علي الواحدي)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، المرجع السابق، ج ٣، ص ١١.

[٣٩٤] د. وهبة بن مصطفى الزُّحَيْلِيّ، التّفسير المنير في العقيدة والشّريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، ط ٢، دمشق – سورية، ١٤١٨ ه. – ١٩٩٨ م.، ج ١٣، ص ١٣٧.

[٣٩٥] البُكْرَة: أوّل النّهار إلى طلوع الشّمس.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٥٩.

[٣٩٦] العَشِيَّة (العِشاء): من صلاة المغرب إلى العَتمة.

مختار الصّحاح، المرجع السّابق، ص ٢١٠.

[٣٩٧] منصور بن محمّد بن عبد الجبّار بن أحمد المَرْوَزِيّ، تفسير القرآن، المرجع السابق، ج ٣، ص ٨٦.

إنّ المراد من السّجود التّعظيم والاعتراف بالعبوديّة، وكلّ مَن في السّموات ومَن في الأرض يعترفون بعبودية الله تعالى على ما قال تعالى: ﴿ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضَ لَيَقولُنَّ اللهِ﴾[٣٩٨].

القول الثّاني: إنّ السّجود عبارة عن الانقِياد والخضوع وعدم الامتناع، وكلّ مَن في السّموات والأرض ساجدٌ لله بهذا المعنى، لأنّ قُدْرَتَهُ ومَشيئَتَهُ نافذةٌ في الكلّ. وتحقيق القول فيه أنّ ما سواه مُمْكِنٌ لِذاتِه، والممكنُ لذاتِه هو الذي تكون ماهِيَتُه قابلةً للعَدَمِ والوجود على السّوِيّة، وكلّ مَن كان كذلك امتنع رَجَحانُ وجودِهِ على عَدَمِه، أو بالعكس، إلاّ بتأثيرِ موجودٍ ومُؤَثِّر، فيكون وجود كلِّ ما سوى الحقِّ سبحانه بإيجاده، وعَدَمُ كلِّ ما سواه بإعدامه، فتأثيره نافذٌ في جميع الممكِنات في طرَفَي الإيجاد والإعدام، وذلك هو السّجود[٣٩٩].

وقيل: لّما كانت الظّلال مُلصَقةً بالأرض، واقعةً عليها على هيئة السّاجد، وُصِفَتْ بالسّجود، وكَوْنُ السّجود يُرادُ به الحقيقة، وهو الوقوع على الأرض على سبيل العبادة، وقَصْدُها[٤٠٠] يَبْعُد، إذ يستدعي ذلك الحياة والعلم والقَصْدَ بالعبادة. وخَصَّ الظِّلَّ بالذِّكر لأنّه سريع التَّغَيُّر، والتَّغَيُّرُ يقتضي مُغَيِّراً غيرَه ومُدَبِّراً له، ولّما كان سجود الظِّلال في غاية الظّهور بدأ به، ثمّ انتقلَ إلى سجود ما في السَّماوات والأرض[٤٠١].

الظِّلُّ ووقتُ صلاتَي الظُّهر والعصر:

استخدم المسلمون الظِّلَّ لتحديد وقت صلاتَي الظُّهر والعصر، وذلك تنفيذاً لأمر الله تعالى الذي أنزله على رسوله صلّى الله عليه وسلّم ليُعَلِّمَ المسلمين كيفيّة تحديد أوقات الصّلاة. وفي ذلك ورد عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: "أَمَّ جبريل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عند البيت مرَّتَين، فصلّى به الظّهر حين زالت الشّمس، وكانت قَدْرَ الشِّراك[٤٠٢]، ثمّ صلّى به العصر حين كان ظلّ كلّ شيء بقَدْرِه، وصلّى به المغرب حين أفطر الصّائم، ثمّ صلّى به العشاء حين غاب الشَّفَق، ثمّ صلّى به الفجر حين حُرِّمَ الطّعام

---

[٣٩٨] سورة لقمان، الآية ٢٥ .

[٣٩٩] الرّازيّ، التّفسير الكبير، المرجع السابق، ج ١٩، ص ٢٥.

[٤٠٠] قَصْدُها: قَصْدُ العبادة.

[٤٠١] أبو حيّان الأندلسيّ، البحر المحيط في التّفسير، تحقيق صدقي محمّد جميل، دار الفكر، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٢٠ هـ. – ٢٠٠٠ م.، ج ٦، ص ٥٤٠.

[٤٠٢] الشِّراك: سَيْرُ (رِباط) النَّعل (الحذاء) على ظَهْرِ القَدَم.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٣٤١.

والشّراب على الصّائم. ثمّ صلّى به الظّهر من الغد حين كان ظلّ كلّ شيء بقَدْرِه، كوقت العصر بالأمس، ثمّ صلّى به العصر حين كان ظلّ كلّ شيء مِثْلَيْه، ثمّ صلّى به المغرب حين أفطر الصّائم، ثمّ صلّى به العشاء لثُلُثِ اللّيل الأوّل، ثمّ صلّى به الفجر حين أسْفَر، ثمّ قال: يا محمّد، هذا وقت الأنبياء من قبلِك، والوقت ما بين هذَين الوقتَين"[٤٠٣].

[٤٠٣] الحاكم النّيْسابورِيّ، المُستَدرك على الصّحيحَين، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩٣، حديث رقم ٧١١.

٣ – سجود الشّمس:

أشار الله تعالى إلى سجود كلّ المخلوقات له، ومن هذه المخلوقات الشّمس، وذلك بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّماواتِ ومَنْ في الأرْضِ والشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجومُ والجِبالُ والشَّجَرُ والدَّوابُّ وكَثيرٌ مِنَ النّاسِ، وكَثيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذابُ، ومَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ، إنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾[٤٠٤].

وإضافة إلى هذه الآية، فقد ورد ذِكر سجود الشّمس أيضاً في عدد من الأحاديث الشّريفة، ومن هذه الأحاديث أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: (تغيب الشّمس تحت العرش، فيُؤذَن لها فتَرجِع، فإذا كانت تلك اللّيلة التي تَطْلُعُ صبيحَتَها من المغرب، لم يُؤذَن لها، فإذا أصبحَت قيل لها: اطْلَعي من مكانِك، ثمّ قرأ: ﴿هَلْ يَنْظُرونَ إلاّ أنْ تَأْتِيَهُمُ المَلائِكَةُ أو يَأْتِيَ رَبُّكَ أو يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾[٤٠٥])[٤٠٦].

وقال صلّى الله عليه وسلّم في حديث آخر: (أتَدرون أين تذهب هذه الشّمس؟). قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (إنّ هذه تجري حتّى تنتهي إلى مُسْتَقَرِّها تحت العرش، فتَخِرُّ ساجدة، فلا تزال كذلك حتّى يُقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فتَرجِع، فتُصبح طالعةً من مَطْلَعِها، ثمّ تجري حتّى تنتهي إلى مستقرِّها تحت العرش، فتَخِرُّ ساجدة، فلا تزال كذلك حتّى يُقال: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فتَرجِع، فتُصبح طالعةَ من مَطْلَعِها، ثمّ تجري لا يَستنكرُ النّاس منها شيئاً، حتّى تنتهي إلى مستقرِّها ذاك تحت العرش، فيُقال لها: ارجعي، ارتفعي، أصبِحي طالعةً من مغربك، فتُصبِح طالعةً من مغربِها). فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (أتَدرون متى ذاكُم؟ ذاكَ حين ﴿لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أوْ كَسَبَتْ في إيمانِها خَيْراً﴾ [٤٠٧])[٤٠٨].

وورد عن محمّد بن جعفر، عن عوف، قال: سمعت أبا العاليةَ الرّياحيّ يقول: "ما في السّماء نجمٌ ولا شمسٌ ولا قمرٌ إلاّ يقع لله ساجداً حين يغيب، ثمّ لا ينصرف حتّى يُؤذَن له، فيَأْخُذُ ذات اليمين، وزاد محمّد: حتَى يرجع إلى مَطْلَعِه"[٤٠٩].

---

[٤٠٤] سورة الحجّ، الآية ١٨.

[٤٠٥] سورة الأنعام، الآية ١٥٨.

[٤٠٦] أحمد بن حَنْبَل، مُسنَد أحمد بن حَنْبَل، المرجع السابق، ج ٣٥، ص ٢٢٥، حديث رقم ٢١٣٠٠.

[٤٠٧] سورة الأنعام، الآية ١٥٨.

[٤٠٨] مسلم بن الحجّاج، صحيح مسلم، المرجع السابق، ج ١، ص ١٣٨، حديث رقم ١٥٩.

[٤٠٩] الطّبَريّ، تفسير الطّبَريّ، تحقيق د. عبد الله بن عبد المُحْسِن التُّركيّ بالتّعاون مع مركز البحوث والدّراسات الإسلاميّة بدار هَجَر، دار هَجَر، ط ١، المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤٢٢ هـ. – ٢٠٠١ م.، ج ١٦، ص ٤٨٧ – ٤٨٨.

وقد اكتشف العلماء أنّ الكون يَتَّسِعُ الآن[٤١٠]، وسيظلّ يَتَّسِعُ إلى أن يأتي زمن يتوقّف فيه عن الاتِّساع ويبدأ في الانكماش تدريجيّاً، حينئذٍ تنعكس حركات كل الكواكب والنّجوم فتُشرق الشّمس من المغرب، وتغرُب في الشّرق. ويَحدُث ذلك قُبيل انفجار الكون وقيام السّاعة، وهذا هو معنى قوله صلّى الله عليه وسلّم: (فتُصبح طالعةً من مغربِها)، ثمّ قال: (أتَدرون متى ذاكم؟). قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (ذاك حين ﴿لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أوْ كَسَبَتْ في إيمانِها خَيْراً﴾[٤١١])[٤١٢] [٤١٣].

وورد أيضاً عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال لأبي ذَرٍّ رضي الله عنه حين غَرَبَتِ الشّمس: (أتدري أين تذهب؟). قلت: الله ورسوله أعلم. قال: (فإنّها تذهب حتّى تسجد تحت العرش، فتَستأذِن فيُؤْذَنُ لها، ويوشِك أن تسجد فلا يُقْبَلُ منها، وتَستأذِن فلا يُؤْذَنُ لها، يُقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتَطلُع من مغرِبِها، وذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿والشَّمْسُ تَجْري لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذَلِكَ تَقْديرُ العَزيزِ العَليمِ﴾[٤١٤])[٤١٥] [٤١٦].

---

[٤١٠] قال الله تعالى: ﴿والسَّماءَ بَنَيْناها بِأيْدٍ وإنّا لَموسِعونَ﴾، سورة الذّاريات، الآية ٤٧.

[٤١١] سورة الأنعام، الآية ١٥٨.

[٤١٢] مسلم بن الحجّاج، صحيح مسلم، ج ١، ص ١٣٨، حديث رقم ١٥٩.

[٤١٣] علي علي صبح، التّصوير القرآنيّ للقيم الخُلُقيّة والتّشريعيّة، المكتبة الأزهريّة للتُّراث، ط ١، القاهرة – مصر، ل. ت.، ص ١٥٣.

[٤١٤] سورة يس، الآية ٣٨ .

[٤١٥] يُستَخرج من هذه الأحاديث الشّريفة فوائد عدّة، ومنها الفائدتان التّاليتان:

الفائدة الأولى هي في قوله عليه الصّلاة والسّلام: (فإنّها تذهب حتّى تسجد تحت العرش) عند البخاريّ وغيره. ولم يقل عليه الصّلاة والسّلام أنّها "تغرب تحت العرش"، أو "حتّى تغرب تحت العرش"، وهذا فَهْمٌ تَوَهَّمَهُ بعض النّاس الذين أشْكَلَ عليهم هذا الحديث، وهو فَهْمٌ مردودٌ لأنّ ألفاظ الحديث تَرُدُّه. فقوله: (تذهب)، دلالةٌ على الجَرَيانِ لا دلالةً على مكان الغروب، لأنّ الشّمس لا تغرب في موقع حِسِّيٍّ مُعيَّن وإنّما تغرب في جهة مُعيّنة، وهي ما اصطلح عليه النّاس باسم الغرب، والغروب في اللّغة: التّواري والذّهاب، كما ذكره ابن مَنظور وغيره. يقال: غَرَبَ الشّيء، أي تَوارى وذَهب. وتقول العرب: أغْرَبَ فلان، أي أبْعَدَ وذهب بعيداً عن المقصود.

أمّا الفائدة الثّانية فهي في قوله صلّى الله عليه وسلّم: (فتُصبح طالعةً من مَطْلَعِها، ثمّ تجري لا يَستنكر النّاس منها شيئاً)، والشّاهد منه قوله صلّى الله عليه وسلّم: (لا يَستنكر النّاس منها شيئاً)، وكأنّ في هذا دلالةً ضِمنيّةً بأنّ هناك من النّاس، ممّن يَبْلُغُهُ هذا الحديث، مَن قد يَسْتَشْكِلُهُ فيَتَوَهَّمُ أنّ الشّمس تقف، أو تتباطأ للسّجود فيُنكر النّاس ذلك ويَرهَبونَه. إلاّ أنّه صلّى الله عليه وسلّم أشار في الحديث إلى جَرَيانِ الشّمس على عادتها مع أنّها تسجد، ولكنّه سجود غيرَ سجود الآدَمِيّين، ولذلك تُصبح طالعةً من مَطْلَعِها تجري لا يَستنكر النّاس منها شيئاً.

ولمزيد من التّفصيل انظر د. عبد الرحيم خير الله الشريف، شبهة سجود الشمس تحت العرش،

وقال أهل التّفسير وأصحاب المعاني في ذلك قولَين: قال بعضهم: معناه أنّ الشّمس تجري لُمستَقَرٍّ لها، أي: لأجَلٍ أُجِّلَ لها، وقَدَرٍ قُدِّرَ لها، يعني انقطاع مدّة بقاء العالم. وقال بعضهم: مُستَقَرُّها غايةُ ما تنتهي إليه في صعودها وارتفاعها لأطول يوم في أيّام الصّيف، ثمّ تأخذ في النّزول حتّى تنتهي إلى أقصى مَشارِق الشّتاء لأقصر يوم في السّنة.

وأمّا قوله (مُستَقَرُّها تحت العرش) فلا يُنكَر أن يكون لها استقرار ما تحت العرش من حيث لا نُدركه ولا نُشاهده، وإنّما أخْبَرَ عن غيبٍ فلا نُكَذِّبُ به ولا نُكَيِّفُه، لأنّ عِلْمَنا لا يُحيط به[٤١٧].

وقال ابن العربيّ المالكيّ: "أنْكَرَ قومٌ سجود الشّمس، وهو صحيح ممكن". أي أنّ سجود الشّمس صحيحٌ لذِكْرِ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم له، وهو ممكن عقلاً في عالم الغيب.

ويُنْكِرُ ذلك مَن يرتابُ في صِدق النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فأمّا مَن لا يشكّ في صِدقه، ويعتقد أنّه مُبَلِّغٌ عن رَبِّهِ كما أخبَر الله عنه في قوله: ﴿وما يَنْطِقُ عن الهَوى * إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يوحى﴾[٤١٨]، فلا يُنكِر ذلك ولا يَرتاب فيه.

فإن قيل: إنّ الشّمس لا تزال طالعةً على الأرض، ولكنّها تَطْلُعُ على جهةٍ منها، وتغرُب عن الجهة الأخرى، فأين يكون مُستَقَرُّها الذي إذا انتهت إليه سجدت واستأذَنَت في الرّجوع من المشرِق؟!

فالجواب أن يقال: حَسْبُ المسلم أن يُؤْمِنَ بما جاء في الأحاديث الصّحيحة عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ويعتقد أنّه هو الحقّ، ولا يتكلّف ما لا عِلم له به من تعيين الموضع الذي تسجد فيه الشّمس، بل يَكِلُ عِلم ذلك إلى الله تعالى[٤١٩]. وقد جُعِلَ الموضعُ الذي ينتهي إليه سَيْرُها هو المُعَبَّرُ عنه بـــ "تَحْتَ العرش"، وهو سَمْتٌ[٤٢٠] مُعَيَّنٌ لا قِبَلَ للنّاس بمعرفته، وهو منتهى مسافة سَيْرِها اليوميّ[٤٢١]. وجُعِلَ سجود الشّمس تمثيلاً

في ١٢ / ١٢ / ٢٠١٦ م..

[٤١٦] البخاريّ، صحيح البخاريّ، المرجع السابق، ج ٤، ص ١٠٧، حديث رقم ٣١٩٩.

[٤١٧] البَيْهَقِيّ، الأسماء والصّفات، تحقيق عبد الله بن محمّد الحاشِدِيّ، مكتبة السّوادِيّ، ط ١، جدّة – المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤١٣ هـــ. – ١٩٩٣ م.، ج ٢، ص ٢٧٥، رقم ٨٣٧.

[٤١٨] سورة النّجم، الآيتان ٣ – ٤.

[٤١٩] حمّود بن عبد الله التُّوَيْجِرِيّ، إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط السّاعة، دار الصُّمَيْعِيّ، ط ٢، الرّياض – المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤١٤ هـــ. – ١٩٩٤ م.، ج ٣، ص ١٩٩.

ولمزيد من التّفصيل انظر المرجع نفسه، ص ٢٠٠ – ٢٠٢.

[٤٢٠] السّمت: الطّريق الواضح، الهيئة.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٣٢٠.

لتَسَخُّرِها لتَسخير الله إيّاها كما جُعِلَ القول تمثيلاً له[٤٢٢] في آية: ﴿ثُمَّ استَوى إلى السَّماءِ وهي دُخَانٌ فَقالَ لَها ولِلأرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أوْ كَرْهاً قالَتا أتَيْنا طائِعينَ﴾[٤٢٣] [٤٢٤].

آراء لبعض العلماء حول سجود الشّمس:

قال الإمام النّوويّ: "وأمّا سجود الشّمس فهو بتمييزٍ وإدراكٍ يَخْلُقُهُ اللهُ تعالى".

وقال الإمام ابن كثير: "يسجد لعَظَمَتِهِ تعالى كلّ شيءٍ طَوْعاً وكَرْهاً، وسجود كلّ شيء ممّا يَخْتَصُّ به".

وقال الحافظ ابن حَجَرَ العَسْقَلانِيّ: "وظاهِر الحديث أنّ المُراد بالاستقرار وقوعُه في كلّ يوم وليلة عند سجودها، ومقابل الاستقرار المسير الدّائم المُعَبَّرُ عنه بالجري، والله أعلم"[٤٢٥].

وقال الشّيخ محمّد متولّي الشّعراويّ: "البعض يقول عن سجود هذه المخلوقات أنّه سجود دلالة، لا سجوداً على حقيقته، لكنّ هذا القول يُعارِضُهُ قولُ الله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبيحَهُ﴾[٤٢٦].

فلكلّ مخلوق، مهما صَغُر، صلاةٌ وتسبيحٌ وسجودٌ يتناسَب وطبيعتَه، إنّك لو تأمَّلت سجود الإنسان بجبهته على الأرض لوجدتَ اختلافاً بين النّاس باختلاف الأحوال، وهم نوع واحد، فسجود الصّحيح غير سجود المريض الذي يسجد وهو على الفراش، أو جالس على مقعد، وربما يشير بعينه، أو أُصْبُعِهِ للدّلالة على السّجود، فإن لم يستطع أجرى السّجود على خاطره[٤٢٧].

فإذا كان السّجود يختلف بهذه الصّورة في الجنس الواحد حَسْبَ حالته وقُدْرَتِهِ وطاقته، فلماذا نستبعد أن يكون لكلّ جنس سجوده الخاصّ به، والذي يتناسب مع طبيعته؟

وإذا كان هذا حال السّجود في الإنسان، فهل ننتظر مثلاً أن نرى سجود الشّمس أو سجود القمر؟! ما دام الحقّ سبحانه وتعالى قال إنّها تسجد، فلا بُدَّ أن نؤمِن بسجودها، لكن على هيئةٍ لا يَعلَمُها إلاّ خالِقُها عَزَّ وَجَلّ.

---

[٤٢١] ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، المرجع السابق، ج ٢٣، ص ٢٠.

[٤٢٢] تمثيلاً له: تمثيلاً لتَسَخُّرِها.

[٤٢٣] سورة فُصِّلَت، الآية ١١.

[٤٢٤] ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، المرجع السابق، ج ٢٣، ص ٢١.

[٤٢٥] عبد الله بن سليمان العُفَيْلِيّ، أشراط السّاعة، وزارة الشّؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، ط١، المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.، ص ١٤٥.

[٤٢٦] سورة النّور، الآية ٤١.

[٤٢٧] محمّد مُتَوَلّي الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ، المرجع السابق، ج ١٦، ص ٩٧٥١.

بالله، لو جلس مريض يصلّي على مقعد أو على الفراش، أتعرف وهو أمامك أنّه يسجد؟ إذن: كيف نطمع في معرفة كيفيّة سجود هذه المخلوقات؟"[٤٢٨].

ب- سجود إكرامٍ بمعنى التّحيّة:

تَعارَف النّاس على أنّ معنى السّجود هو السّجود طاعة لله، ولكنّ هناك نوعاً آخر من السّجود يتمّ بين البشر، بعضُهم لبعض، وتَعارَف النّاس على أنّ معنى هذا السّجودِ هو الإكرامُ بمعنى التّحيّة. وقد أشار أحد الشّعراء إلى هذا النّوع من السّجود بقوله:

وبَنَيْتُ عَرْصَةَ[٤٢٩] مَنْزِلٍ برَباوَةٍ بينَ النّخيلِ إلى بَقيعِ الغَرْقَدِ[٤٣٠]

قد كانَ ذو القَرْنَيْنِ جَدِّيَ مُسْلِماً مَلِكاً تَدينُ له الملوكُ وتَسْجُدُ[٤٣١]

أراد: تُحيّيه. وذلك أنّهم كانوا، في ذلك الزّمان، إذا أراد الرّجل منهم أن يُحيِّيَ أخاهُ ويُعظِّمَهُ سَجَدَ له. فكان السّجود لهم، في ذلك الزّمان، بمنزلة المصافحة لنا اليوم.

وقد جاء في القرآن الكريم ذِكْرُ حالتَين من هذا النّوع من السّجود، وهما:

١ – سجود الملائكة لآدمَ عليه السّلام.

٢ – سجود والدا وإخوة يوسف عليه السّلام له.

١ – سجود الملائكة لآدم عليه السّلام:

أخبَر الله تعالى الملائكة بأنّه سيَخلُق خَلْقاً جديداً، وأمرَهم بالسّجود له عند خَلْقِه، وقد ذَكَرَ الله تعالى هذا الأمر في مواضع عدّة من القرآن الكريم، ومن ذلك قوله: ﴿وإذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنّي جاعِلٌ في الأرْضِ خَليفَةً، قالوا أتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ[٤٣٢] ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ، قالَ إنّي

---

[٤٢٨] محمّد مُتَوَلّي الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ، المرجع نفسه، ج ١٦، ص ٩٧٥٢.

[٤٢٩] العَرْصَة: كلّ بقعة بين الدّور واسعة ليس فيها بناء.

مختار الصِّحاح، المرجع السّابق، ص ٢٠٥.

[٤٣٠] بَقيع الغَرْقَد: مقبرة في المدينة المنوَّرة منذ عهد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وحتّى اليوم. والغَرْقَد: شجر شوكيّ.

[٤٣١] أبو بكر الأنْباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس، تحقيق، د. حاتم صالح الضّامن، مؤسّسة الرّسالة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٢ هـ. - ١٩٩٢ م.، ج ١، ص ٤٧.

[٤٣٢] قال تعالى: ﴿قالوا أتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ﴾، "قيل: رأتِ الملائكة وعَلِمَتْ ما كان من إفساد الجِنِّ وسفكهم الدّماء. وذلك لأنّ الأرض كان فيها الجِنُّ قبل خَلْقِ آدمَ فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم "إبليس" في جُنْدٍ من الملائكة فقتلهم وألحَقَهم بالبحار ورؤوس الجبال، فمِن حينئذٍ دخلَته العزّة. فجاء قولهم: ﴿أتَجْعَلُ فيها﴾ على جهة الاستفهام

أعْلَمُ ما لا تَعْلَمونَ * وعَلَّمَ آدَمَ الأسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلى المَلائِكَةِ فَقالَ أنبِؤوني بأسْماءِ هَؤلاءِ إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ * قالوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلاّ ما عَلَّمْتَنا، إنَّكَ أنتَ العَليمُ الحَكيمُ * قالَ يا آدَمُ أنْبِئْهُمْ بأسْمائِهِمْ، فَلَمّا أنْبَأهُمْ بِأسْمائِهِمْ قالَ ألَمْ أقُلْ لَكُمْ إنّي أعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ والأرْضِ وأعْلَمُ ما تُبْدونَ وما كُنتُمْ تَكْتُمونَ* وإذْ قُلْنا لِلمَلائِكَةِ اسْجُدوا لآدَمَ فَسَجَدوا إلاّ إبْليسَ أبى واسْتَكْبَرَ وكانَ مِنَ الكافِرينَ﴾[٤٣٣]، وقوله: ﴿فَإذا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فيهِ مِنْ روحي فَقَعوا لَهُ ساجِدينَ﴾[٤٣٤].

وكان من أسباب أمْرِ الله تعالى الملائكة بالسّجود لآدم عليه السّلام السّبَبان التّاليان:

١ – أمرَهم بالسّجود لآدم عليه السّلام، سجودَ خضوعٍ لا سجودَ عبادة، اعترافاً بفضل آدم عليه السّلام [٤٣٥] عليهم من عدّة نواحٍ، ومن هذه النّواحي ما يلي:

أ – طبيعةُ خَلْقِه، فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ في أحْسَنِ تَقْويمٍ﴾ [٤٣٦].

ب – كونُهُ خليفةً في الأرض، فقد قال تعالى: ﴿إنّي جاعِلٌ في الأرْضِ خَليفَةً﴾[٤٣٧].

المحض: هل هذا الخليفة على طريقة مَن تَقَدَّمَ من الجِنِّ أم لا؟ ... وقال قتادة: كان اللهُ أعلَمَهم أنّه إذا جعل في الأرض خَلْقاً أفسدوا وسفكوا الدماء، فسألوا حين قال تعالى: ﴿إنّي جاعِلٌ في الأرْضِ خَليفةً﴾ أهُوَ الذي أعلَمَهم أم غيره".

محمّد كْرَيِّمْ راجح، مختصر تفسير القرطبيّ، المرجع السابق، ج ١، ص ٥٢.

[٤٣٣] سورة البقرة، الآيات ٣٠ – ٣٤.

[٤٣٤] سورة الحِجْر، الآية ٢٩، وسورة ص، الآية ٧٢.

[٤٣٥] إنّ كَوْنَ آدمَ عليه الصّلاة والسّلام مسجوداً للملائكة لا يوجب أن يكونَ أفضلَ من محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم، بدليل قوله صلّى الله عليه وسلّم: (آدَمُ ومَن دونَهُ تحت لوائي يوم القيامة). وقوله: (كنتُ نَبيّاً وآدمُ بين الماء والطّين). ورُوِيَ أنّ جبريلَ عليه الصّلاة والسّلام أخذَ بِركابِ [#] محمّد صلّى الله عليه وسلّم ليلة المِعراج، وهذا أعظمُ من السّجود. وقال تعالى: ﴿إنَّ اللهَ ومَلائِكَتَهُ يُصَلّونَ على النَّبيِّ﴾، سورة الأحزاب، الآية ٥٦، فصلّى الله سبحانه وتعالى بنفسه على محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وأمَرَ الملائكةَ والمؤمنينَ بالصّلاة عليه، وذلك أفضل من سجود الملائكة. وأيضاً، فإنّ سجود الملائكة لآدمَ كان تأديباً، وأمَرَهُم بالصّلاة على محمّد صلّى الله عليه وسلّم تقريباً. وأيضاً فالصّلاة على محمّد صلّى الله عليه وسلّم دائمةٌ إلى يوم القيامة، وسجود الملائكة لآدمَ عليه السّلام لم يكن إلاّ مرّة واحدة. وأيضاً فإنّ الملائكة إنّما أُمِروا بالسّجود لآدمَ لأجل أنّ نورَ محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم في جبهة آدم.

ولمزيد من التّفصيل انظر عمر بن عليّ بن عادل الحَنْبَلِيّ الدّمَشْقِيّ، اللُّباب في علوم الكتاب، تحقيق الشّيخ عادل أحمد عبد الموجود والشّيخ عليّ محمّد معوّض، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٩ هـ. – ١٩٩٨ م.، ج ٤، ص ٣٠٢.

[#] الرِّكاب: ما يضع فيه راكب الدّابّة رِجْلَه. أخذَ بِركاب: أمسكَ بالرِّكاب، أو: تَبِعَ الرّاكب، مشى في رِكابِه. والدّابّة هنا هي "البُراق" الذي عرج به الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من "القُدس" إلى السّماء.

[٤٣٦] سورة التّين، الآية ٤.

[٤٣٧] سورة البقرة، الآية ٣٠.

ج – تسخير الله تعالى بعض مخلوقاته له، فقد قال تعالى: ﴿وسَخَّرَ لَكُمْ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ جَميعاً مِنْهُ، إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرونَ﴾[٤٣٨].

٢ – أمرَهم بالسّجود لآدم عليه السّلام اعتذاراً عمّا قالوه في شأنه، من قولهم: ﴿أتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ﴾[٤٣٩] [٤٤٠].

وورد عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿اسْجُدوا لآدَمَ﴾، قال: كانت السّجدة لآدمَ والطّاعة لله، أمرَهم أن يسجُدوا فسجَدوا له كرامةً من الله أكرَم بها آدم[٤٤١].

وعن عمر بن عبد العزيز قال: لّما أمَر الله الملائكة بالسّجود لآدمَ كان أوَّلُ مَن سجد إسرافيل، فأثابَه الله أنْ كتبَ القرآن في جبهته.

وورد عن قَتادَةَ في قوله تعالى: ﴿وإذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدوا لآدَمَ﴾، قال: كانت السّجدة لآدَمَ والطّاعة لله. وحَسَدَ عدوُّ الله إبليسُ آدَمَ على ما أعطاه الله من الكرامة فقال: "أنا نارِيٌّ وهذا طِينِيّ"، فكان بدءُ الذّنوب الكِبْر، استَكبَر عدوُّ الله أن يَسجُد لآدم[٤٤٢].

وقال أبو إسحق: "السّجود عبادةٌ لله لا عبادةٌ لآدم لأنّ الله، عزّ وجلّ، إنّما خَلَقَ ما يَعْقِلُ لعبادته"[٤٤٣].

ولا خلاف بين أحد من أهل الإسلام في أنّ سجودَهم لله تعالى سجودَ عبادة، ولآدَمَ سجودَ تحيّة وإكرام، ومَن قال إنّ الملائكةَ عَبَدَتْ آدمَ كما عَبَدَتِ الله عزّ وجلّ فقد أشْرَك[٤٤٤].

٢– سجود والدا وإخوة يوسف عليه السّلام له:

ذَكَرَ الله تعالى في القرآن الكريم قصّة نبيّه يوسف عليه السّلام التي تضمَّنَت سجود والدا وإخوة يوسف عليه السّلام له بعد أن رَفَعَهُ الله تعالى على عرش مصر، وقد ذَكَرَ الله هذا السّجود بقوله: ﴿فَلَمّا دَخَلوا على يوسُفَ آوى إلَيْهِ أبَوَيْهِ وقالَ ادْخُلوا مِصْرَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنينَ * ورَفَعَ أبَوَيْهِ على العَرْشِ وخَرّوا لَهُ

---

[٤٣٨] سورة الجاثِيَة، الآية ١٣.

[٤٣٩] سورة البقرة، الآية ٣٠.

[٤٤٠] أحمد بن مصطفى المراغيّ، تفسير المراغيّ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ، ط ١، القاهرة – مصر، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م.، ج ١، ص ٨٥، بتصرّف.

[٤٤١] السّيوطيّ، الدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، ط ١، بيروت – لبنان، ل. ت.، ج ١، ص ١٢٣.

[٤٤٢] السّيوطيّ، الدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور، المرجع السابق، ج ١، ص ١٢٨.

[٤٤٣] ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٠٤.

[٤٤٤] ابن حَزم الأندلسيّ، الفَصْلُ في المِلَلِ والأهواء والنِّحَل، مكتبة الخانجيّ، ط ١، القاهرة – م صر، ل. ت.، ج ٢، ص ١٢٩.

سُجَّداً﴾[٤٤٥]. وقال ابن كثير في تفسيره: "وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم، إذا سَلَّموا على الكبير يَسجُدونَ له. ولم يزل هذا جائزاً من لَدُنْ آدمَ إلى شريعة عيسى عليه السّلام، فحُرِّمَ هذا في هذه المِلَّة وجُعِلَ السّجود مُختصّاً بجَناب الرَّبِّ سبحانه وتعالى"[٤٤٦].

وقوله تعالى: ﴿وخَرّوا لَهُ سُجَّداً﴾[٤٤٧]، فيه ثلاثة أقوال:

١ – أن تكون الهاء تعود على الله تعالى. فهذا القول لا نَظَرَ فيه، لأنّ المعنى: خَرَوا للهِ سُجَّداً.

٢ – أنّ الهاء تعود على يوسف، ومعنى السّجود التّحيّة، كأنّه قال: وخَرّوا ليوسف سُجَّداً سجود تحيّة لا سجود عبادة. وقال أبو بكر: سمعتُ أبا العبّاس يُؤَيِّدُ هذا القولَ ويختارُه[٤٤٨]، وقال الأخفش: معنى الخرور في هذه الآية، المرور لا السقوط والوقوع[٤٤٩].

٣ – أنّ هذا سجودُ إعظامٍ لا سجود عبادة، لأنّ بني يعقوب لم يكونوا يَسجُدونَ لغير الله عزّ وجلّ. وقال الزَّجّاج: إنّه كان من سُنَّةِ التّعظيم في ذلك الوقت أن يُسْجَدَ للمُعَظَّم. وقيل: ﴿وخَرّوا لَهُ سُجَّداً﴾، أي خرّوا للهِ سُجّداً، وقال الأزهريّ: هذا قول الحَسن.

والأشْبَهُ بظاهِرِ الكتاب [القرآن الكريم] أنّهم سَجدوا ليوسف، دلّ عليه رُؤْياهُ الأولى التي رآها حين قال: ﴿إنّي رَأَيْتُ أحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشَّمْسَ والقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لي ساجِدينَ﴾[٤٥٠]، فظاهِرُ التّلاوة أنّهم سَجدوا ليوسفَ تعظيماً له من غير أن يُشرِكوا بالله شيئاً، وكأنّهم لم يكونوا نُهوا عن السّجود لغير الله عزّ وجلّ، فلا يجوز لأحد أن يَسجُد لغير الله. وفيه وجهٌ آخرُ لأهل العربيّة[٤٥١]، وهو أن يَجعلَ اللاّمَ في قوله: ﴿وخَرّوا لَهُ سُجَّداً﴾، وفي قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لي ساجِدينَ﴾، لامَ مِنْ أجْلِ. والمعنى: وخَرّوا من أجْلِهِ سُجَّداً للهِ شُكراً لِما أنْعَمَ اللهُ به عليهم، حيث جَمَعَ شَمْلَهُم، وتابَ عليهم، وغَفَرَ ذنبَهم، وأعَزَّ جانِبَهُم، ووَسَّعَ بيوسفَ عليه السّلام[٤٥٢].

---

[٤٤٥] سورة يوسف، الآيتان: ٩٩ – ١٠٠.

[٤٤٦] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمّد سلامة، دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م.، ج ٤، ص ٤١٢.

[٤٤٧] سورة يوسف، الآية ١٠٠.

[٤٤٨] أبو بكر الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس، المرجع السابق، ج ١، ص ٤٨.

[٤٤٩] ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٠٦.

[٤٥٠] سورة يوسف، الآية ٤.

[٤٥١] أهل العربيّة: علماء اللّغة العربيّة.

[٤٥٢] ابن مَنظور، لسان العرب، المرجع نفسه، ج ٣، ص ٢٠٤.

وورد سجود الإكرام ليوسفَ عليه السّلام في "التّوراة" أيضاً، وذلك عندما قال لإخوته: "اسمَعوا هذا الحُلْمَ الذي حَلِمْت. فها نحن حازمون حُزَماً في الحقل، وإذا حُزْمَتي قامَت وانْتَصَبَت، فاحْتاطَتْ حُزَمُكُمْ[٤٥٣] وسَجَدَتْ لحُزْمَتي. فقال له إخوَته: أَلَعَلَّكَ تُمَلَّكُ علينا مَلِكاً أم تَتَسَلَّطُ علينا تَسَلُّطاً؟ وازدادوا أيضاً بُغضاً له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه. ثمّ حَلِمَ أيضاً حُلْماً آخَرَ وقَصَّهُ على إخوَته، فقال: إنّي قد حَلِمْتُ حُلْماً أيضاً، وإذا الشّمس والقمر وأحَدَ عَشَرَ كوكباً ساجدةٌ لي. وقَصَّهُ على أبيه وعلى إخوَته، فانْتَهَرَهُ أبوه وقال له: ما هذا الحُلْمُ الذي حَلِمْت؟ هل نأتي أنا وأُمُّكَ وإخوَتكَ لنَسْجُدَ لكَ إلى الأرض؟!!!"[٤٥٤].

وقيل: إنّ إخوَة يوسفَ قد سَجدوا له عندما جاءوا يَطلُبونَ الطّعام منه أوّل مرة، "فأجابوا: (عَبْدُكَ أبونا بِخَيْرٍ، وهو ما زالَ حَيّاً)، وانْحَنوا وسَجدوا"[٤٥٥].

سجود شجرٍ وحَجَرٍ إكراماً للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم:

عن أبي موسى الأشْعَريّ رضي الله عنه قال: "خرج أبو طالب إلى الشّام وخرج معه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في أشياخٍ من قُرَيْش، فلمّا أشرَفوا على الرّاهب هبطوا فحَلّوا رِحالَهُم، فخرج إليهم الرّاهب، وكانوا قبل ذلك يَمرّونَ به فلا يَخرُج إليهم ولا يَلتفِت". قال: "فهُمْ يُحِلّونَ رِحالَهُم، فجعل يَتَخَلَّلُهُمُ الرّاهب حتّى جاء فأخذ بيد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: هذا سيِّد العالَمين، هذا رسول ربِّ العالَمين، يَبْعَثُهُ اللهُ رحمةً للعالَمين". فقال له أشياخٌ من قريش: ما عِلْمُك؟ فقال: إنّكم حين أشْرَفْتُمْ من العَقَبَةِ لم يَبْقَ شجرٌ ولا حَجَرٌ إلاّ خَرَّ ساجداً، ولا يَسجُدانِ إلاّ لنَبِيّ، وإنّي أعْرِفُهُ بخاتَمِ النُّبُوَّةِ أسفل من غُضروف كتفه مثل التّفاحة. ثمّ رجع فصنع لهم طعاماً، فلمّا أتاهُم به، وكان هو في رِعْيَةِ الإبل، قال: أرسِلوا إليه، فأقبَلَ وعليه غَمامَةٌ تُظِلُّه. فلمّا دنا من القوم وجَدَهم قد سبقوه إلى فَيْءِ الشّجرة، فلمّا جلس مالَ فَيْءُ الشّجرة عليه، فقال: انظروا إلى فَيْءِ الشّجرة مالَ عليه. قال: فبينما هو قائم عليهم وهو يُناشِدهم أن لا يذهبوا به إلى الرّوم، فإنّ الرّوم إن رأوه عرَفوه بالصِّفة فيَقتُلونه، فالتفتَ فإذا بسبعة قد أقبلوا من الرّوم فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا، إنّ هذا النَّبيَّ خارجٌ في هذا الشّهر، فلم يَبْقَ طريقٌ إلاّ بُعِثُ إليه بأُناس، وإنّا قد أُخْبِرْنا خَبَرَهُ فبُعِثْنا إلى طريقكَ هذا. فقال: هل خَلْفَكُمْ أحدٌ هو خيرٌ منكم؟ قالوا: إنّما أُخْبِرْنا خَبَرَهُ بطريقكَ هذا. قال: أفرَأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من

---

[٤٥٣] فاحْتاطَتْ حُزَمُكُم: أحاطَتْ حُزَمُكُمْ بحُزْمَتي.

[٤٥٤] الكتاب المقدّس [العهد القديم، التّوراة] سِفْرُ التّكوين، الإصحاح ٣٧، الأعداد ٦ – ١٠.

[٤٥٥] الكتاب المقدّس، سِفْرُ التّكوين، الإصحاح ٤٣، العدد ٢٨.

النّاس رَدَّه؟ قالوا: لا. قال: فبايَعوه وأقاموا معه. قال: أُنْشِدُكُمْ بالله أيُّكُمْ وَلِيُّه؟ قالوا: أبو طالب. فلَمْ يَزَلْ يُناشِدُهُ حتّى رَدَّهُ أبو طالب، وبعث معه أبو بكرٍ بِلالاً، وزَوَّدَهُ الرّاهب من الكعك والزّيت"[٤٥٦].

تحريم سجود الإكرام عند المسلمين:

حرّم الإسلام السّجود لغير الله تعالى، وقد وردت في السّيرة النّبويّة الشّريفة والحديث الشّريف أدلّة عديدة على هذا التّحريم، ومن هذه الأدلّة:

١ – لَقِيَ سلمان رضي الله عنه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في بعض طُرُقِ المدينة، وكان سلمانُ حديثَ عهدٍ بالإسلام، فسجد للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال: (لا تسجد لي يا سلمان، واسْجُدْ للحَيِّ الذي لا يموت)[٤٥٧].

٢ – عن أنَس بن مالِك قال: دخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حائطاً[٤٥٨] للأنصار ومعه أبو بكر وعمر ورجل من الأنصار، وفي الحائط غَنَمٌ فسجدَت له. فقال أبو بكر: يا رسول الله، نحن أحقُّ بالسّجود لكَ من هذه الغَنَم. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (لا ينبغي لأحَدٍ أن يَسْجُدَ لأحَد)[٤٥٩].

٣ – قال بُرَيْدَة: "سأل أعرابيّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آية[٤٦٠]، فقال: قُلْ لتلك الشّجرة رسولُ الله يدعوك. قال: ففعل. فمالَتِ الشّجرة عن يمينها وشِمالها وبين يديها وخلفها ثمّ جاءت تَخُدُّ[٤٦١] الأرض حتّى وَقَفَتْ بين يَدَيْ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت: السّلام عليكَ يا رسولَ الله. فقال الأعرابيّ: مُرْها فَلْتَرْجِعْ إلى مَوْضِعِها. فأمَرَها فرَجَعت حتّى اسْتَوَتْ بمكانها كما كانت. فقال الأعرابيّ: مُرْني أن أسْجُدَ لك. فأبى عليه السّلام. فقال: ائْذَنْ لي في تقبيل يَدِيكَ ورِجْلَيْك. فأذِنَ له صلّى الله عليه وسلّم"[٤٦٢].

---

[٤٥٦] التِّرْمِذِيّ، سُنن التِّرْمِذِيّ، المرجع السابق، ج ٥، ص ٥٩٠ – ٥٩١، حديث رقم ٣٦٢٠.

[٤٥٧] ابن كثير، مُعجزات النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم (من كتاب البداية والنّهاية لابن كثير)، السَّيِّد إبراهيم أمين محمّد، المكتبة التّوفيقيّة، القاهرة – مصر، ل. ت.، ص ١٥٧.

[٤٥٨] الحائط: البُسْتان.

[٤٥٩] ابن كثير، مُعجزات النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم (من كتاب البداية والنّهاية لابن كثير)، المرجع السابق، ص ١٥٧.

[٤٦٠] آية: دليلاً على نُبُوَّته.

[٤٦١] تَخُدُّ الأرض: تَحْفِرُها، تَشُقُّها.

[٤٦٢] صالح بن الحُسين الجعفريّ أبو البقاء الهاشميّ، تخجيل مَن حَرَّفَ التّوراة والإنجيل، تحقيق محمود عبد الرّحمن قَدَح، مكتبة العُبَيْكان، ط ١، الرّياض – المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤١٩ هـ. – ١٩٩٨ م.، ج ٢، ص ٧٤٩.

٤ – ورد عن عائشة رضي الله عنها، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان في نَفَرٍ من المهاجرين والأنصار، فجاء بعيرٌ فسجد له، فقال أصحابه: "يا رسول الله! تَسْجُدُ لكَ البهائم والشّجر، فنحن أحقُّ أن نَسْجُدَ لك". فقال: (اعْبُدوا رَبَّكُمْ وأكْرِموا أخاكم، ولو كنتُ آمِراً أحداً أن يَسْجُدَ لأحدٍ لأمَرْتُ المرأة أن تَسْجُدَ لزوجها، ولو أمَرَها أن تنتقل من جبلٍ أصفرَ إلى جبل أسود، ومن جبلٍ أسودَ إلى جبلٍ أبيض، كان ينبغي لها أن تَفْعَلَه)[٤٦٣].

٥ – لّما قدِم معاذ من الشّام سجد للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: (ما هذا يا معاذ؟). قال: أتيتُ الشّام فوافَقْتُهُم[٤٦٤] يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فودَدْتُ في نفسي أن نفعل ذلك بك. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (فلا تفعلوا، فإنّي لو كنتُ آمِراً أحداً أن يسجد لغير الله، لأمَرتُ المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمّدٍ بيده، لا تؤدّي المرأة حقّ ربها حتّى تؤدّي حقّ زوجها، ولو سألها نفسها[٤٦٥] وهي على قَتَبٍ[٤٦٦] لم تمنعه)[٤٦٧].

٦ – روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قصّة وفد قريش إلى النّجاشِيِّ ملِك الحبشة، وممّا جاء فيها: "قال جعفر بن أبي طالب: أنا خطيبُكم اليوم. فاتَّبَعوه، فسَلَّمَ ولم يسجد، فقالوا: له ما لكَ لا تسجد للملِك؟ قال: إنّا لا نسجد إلاّ لله عزّ وجلّ. قال: وما ذاك؟ قال: إنّ اللهَ بعث إلينا رسولَه فأمَرَنا أن لا نسجدَ لأحد إلاّ لله عزّ وجلّ، وأمَرَنا بالصّلاة والزّكاة ..."[٤٦٨].

ج – سجودٌ مَنْهِيٌّ عنه، وهو سجودٌ تَعَبُّدِيٌّ لغيرِ الله:

سجد ويسجد بعض البشر، من مختلف الشّعوب وعلى مرّ التّاريخ، سجوداً تَعَبُّدِيّاً لغير الله، ومن ذلك سجودهم للأشخاص والحيوانات والأوثان والأشجار والصُّوَر وما شابه[٤٦٩]. وفي هذا السّجود المَنْهِيِّ عنه،

---

[٤٦٣] أحمد بن حَنْبَل، مُسنَد أحمد بن حَنْبَل، المرجع السابق، ج ٤١، ص ١٩، حديث رقم ٢٤٤٧٢.

[٤٦٤] فوافَقْتُهُم: فوَجَدْتُهُم.

[٤٦٥] سألها نفسها: طلبَها للجماع.

[٤٦٦] القَتَب: هو ما يوضع على ظهر البعير ليُركَب عليه.

[٤٦٧] ابن ماجة، سنن ابن ماجة، المرجع السابق، ج ١، ص ٥٩٥، حديث رقم ١٨٥٣.

[٤٦٨] أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المرجع السابق، ج ٧، ص ٤٠٨، حديث رقم ٤٤٠٠.

[٤٦٩] قال الحَسن في الرَّجل يقال له: اسْجُدْ لصنمٍ وإلاّ قتلناك، قال: إن كان الصّنم مقابل القِبلة فليَسجد ويجعل نِيَّتَهُ لله، فإن كان إلى غير القِبلة فلا وإن قتلوه. قال ابن حبيب: وهذا قول حسن.

عبد الحقّ بن غالب الأندلسيّ المُحارِبيّ، المُحَرَّرُ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السّلام عبد الشّافي محمّد، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٢٢ هـ. – ٢٠٠٢ م.، ص ٤٢٠.

والذي لا شكّ في تحريمه في الإسلام، تسويةٌ بين الله تعالى وعبيدِه، وليس وراء هذا في القُبح والظُّلم شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٤٧٠] [٤٧١].

ونظراً لعدم إمكانيّة حصر المسجود لهم لدى كلّ الشّعوب وعلى مرّ التّاريخ، فسيتمّ فيما يلي عرضّ لبعض أنواع المسجود لهم:

١ – الشّمس والقمر: قال تعالى: ﴿لا تسجدوا للشّمس ولا للقمر﴾[٤٧٢].

٢ – القبور: يسجد بعض النّاس لقبور الأنبياء، ولقبور الصّالحين بنظرِهم، وقد نهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن هذا السّجود بقوله: (لعنَ الله اليهود والنصارى اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد)[٤٧٣].

٣ – الصُّوَر والأيْقونات[٤٧٤]: عظَّم قسم من النّصارى الصُّوَر والأيْقونات، وصولاً إلى سجود بعضهم لها[٤٧٥].

---

[٤٧٠] سورة لقمان، الآية ١٣.

[٤٧١] عبد العزيز بن حَمَد بن ناصر بن عثمان آل مُعَمَّر، مِنحة القريب المُجيب في الرَّدِّ على عُبّادِ الصّليب، دار ثَقيف، ط ١، الطّائف – المملكة العربيّة السّعوديّة، ل. ت.، ج ٢، ص ٦٤٣، بتصرّف.

[٤٧٢] سورة فُصِّلَت، الآية ٣٧.

[٤٧٣] البخاريّ، صحيح البخاريّ، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٠٢، حديث رقم ١٣٩٠.

[٤٧٤] الأيقونة: صورة، أو تمثال مُصغَّر، لشخصيّة دينيّة يُقصد بها التَّبرُّك.

[٤٧٥] إنّ الكنيسة، أوَّلَ أمْرِها، تَكْرَهُ الصُّور والتّماثيل وتَعُدُّها بقايا من الوثنيّة. وتنظر بعين المَقْتِ إلى فنّ النّحت الوثنيّ الذي يَهدي إلى تمثيل الآلهة. ولكن انتصار المسيحيّة في عهد قُسْطَنْطين، وما كان للبيئة والتّقاليد والتّماثيل اليونانيّة من أثر في القُسْطَنْطينيّة والشّرق الهِلْنِسْتِيّ، كلّ هذا قد خفَّف من حدّة مقاومة هذه الأفكار الوثنيّة. ولمّا أن تضاعف عدد القدّيسين المَعبودين نشأتِ الحاجة إلى معرفتهم وتَذَكُّرِهِم، فظَهر لهم ولمريم العذراء كثيرٌ من الصُّور. وحَوَّلَ الشّعب المسيحيّ الآثار والصُّور والتّماثيل المقدَّسة إلى معبوداتٍ يسجدون لها، ويُقَبِّلونَها، ويَطلبون المعجزات بتأثيرِها الخَفِيّ". وعندما تَوَلّى الإمبراطور ليو الثّالث (٧١٣ – ٧٤١ م.) عرش الإمبراطوريّة، وكان متأثِّراً بالمسلمين في تحريمهم التّماثيل والصُّور، فإنّه عَقَدَ مجلساً من الأساقفة وأعضاء مجلس الشّيوخ وأذاع، بموافقتهم، في عام ٧٢٦ م. مرسوماً يقضي فيه تحريم عبادة الأيقونات وإزالتَها من الكنائس والأديرة. وسانَده في هذا المرسوم المثقّفون من النّصارى، ولكن عارَضه المؤيِّدون لعبادة الأيقونات، وهم الرّهبان والأساقِفة، وقاموا، بمساندة الشّعب، بثوراتهم ضدّه. وخلفه ابنه قُسْطَنْطينُ الخامس (٧٤١ – ٧٧٥ م.) الذي عَقَدَ مَجمْعَاً بالقُسْطَنْطينيّة سنة ٧٥٤ م. للتّأكيد على تحريم عبادة الأيْقونات. كما سار على نهجه ابنه ليو الرّابع (٧٧٥ – ٧٨٠ م.). وبعد موته انتقلت السّلطة إلى أرملته "إيريني" الوَصِيَّةُ على ابنها الصّغير قسطنطين السّادس، وقد كانت من أشدّ أنصار عبادة الصُّور والتّماثيل، فألْغَت تنفيذ المرسوم السّابق وعيَّنت طرسيوس، وهو من أنصار عبادة الأيقونة، في منصب بَطْرِيَرْكِ القسطنطينيّة. ثمّ سَعَتْ إلى عَقْدِ المَجْمَعِ المَسْكونِيِّ السّابع في نيقيَة سنة ٧٨٧ م. الذي أقَرَّ تعظيم الصُّور والتّماثيل المقدَّسة لا عبادتها، وبأنّه تعبيرٌ مشروعٌ عن التُّقى والإيمان النّصرانيّ.

٤ – التّحيّة: يسجد بعضُ النّاس لبعضٍ آخرَ من باب التّحيّة لهم، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: أصل السّجود الانحناء لَمن تُعَظِّمَه، فكلٌّ مُنْحَنٍ لشيءٍ تعظيماً له فهو ساجدٌ له[٤٧٦].

وقفة مع آياتِ السّجود في القرآن الكريم:

تَعَدَّدَت الآياتُ التي تناوَلَت موضوع السّجود لله تعالى في القرآن الكريم، ومن هذه الآياتِ آياتٌ يُسَنُّ السّجود عند تلاوتها، وهذه الآياتُ هي حسب ترتيبها في كتاب الله تعالى:

١ – ﴿إنَّ الَّذينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبادَتِهِ ويُسَبِّحونَهُ ولَهُ يَسْجُدونَ﴾[٤٧٧].

٢ – ﴿ولِلّهِ يَسْجُدُ مَنْ في السَّماواتِ والأرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وظِلالُهُمْ بالغُدُوِّ والآصالِ﴾[٤٧٨].

٣ – ﴿ولِلّهِ يَسْجُدُ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ من دابَّةٍ والمَلائِكَةُ وهُمْ لا يَسْتَكْبِرونَ﴾[٤٧٩].

٤ – ﴿قُلْ آمِنوا بِهِ أوْ لا تُؤْمِنوا، إنَّ الَّذينَ أوتوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرّونَ لِلْأذْقانِ سُجَّداً * ويَقولونَ سُبْحانَ رَبِّنا إنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفعولاً * ويَخِرّونَ لِلْأذْقانِ يَبْكونَ ويَزيدَهُمْ خُشوعاً﴾[٤٨٠].

٥ – ﴿أولَئِكَ الَّذينَ أنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ومِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نوحٍ ومِنْ ذُرِّيَّةِ إبْراهيمَ وإسْرائيلَ ومِمَّنْ هَدَيْنا واجْتَبَيْنا، إذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمَنِ خَرّوا سُجَّداً وبُكِيّاً﴾[٤٨١].

٦ – ﴿ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّماواتِ ومَنْ في الأرْضِ والشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجومُ والجِبالُ والشَّجَرُ والدَّوابُّ وكَثيرٌ مِنَ النّاسِ، وكَثيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذابُ، ومَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ، إنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾[٤٨٢].

وبذلك انتصر المؤيِّدون لمذهب الصُّور وعبادتِها، لكنّ الصّراع لا زال دائراً حيث أيَّدَت طائفةُ البْروتِسْتانْت القولَ بتحريم الصُّور والتّماثيل وإزالتَها من الكنائس.

لمزيد من التفصيل انظر وِلْ ڈيورانْت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة محمّد بدران، دار الجيل، بيروت – لبنان / جامعة الدول العربية – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- ألسكو، تونس – تونس، ١٤٠٨ هـ. – ١٩٨٨م.، ج ١٤، ص ١٥٧ – ١٦١.

[٤٧٦] الطّبريّ، تفسير الطّبريّ، المرجع السابق، ج ١، ص ٧١٤.

[٤٧٧] سورة الأعراف، الآية ٢٠٦.

[٤٧٨] سورة الرّعد، الآية ١٥.

[٤٧٩] سورة النّحل، الآية ٤٩.

[٤٨٠] سورة الإسراء، الآيات ١٠٧ – ١٠٩.

[٤٨١] سورة مريم، الآية ٥٨.

[٤٨٢] سورة الحجّ، الآية ١٨.

٧ – ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا ارْكَعوا واسْجُدوا واعْبُدوا رَبَّكُمْ وافْعَلوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ﴾[٤٨٣].

٨ – ﴿وإذا قيلَ لَهُمُ اسْجُدوا لِلرَّحْمَنِ قالوا وما الرَّحْمَنُ أنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وزادَهُمْ نُفوراً﴾[٤٨٤].

٩ – ﴿ألاّ يَسْجُدوا للهِ الَّذي يُخْرِجُ الخَبْءَ في السَّماواتِ والأرْضِ ويَعْلَمُ ما تُخْفونَ وما تُعْلِنونَ * اللهُ لا إلهَ إلاّ هوَ رَبُّ العَرْشِ العَظيمِ﴾[٤٨٥].

١٠ – ﴿إنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنا الَّذينَ إذا ذُكِّروا بِها خَرّوا سُجَّداً وسَبَّحوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وهُمْ لا يَسْتَكْبِرونَ﴾[٤٨٦].

١١ – ﴿قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعاجِهِ، وإنَّ كَثيراً مِنَ الخُلَطاءِ لَيَبْغي بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ إلاّ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالِحاتِ وقَليلٌ ما هُمْ، وظَنَّ داودُ أنَّما فَتَنّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وخَرَّ راكِعاً وأنابَ﴾[٤٨٧].

١٢ – ﴿ومِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ والنَّهارُ والشَّمْسُ والقَمَرُ، لا تَسْجُدوا للشَّمْسِ ولا للقَمَرِ واسْجُدوا للهِ الَّذي خَلَقَهُنَّ إنْ كُنْتُمْ إيّاهُ تَعْبُدونَ * فَإنِ اسْتَكْبَروا فَالَّذينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحونَ لَهُ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ وهُمْ لا يَسْأمونَ﴾[٤٨٨].

١٣ – ﴿أفَمِنْ هَذا الحَديثِ تَعْجَبونَ * وتَضْحَكونَ ولا تَبْكونَ * وأنْتُمْ سامِدونَ * فَاسْجُدوا للهِ واعْبُدوا﴾[٤٨٩].

١٤ – ﴿فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنونَ * وإذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ القُرْآنُ لا يَسْجُدونَ﴾[٤٩٠].

١٥ – ﴿كَلاّ لا تُطِعْهُ واسْجُدْ واقْتَرِبْ﴾[٤٩١] [٤٩٢].

وقد عرَضَت آيات السّجود هذه لكيفيّة تَعامُل النّاس مع أمْرِ الله تعالى لهم بالسّجود له، حيث اختلف أسلوب التّعامل بين مُؤْمِنٍ وكافِر، وفما يلي بعض جوانب هذا التّعامل لكلٍّ من المؤمِنين والكافِرين:

---

[٤٨٣] سورة الحجّ، الآية ٧٧.

[٤٨٤] سورة الفُرْقان، الآية ٦٠.

[٤٨٥] سورة النّمل، الآيتان ٢٥ – ٢٦.

[٤٨٦] سورة السّجدة، الآية ١٥.

[٤٨٧] سورة ص، الآية ٢٤.

[٤٨٨] سورة فُصِّلَت، الآيتان ٣٧ – ٣٨.

[٤٨٩] سورة النّجم، الآيات ٥٩ – ٦٢.

[٤٩٠] سورة الانْشِقاق، الآيتان ٢٠ – ٢١.

[٤٩١] سورة العَلَق، الآية ١٩.

[٤٩٢] محمّد كامل طبّارة، آيُ سجود التّلاوة، ط ٣، بيروت – لبنان، ١٤٠١ هـ. – ١٩٨١ م.، ص ٢٢ – ٢٦.

١ – المؤمنون:

أ – لا يَستكبِرونَ عن عبادة الله تعالى، ﴿لا يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبادَتِهِ﴾.

ب – يُسبِّحونَ اللهَ تعالى، ﴿ويُسَبِّحونَهُ﴾.

ج – يَسجُدونَ للهِ تعالى طَوْعاً، ﴿ولله يَسْجُدُ مَنْ في السَّماواتِ والأرْضِ طَوْعاً﴾.

د – إذا سمعوا كلام الله تعالى خرّوا له ساجدينَ خاشِعينَ مُسَبِّحينَ باكين، ﴿إذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرّونَ لِلْأذقانِ سُجَّداً * ويَقولونَ سُبْحانَ رَبِّنا إنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفعولاً * ويَخِرّونَ لِلْأذْقانِ يَبْكونَ ويَزيدَهُمْ خُشوعاً﴾.

هـ – إذا أذْنَبوا سجدوا لله تعالى طلباً للمغفرة، ﴿وظَنَّ داودُ أنَّما فَتَنّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وخَرَّ راكِعاً وأنابَ﴾.

٢ – الكافرون:

أ – يَستكبِرونَ عن عبادة الله تعالى، ﴿وإذا قيلَ لَهُمُ اسْجُدوا لِلرَّحْمَنِ قالوا وما الرَّحْمَنُ أنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وزادَهُمْ نُفوراً﴾.

ب – لا يُسبِّحونَ الله تعالى.

ج – لا يَسجُدون لله تعالى، ﴿فما لَهُمْ لا يُؤْمِنونَ * وإذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ القُرْآنُ لا يَسْجُدونَ﴾، ويَسجُدون أحياناً كَرْهاً، خَوفاً أو نِفاقاً، ﴿ولله يَسْجُدُ مَنْ في السَّماواتِ والأرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً﴾.

وقد جعل الله تعالى الرّكوع والسّجود له وعبادته وفِعل الخير في مرتبة واحدة حين قال: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا ارْكَعوا واسْجُدوا واعْبُدوا رَبَّكُمْ وافْعَلوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفلِحونَ﴾[٤٩٣].

وفي هذا دليل على أنّ الرّكوع والسّجود والعبادة كلُّها بمعنى الصّلاة، لأنّ الصّلاة تشتمل على هذه الأفعال جميعها، ولكن فَرَّقها، الله تعالى، في الذِّكْر مراعاةً لقلب المؤمِن من الخوف عند الأمر بالصّلاة، فقسَّمَها ليكون مع كلّ لفظةٍ ومعنىً نوعٌ من التّخفيف والتّرفيه، ولقلوب أهل المعرفة في كلّ لفظةٍ راحةٌ جديدة[٤٩٤].

---

[٤٩٣] سورة الحجّ، الآية ٧٧.

[٤٩٤] القُشَيْرِيّ، لطائف الإشارات، المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٦٣، بتصرّف.

وقد أقْبَلَ الحقُّ سبحانه، بلطفه وبفضله، على أقوامٍ، فلذلك وَجَدوه، وأعْرَضَ عن آخرين، بتَكَبُّرِهِ وتَعَزُّزِه، فلذلك جَحَدوه، فَطَرَهُم على سِمَةِ البُعد، وعَجَنَ طينتهم بماء الشّقاوة والصَّدّ، فلمّا أظْهَرَهُمْ ألْبَسَهُمْ صَدارَ[٤٩٥] الجَهْلِ والجَحْد.

وقد وصف الله تعالى فِعْلَ هؤلاء بقوله: ﴿وإذا قيلَ لَهُمْ اسْجُدوا لِلرَّحْمَنِ قالوا وما الرَّحْمَنُ أنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وزادَهُمْ نُفوراً﴾[٤٩٦]، وقارَن فِعْلَهُمْ هذا بإيمان الهُدْهُدِ الذي استنكَر تصرّفهم بقوله: ﴿ألاّ يَسْجُدوا الَّذي يُخْرِجُ الخَبْءَ في السَّماواتِ والأرْضِ ويَعْلَمُ ما تُخْفونَ وما تُعْلِنونَ * اللهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظيمِ﴾[٤٩٧]. فإذا عَرَفَ الهُدْهُدُ أنّ الله تعالى يُخرِج الخَبْء، أليس الأجدر بالعبد أن يُثْني على رَبِّه؟

فثناء العبد على ربِّه في رُكْنِ الصّلاة هو أن يَحْنِيَ له صُلْبَه، ويَضَعَ له قامَتَه، ويُكَبِّرَهُ مُعَظِّماً له، ناطِقاً بتَسبيحِه المقترِن بعَظَمَتِه، فيَجمَع بين خضوع القلب وخضوع الجَوارِح، فاجتَمَع له خضوع القلب وخضوع الجَوارِح وخضوع القول على أتَمِّ الأحوال، ويجتمع له في هذا الرُّكن، من الخضوع والتّواضع والتّعظيم والذِّكر، ما يُفَرِّقُ به بين الخضوع لرَبِّهِ والخضوع للعبيد بعضِهم لبعض.

فإنّ الخضوعَ وصفُ العبد، والعَظَمَةُ وصفُ الرَّبّ، وتَمام عبوديّة الرّكوع أن يَتَصاغَرَ الرّاكِع ويَتَضائَلَ لرَبِّه، بحيث يمحو تَصاغُرُهُ لرَبِّهِ من قلبه كلّ تَعظيمٍ فيه لنَفْسِه ولخَلْقِه[٤٩٨]، ويُثْبِتَ مكانه تَعظيمَه رَبَّهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له[٤٩٩].

وكان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يُعطي في سجوده كلَّ عضوٍ من أعضائه حَظَّهُ من العبوديّة، فيَضع ناصِيَتَهُ بالأرض بين يَدَيْ رَبِّه، ويَضع أشرفَ ما فيه بين يَدَيْ سَيِّدِه، راغِماً أنفَه، خاضِعاً له قلبُه وجَوارِحُه، مُتَذَلِّلاً لعَظَمَةِ رَبِّه، مُنيباً إليه، مُستكيناً بين يديه، أذَلَّ شيءٍ وأكْسَرَ لرَبِّه تعالى، مُسَبِّحاً له بعُلُوِّهِ[٥٠٠] في أعْظَمِ سُفولِه[٥٠١] ذُلاً وخضوعاً وانكِساراً، قد صارت أعالِيَهُ سافِلَه[٥٠٢].

---

[٤٩٥] الصَّدار: القميص.

[٤٩٦] سورة الفرقان، الآية ٦٠.

[٤٩٧] سورة النّمل، الآيتان ٢٥ - ٢٦.

[٤٩٨] لخَلْقِه: لخَلْقِ ربِّه.

[٤٩٩] ابن قَيِّم الجَوْزِيّة، بين ذَوْقِ السّماعِ وذَوْقِ الصّلاة والقرآن، تحقيق مجدي فتحي السَّيِّد، دار الصّحابة للتّراث، طنطا — مصر، ط ١، ١٤١٠ هـ. - ١٩٩٠ م.، ص ٤٣.

[٥٠٠] بعُلُوِّه: بعُلُوِّ مكانته.

[٥٠١] سُفولِه: سجوده.

وكان حال قلبه في ذلك حال جسده، فسجد القلب لرَبِّهِ كما سجد الجسد بين يَدَيِ الله، وقد سجد معه أنفه ووجهه، ويداه ورُكبتاه ورِجلاه، فهذا العبدُ هو القريبُ المُقَرَّب، فهو أقربُ ما يكون من رَبِّه وهو ساجد.

وشُرِعَ له أن يُقِلَّ فَخِذَيْهِ عن ساقَيْه، وبَطْنَهُ عن فَخِذَيْه، وعُضْوَيْهِ[٥٠٣] عن جَنْبَيْه، ليأخُذَ كلٌّ جزءٍ منه حَظَّهُ من الخضوع لا يَحْمِلُ بعضُه بعضاً.

فأحرى في هذه الحال أن يكون أقربَ إلى رَبِّهِ منه في غيرها من الأحوال كلِّها[٥٠٤]، كما قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (أقْرَبُ ما يكونُ العبدُ من رَبِّهِ وهو ساجِد)[٥٠٥].

فضل السّجود:

يُعَدُّ السّجود أشرَفَ أفعالِ الصّلاة، وأشرفُ أذكارِها القراءة، وأوَّلُ سورة أُنْزِلَتْ على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم سورة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[٥٠٦]، افْتُتِحَتْ بالقراءة وخُتِمَتْ بالسّجود ﴿واسْجُدْ واقْتَرِبْ﴾[٥٠٧]، فوُضِعَتِ الرّكعة في الصّلاة على ذلك، أوَّلُها قِراءة وآخِرُها سُجود[٥٠٨]، عِلماً أنّ الصّلاة بُنِيَتْ على خَمْس: القِيام، والقِراءة، والرّكوع، والسّجود، والذِّكْر.

وسُمِّيَتِ الصّلاة باسم كلّ واحد من هذه الخَمْس، فسُمِّيَت "قِياماً" لقوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إلاّ قليلاً﴾[٥٠٩]، وقوله تعالى: ﴿وقوموا للهِ قانتينَ﴾[٥١٠]. وسُمِّيَت "قراءةً" لقوله تعالى: ﴿فَاقْرَأوا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾[٥١١]، أي فاقْرَأوا في الصّلاة ما تَيَسَّرَ من القرآن. وسُمِّيَت "ركوعاً" لقوله تعالى: ﴿وارْكَعوا مَعَ الرّاكِعينَ﴾[٥١٢]،

---

[٥٠٢] صارت أعالِيَهُ سافِلَه: صار أعلى شيء فيه، وهو رأسه الذي يرفعه عزّة أمام النّاس، ملتصِقاً بالأرض مع أسفل شيء منه، وهو القدمين، دليلاً على الذُّلّ.

[٥٠٣] العُضوان المقصودان هنا هما: اليدان.

[٥٠٤] ابن قَيِّم الجَوْزِيّة، بين ذَوْقِ السّماعِ وذَوْقِ الصّلاة والقرآن، المرجع السابق، ص ٤٤.

[٥٠٥] مسلم بن الحجّاج، صحيح مسلم، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٥٠، حديث رقم ٤٨٢.

[٥٠٦] سورة العَلَق، الآية ١.

[٥٠٧] سورة العَلَق، الآية ١٩.

[٥٠٨] لمزيد من التّفصيل انظر ابن قَيِّم الجَوْزِيّة، بين ذَوْقِ السّماعِ وذَوْقِ الصّلاة والقرآن، المرجع السابق، ص ٤٦.

[٥٠٩] سورة المُزَّمِل، الآية ٢.

[٥١٠] سورة البقرة، الآية ٢٣٨.

[٥١١] سورة المُزَّمِل، الآية ٢٠.

[٥١٢] سورة البقرة، الآية ٤٣.

وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لَهُمُ ارْكَعوا لا يَرْكَعونَ﴾[٥١٣]. وسُمِّيَت "سُجوداً" لقوله تعالى: ﴿فسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وكُنْ مِنَ السّاجِدينَ﴾[٥١٤]، وقوله تعالى: ﴿واسْجُدْ واقْتَرِبْ﴾[٥١٥]. وسُمِّيَت "ذِكْراً" لقوله تعالى: ﴿فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ وذَروا البَيْعَ﴾[٥١٦]، وقوله تعالى: ﴿لا تُلْهِكُمْ أمْوالُكُمْ ولا أوْلادُكُمْ عن ذِكْرِ اللهِ﴾[٥١٧][٥١٨].

وسرّ الصّلاة وروحُها ولُبُّها، هو إقبالُ العبدِ على الله بكُلِّيَّتِهِ فيها، فكما أنّه لا ينبغي له أن يصرِف وجهه عن القِبلة إلى غيرها فيها، فكذلك لا ينبغي له أن يصرِف وجهه عن ربِّه إلى غيره فيها، بل يجعل الكعبة، التي هي بيتُ الله، قِبلة وجهه وبدنه، وربَّ البيت تعالى قِبلة قلبه وروحه، وعلى حَسْبِ إقبالِ العبدِ على اللهِ في صَلاتِه يكون إقبالُ اللهِ عليه، وإذا أعْرَضَ أعْرَضَ اللهُ عنه، وكما تَدينُ تُدان[٥١٩].

والإقبال في الصّلاة على ثلاثة منازل:

الأوّل: إقبالُ العبد على قلبه، فيَحْفَظَهُ ويُصْلِحَهُ من أمراض الشّهوات والوَساوِس والخَطَرات المُبْطِلَةِ لثواب صلاتِه، أو المُنْقِصَةِ لها.

الثّاني: إقبالُه على الله بمراقبته فيها، حتّى يَعْبُدَهُ كأنّه يَراه.

الثّالث: إقبالُه على معاني كلام الله، وتفاصيله، وعبوديّة الصّلاة ليعطيها حَقَّها من الخشوع والطُّمَأْنينَة وغير ذلك.

فباستكمال هذه المراتب الثّلاثة يكون قد أقام الصّلاة حَقّاً، ويكون إقبالُ الله على المصلّي بحسب ذلك[٥٢٠].

وينبغي للمصلّي أن يهتمّ بإحضار قلبه في الصّلاة، قال الله تعالى: ﴿وأقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْري﴾[٥٢١]، فإذا لم يَحْضُرْ قلب المصلّي في صلاتِه كان من الغافلين، والغَفْلَةُ تُنافي الذِّكر، فمَن غَفَلَ في صَلاتِه كيف يكون

---

[٥١٣] سورة المُرْسَلات، الآية ٤٨.

[٥١٤] سورة الحِجر، ٩٨.

[٥١٥] سورة العَلَق، الآية ١٩.

[٥١٦] سورة الجُمعة، الآية ٩.

[٥١٧] سورة المُنافِقون، الآية ٩.

[٥١٨] ابن قَيِّمِ الجَوْزِيّة، بين ذَوْقِ السّماعِ وذَوْقِ الصّلاة والقرآن، المرجع السابق، ص ٤٥ – ٤٦.

[٥١٩] ابن قَيِّمِ الجَوْزِيّة، بين ذَوْقِ السّماعِ وذَوْقِ الصّلاة والقرآن، المرجع نفسه، ص ٥٣.

[٥٢٠] لمزيد من التّفصيل انظر ابن قَيِّمِ الجَوْزِيّة، بين ذَوْقِ السّماعِ وذَوْقِ الصّلاة والقرآن، المرجع السابق، ص ٥٣ – ٥٥.

[٥٢١] سورة طه، الآية ١٤.

مُقيماً للصّلاة لذِكر الله عزّ وجلّ؟[٥٢٢] وعن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: (لا يَقْبَلُ اللهُ من عبدٍ عملاً حتّى يَشْهَدَ قلبُه مع بَدَنِه)[٥٢٣].

الخشوع في الصّلاة:

وصف الله تعالى المُؤْمِنين، الذين سَجَّلَ لهم الفلاحَ المُحَقَّق، بأوصاف عدّة أوردَها في القرآن الكريم، ولكنّ أوَّلَ وَصْفٍ وَصَفَهُمْ به هو أنّهم في صَلاتِهم خاشِعون، وذلك بقوله: ﴿قَدْ أفْلَحَ المُؤْمِنونَ * الَّذينَ هُمْ في صَلاتِهِمْ خاشِعونَ﴾[٥٢٤]، فأكْرِمْ به من وَصْفٍ شريفٍ ومَقامٍ مُنيف.

والخشوع هو: التَّذَلُّلُ لله تعالى، مع خشيةٍ منه. وهو يَتَطَلَّبُ السّكون والإطْراق.

وعن أبي البُسْرِ رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: (منكم مَن يُصَلّي الصّلاة كاملة، ومنكم مَن يُصَلّي النِّصف، والثُّلث، والرُّبع، حتّى بَلَغَ العُشر)[٥٢٥].

وعن أبي الدّرداء رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: (أوَّلُ شيءٍ يُرْفَعُ من هذه الأُمَّةِ الخُشوع، حتّى لا تَرى فيها خاشِعاً)[٥٢٦].

سجود يوم القيامة:

ذكَر الله تعالى في القرآن الكريم أنّ بعض النّاس سَيُدْعَوْنَ إلى السّجود يوم القيامة، فيَسجُد بعضهم ويُمنَع البعض الآخَر، وذلك بقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ ويُدْعَوْنَ إلى السُّجودِ فلا يَسْتَطيعونَ * خاشِعَةً أبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ، وقَدْ كانوا يُدْعَوْنَ إلى السُّجودِ وهُمْ سالِمونَ﴾[٥٢٧]، ويومُ الكشفِ عن السّاقِ هو يوم القيامة.

---

[٥٢٢] لمزيد من التّفصيل انظر عبد الله سراج الدّين الحسينيّ، الصّلاة في الإسلام، مكتبة دار الفلاح، ط ٥، حلب – سورية، ١٤٢٧ هـ. – ٢٠٠٦ م.، ص ٦٠ – ٦١.

[٥٢٣] المُنذريّ، التّرغيب والتّرهيب من الحديث الشّريف، تحقيق إبراهيم شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٧ هـ. – ١٩٩٦ م.، ج ١، ص ٢٠٣، حديث رقم ٧٦٩.

[٥٢٤] سورة المُؤْمِنون، الآيتان ١ – ٢.

[٥٢٥] أحمد بن حَنْبَل، مُسنَد أحمد بن حنبل، المرجع السابق، ج ٢٤، ص ٢٨٠، حديث رقم ١٥٥٢٢.

[٥٢٦] الطّبرانيّ، مُسنَد الشّامِيّين، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السَّلَفِيّ، مؤسّسة الرّسالة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٠٥ هـ. – ١٩٨٤ م.، ج ٢، ص ٤٠٠، حديث رقم ١٥٧٩.

[٥٢٧] سورة القلم، الآية ٤٢ – ٤٣.

وسيتمّ فيما يلي عرضٌ لبعض أسباب السّماح بالسّجود يوم القيامة والمنع منه، وذلك في النّقطتَين التّاليَتَين:

١ – سجود النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

٢ – سجود المؤمنين والمنافقين.

١ – سجود النّبي صلّى الله عليه وسلّم:

عن أنَسٍ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: (يطولُ يوم القيامة على النّاس، فيقول بعضهم لبعض: انطلِقوا بنا إلى آدمَ أبي البشر، فيَشفَع لنا إلى ربِّنا، فليَقْضِ بيننا. فيأتون آدمَ فيقولون: يا آدمُ أنتَ الذي خَلَقَكَ اللهُ بيده وأسْكَنَكَ جَنَّتَه، فاشْفَعْ لنا إلى ربِّك فليَقْضِ بيننا. فيقول: إنّي لستُ هُناكُم، ولكن ائْتوا نوحاً رأسَ النَّبيّين. فيأتونه فيقولون: يا نوحُ اشْفَعْ لنا إلى ربِّك فليَقْضِ بيننا. فيقول: إنّي لستُ هُناكُم، ولكن ائْتوا إبراهيمَ خليلَ الله. فيأتونه فيقولون: يا إبراهيمُ اشْفَعْ لنا إلى ربِّك فليَقْضِ بيننا. فيقول: إنّي لستُ هُناكُم، ولكن ائْتوا موسى الذي اصْطَفاهُ اللهُ برسالته وبكلامِه. قال: فيأتونه فيقولون: يا موسى اشْفَعْ لنا إلى ربِّك فليَقْضِ بيننا. فيقول: إنّي لستُ هُناكُم، ولكن ائْتوا عيسى روحَ اللهِ وكَلِمَتَه. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى اشْفَعْ لنا إلى ربِّك فليَقْضِ بيننا. فيقول: إنّي لستُ هُناكُم، ولكن ائْتوا محمّداً فإنّه خاتَمُ النَّبيّين، فإنّه قد حضر اليومَ وقد غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذنبه وما تأخَّر. فيقول عيسى: أرَأيْتُمْ لو كان مَتاعٌ في وعاءٍ قد خُتِمَ عليه، هل كان يُقْدَرُ على ما في الوعاء حتّى يُفَضَّ الخاتَم؟ فيقولون: لا. قال: فإنّ محمّداً خاتَم النَّبيّين). قال: فقال رسول الله صلَى الله عليه وسلَم: (فيأتوني فيقولون: يا محمّدُ اشْفَعْ لنا إلى ربِّك فليَقْضِ بيننا). قال: (فأقول: نعم، فآتي باب الجنّة، فآخُذُ بحلقة الباب فأسْتَفْتِح. فيُقال: مَن أنت؟ فأقول: محمّد. فيُفتَح لي فأخِرُّ ساجداً، فأحْمَدُ ربّي بمَحامِدَ لم يَحْمَدْهُ بها أحدٌ كان قبلي، ولا يَحْمَدُهُ بها أحدٌ كان بعدي. فيقول: {ارْفَعْ رأسك، وقل يُسْمَعْ منك، وسَلْ تُعْطَه، واشْفَعْ تُشَفَّع}. فأقول: أي رَبِّ، أُمَّتي أُمَّتي. فيقول: {أخرِجْ مَن كان في قلبه مِثْقالُ شَعيرةٍ من إيمان}). قال: (فأُخْرِجُهُمْ ثمّ أخِرُّ ساجداً، فأحْمَدُهُ بمَحامِدَ لم يَحْمَدْهُ بها أحدٌ كان قبلي، ولا يَحْمَدُهُ بها أحدٌ كان بعدي. فيقول لي: {ارْفَعْ رأسك، وسَلْ تُعْطَه، واشْفَعْ تُشَفَّع}. فأقول: (أيْ رَبِّ، أُمَّتي أُمَّتي. فيقول: {أخْرِجْ مَنْ كان في قلبه مِثْقالُ بُرَّةٍ من إيمان}). قال: (فأخْرِجْهُم). قال: (ثمّ أخِرُّ ساجِداً، فأقول مثل ذلك). فيقول: [أخْرِجْ مَن كان في قلبه مِثْقالُ ذَرَّةٍ من إيمان}. قال: (فأُخْرِجْهُم)[٥٢٨].

٢ – سجود المؤمنين والمنافقين:

---

[٥٢٨] أحمد بن حَنْبَل، مُسنَد أحمد بن حنبل، المرجع السابق، ج ٢١، ص ٢١٢ – ٢١٣، حديث رقم ١٣٥٩٠.

يُدعى المؤمنون والمنافقون يوم القيامة إلى السُّجود، فيَسْجُدُ المؤمنون ويَتَعَذَّرُ ذلك على المنافقين، قال تعالى: ﴿ويُدْعَوْنَ إلى السُّجودِ فلا يَسْتَطيعونَ﴾[٥٢٩].

حَدَّثَ عبد الله بن مسعود عند عمر بن الخطّاب فقال: إذا كان يوم القيامة قام النّاس لرَبِّ العالَمين أربعين عاماً شاخِصَةً أبصارهم إلى السّماء، حُفاةً عُراةً يُلْجِمُهُمُ العَرَق، فلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ ولا يَنظُر إليهم أربعين عاماً. ثمّ ينادي مُنادٍ: أيّها النّاس، أليس عَدْلاً من رَبِّكُم، الذي خَلَقَكُمْ وصَوَّرَكُمْ وأماتَكُمْ وأحْياكُمْ ثمّ عَبَدْتُمْ غيرَه، أن يُوَلّي كلّ قومٍ ما تَوَلَّوْا؟ قالوا: نعم. قال: فيُرْفَعُ لكلِّ قومٍ ما كانوا يعبدون من دون الله، فيتْبَعونها حتّى تَقذِفَهم في النّار. فيبقى المسلمون والمنافقون، فيقال لهم: ألا تذهبون، قد ذهب النّاس؟ فيقولون: حتّى يأتينا رَبُّنا. فيقال لهم: أوَتَعْرِفونَه؟ فيقولون: إنِ اعْتَرَفَ لنا عَرَفْناه. قال: فعند ذلك يُكْشَفُ عن ساق، ويَتَجَلّى لهم، فيَخِرُّ مَن كان يَعْبُدُهُ مُخْلِصاً ساجِداً، ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأنّ في ظُهورِهِمُ السَّفافيد، فيُذْهَبُ بهم إلى النّار، ويدخل هؤلاء الجنّة، فذلك قوله تعالى: ﴿ويُدْعَوْنَ إلى السُّجودِ فلا يَستطيعونَ * خاشِعَةً أبْصارُهُمْ﴾[٥٣٠] أي ذليلة متواضعة. ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾[٥٣١]، وذلك أنّ المؤمنين يَرْفَعونَ رؤوسهم ووجوههم أشَدَّ بياضاً من الثّلج، وتَسْوَدُّ وجوه المنافقين والكافرين حتّى تَرْجِعَ أشَدَّ سواداً من القار[٥٣٢].

كيفيّة السّجود في حالات خاصّة:

يتعذَّر على بعض النّاس تأدية السّجود بشكله الصّحيح، أي السّجود على الأرض، وذلك لأسباب مَرَضِيَّة، أو لأسباب أخرى متعدِّدة. وتفصيل كيفيّة السّجود في حالة المرض مذكور بالتّفصيل في كتب الفقه، وخُلاصَتُهُ أنّ المريض يَسجُد بطريقة تُناسِب طبيعة مرضه، سواءً جالساً أو مستلقياً، أمّا بالنّسبة للأسباب الأخرى فسيتمّ فيما يلي عرضُ حالَتَين منها، وهما:

١ – السّجود عند الزُّحام في صلاة الجماعة: إذا وجد المصلّي نفسه غير قادر على السّجود في صلاة الجماعة، في صلاة يوم الجمعة أو في غيرها، بسبب الزُّحام، فلم يَقْدِرْ على السّجود على ما بين يديه، فبإمكانه السّجود على رِجْلِ مَن يُصَلّي بين يديه، أو على ظَهره، ويُجْزِئُه ذلك. وهو قول أبي حنيفة،

---

[٥٢٩] سورة القلم، الآية ٤٢.

[٥٣٠] سورة القلم، الآية ٤٣.

[٥٣١] سورة القلم، الآية ٤٣.

[٥٣٢] القُرْطُبِيّ، تفسير القُرْطُبِيّ، المرجع السابق، ج ١٨، ص ٢٥١.

والشّافعيّ، وأبي سليمان، وغيرهم. وقال مالك: لا يجوز ذلك. وقال الإمام عليّ كَرَّمَ الله وجهَه: "أمَرَنا الله تعالى بالسّجود، و لم يَخُصَّ شيئاً نَسجُد عليه من شيء، ﴿وما كانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾"[٥٣٣] [٥٣٤].

٢ – السّجود في الطائرة: إذا تعذَّر على المصلّي في الطّائرة الاتِّجاه إلى القِبلة، أو تأدية الصّلاة بتمامها، من قيام وركوع وسجود، لضيق المساحة أو لأسباب أخرى، فبإمكانه تأدية الصّلاة وهو جالس في مقعده، حيث تُشابه حاله عندئذٍ حال المريض العاجز عن تأدية الصّلاة بتمامها.

كما تشابه حاله حال المسافر على الرّاحلة [الدّابّة] الذي يتعذّر عليه النّزول عنها للصّلاة لأسباب مختلفة. فقد ورد عن عَمْرِو بن عثمان بن يَعلى بن مُرَّة، عن أبيه، عن جدِّه، "أنّهم كانوا مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فانتهوا إلى مضيق، وحضرت الصّلاة، فمُطِروا، السّماء من فوقهم، والبِلَّةُ من أسفلَ منهم، فأذَّنَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو على راحلته، وأقام، فتقدَّم على راحلته، فصلّى بهم يومئ إيماءً، يجعل السّجود أخفَضَ من الرَكوع". وكذلك رُوي عن أنس بن مالك "أنّه صلّى في ماءٍ وطينٍ على دابّته"، والعمل على هذا عند أهل العلم، وبه يقول أحمد وإسحاق[٥٣٥].

وقد سُئِلَ ابن عُثَيْمينَ عن السُّجود والصّلاة في الطّائرة: ماذا يصنع المرء في الصّلاة في الطّائرة في مثل هذه الحال؟

قال: يتّقي الله ما استطاع، فبالنّسبة إلى القِبلة يمكنه أن يسأل المُضيفين في الطّائرة عن اتّجاه القِبلة، فيتَّجِه حيث وَجَّهوه إليه. وهذا في صلاة الفريضة، أمّا النّافلة فيُصَلّي حيث كان وجهُه كما هو معروف.

وبالنّسبة للقِيام وللرّكوع والسُّجود نقول له: قُم، لأنّ القِيام ممكن والطّائرة في الجو. ونقول له: ارْكَع، لأنّ الرّكوع ممكن، لا سيّما في بعض الطّائرات التي يكون ما بين المقاعد فيها واسعاً. فإن لم يتمكّن من الرّكوع نقول له: تُومِئُ بالرّكوع وأنت قائم. وفي حال السُّجود نقول: اسْجُد، والغالب أن لا يتمكّن إن لم يكن في الطائرة مكان مُعَدٌّ للصّلاة. فإذا لم يتمكّن من السّجود قلنا له: اجْلِسْ بعد أن تقوم من الرّكوع وتأتي بالواجب، اجْلِسْ وأوْمِئْ بالسّجود وأنت جالِس. وأمّا الجلوس بين السّجدَتَين والتَّشَهُّد فأمْرُهُما واضح، وبهذا تنتهي الصّلاة ويكون قد اتّقى اللهَ فيها ما استطاع[٥٣٦].

---

[٥٣٣] سورة مريم، الآية ٦٤.

[٥٣٤] ابن حَزْمٍ الأندلسيّ، المُحَلّى بالآثار، دار الفكر، بيروت – لبنان، ل. ت.، ج ٢، ص ٤٠٣.

[٥٣٥] التِّرْمِذِيّ، سُنن التِّرْمِذِيّ، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٦٦، حديث رقم ٤١١.

[٥٣٦] محمّد بن صالح بن محمّد العُثَيْمين، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشّيخ محمّد بن صالح العُثَيْمين، جَمْع وترتيب فهد بن ناصر بن إبراهيم السّليمان، دار الوطن - دار الثُّرَيّا، ط الأخيرة، ١٤١٣ هـ.، ج ١٥، ص ٢٥١ – ٢٥٢.

الفصل الثّالث

الكون المُسَبِّح

مقدِّمة:

التّسبيح هو تَفَرُّدُ الله سبحانه وتعالى بالأُلوهيَّة[٥٣٧] والرُّبوبيَّة[٥٣٨] والوَحْدانيَّة[٥٣٩] في ذاتِهِ وصِفاتِه وأسمائِه وأفعالِه، وفي طَلاقَةِ قُدْرَتِهِ التي لا تَحُدُّها حدود، وفي جَمْعِهِ لصِفات الكمال المُطْلَق، وتَنَزُّهِهِ عن كلّ نقص وعيب وسوء، وفي حاجة جميع خَلْقِهِ إليه، وغِناهُ عنهم أجمَعين، لأنّه تعالى هو الخالِق، البارِئ، المُصَوِّر، الباقي، الذي لا يَحُدُّهُ المكان، ولا يُحيط به الزّمان، ولا تَصْنَعُهُ المادّة، ولا تُشَكِّلُهُ الطّاقة، وكلّ

---

٥٣٧ الأُلوهيَّة: هي إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، كالدّعاء والخوف والرَّجاء والتَّوكُّل والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذّبح والنّذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي يجب إفراده سبحانه وتعالى بها، فلا يُصرَف منها شيء لغيره، ولو كان مَلَكاً مُقَرَّباً أو نبيّاً مُرْسَلاً، فَضلاً عمَّن سواهما.

٥٣٨ الرُّبوبيَّة: إفراد الله سبحانه وتعالى بأفعاله، أي أن يعتقد المسلم اعتقاداً جازماً بأنّ الله هو وحده الخالِقُ والمالِكُ والرّازِقُ والمُحْيي والمُميتُ والمُدَبِّرُ والمُتَصَرِّفِ في الكون، إلى سائرِ ما يَخْتَصُّ به سبحانه وتعالى من أفعال تتعلّق بربوبيّته.

٥٣٩ الوَحْدانيَّة: هي الصِّفة الإلهيّة الجامعة لكلِّ صِفات الكمال، فهو سبحانه واحدٌ في ذاتِه. وهو سبحانه واحدٌ في صفاتِه، فلا يشاركه أحدٌ في عِلْمِه، ولا في قُدرتِه أو إرادتِه أو حِكْمَتِه، أو أيّ صِفة من صِفاتِه جلّ شأنه. وهو سبحانه واحدٌ في أفعالِه، لا شريكَ له في خَلْقِ الخلائِق، وتدبير أمْرِهِم، وهم جميعاً مِلْكٌ له، ورَهْنُ قَبضتِه، وطَوْعُ مشيئتِه الغالِبة.

ما عداه مخلوق فانٍ، يَحُدُّهُ المكان والزّمان، وتُشَكِّلُهُ المادّة أو الطّاقة، والله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهُوَ السَّميعُ البَصيرُ﴾[٥٤٠] [٥٤١].

التّسبيح لغة:

التّسبيح لغة: تعظيمُ الله وتنزيهه من كلّ سوء[٥٤٢] [٥٤٣]. و"التّسبيحُ" مصدر "سَبَّح"، وهو مأخوذ من مادّة "س ب ح" التي تدور حول معنَيَين: الأوّل: جنس من العبادة، والآخر جنس من السَّعْي[٥٤٤].

و"السِّباحَةُ" بالكسر: العَوْم، وقد "سَبَحَ يَسْبَحُ" بالفتح فيهما. و"السَّبْحُ": الفراغ. و"السَّبْحُ" أيضاً: التَّصرُّف في المعاش. وقيل في قوله تعالى: ﴿سَبْحاً طَويلاً﴾[٥٤٥]، أي فراغاً طويلاً. و"السُّبْحَةُ": خَرَزاتٌ يُسَبَّحُ بها. وهي أيضاً: التَّطَوُّعُ من الذِّكر والصّلاة[٥٤٦]، تقول: منه قَضَيْتُ سُبْحَتي[٥٤٧].

---

[٥٤٠] سورة الشّورى، الآية ١١.

[٥٤١] د. زغلول النَّجّار، صور من تسبيح الكائنات لله، دار نهضة مصر، القاهرة – مصر، ١٤٢٢ هـ. – ٢٠٠١ م.، ص ٥.

[٥٤٢] ابن مَنظور، لسان العرب، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٧٣.

[٥٤٣] قال ابن بَطّال: التّسبيح والتّكبير معناه تعظيمُ اللهِ وتنزيهه من السّوء، واستعمال ذلك عند التَّعَجُّبِ واسْتِعْظامِ الأمر حَسَن، وفيه تمرين اللّسان على ذِكر الله تعالى.

ابن حَجَر العَسْقَلانيّ، فتحُ الباري شرح صحيح البخاريّ، دار المعرفة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٣٧٩هـ.، ج ١٠، ص ٥٩٨.

ومن اسْتِعْظامِ الأمر ما ورد عن أمِّ المؤمنين صَفِيَّةُ بنت حُيَيّ، قالت: "كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم مُعتكِفاً فأتيتُه أزوره ليلاً، فحَدَّثْتُهُ ثمّ قُمْتُ فانَقَلَبْت (#)، فقام معي لِيَقْلِبَني، وكان مَسكَنها في دار أسامة بن زيد. فمرّ رجلان من الأنصار، فلمّا رأيا النّبيّ صلّى الله عليه وسلم أسْرَعا، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (على رِسْلِكُما، إنّها صَفِيَّةُ بنت حُيَيّ). فقالا: سبحان الله يا رسول الله!!! قال: (إنّ الشّيطان يجري من الإنسان مجرى الدّم، وإنّي خَشيتُ أن يَقْذِفَ في قلوبكما سوءاً)، أو قال: (شيئاً)".

البخاريّ، صحيح البخاريّ، تحقيق محمّد زهير بن ناصر النّاصر، ج ٤، ص ١٢٤، حديث رقم ٣٢٨١.

(#) انْقَلَبَت: أرادت العودة إلى مسكنها.

[٥٤٤] عدد من المختصّين بإشراف الشّيخ صالح بن عبد الله بن حُمَيْد، نضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم – صلّى الله عليه وسلّم، دار الوسيلة، ط ٤، جدّة – المملكة العربيّة السّعوديّة، ل. ت.، ج ٣، ص ٩٨٠.

[٥٤٥] سورة المُزَمِّل، الآية ٧.

[٥٤٦] السُّبْحَة: التَّطَوُّعُ من الذِّكر والصّلاة. قال ابن الأثير: وقد يُطلَق التّسبيح على غيره من أنواع الذِّكر مَجازاً، كالتّحميد والتّمجيد وغيرهما. وقال ابن عرفة، المُلَقَّبُ بنَفْطَوَيْه، في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظيمِ﴾، سورة الواقعة، الآية ٧٤، والآية ٩٦، أي سَبِّحْهُ بأسمائِه ونَزِّهْهُ عن التّسمية بغير ما سَمّى به نفسه.

ابن مَنظور، لسان العرب، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٧٤.

[٥٤٧] مختار الصِّحاح، المرجع السّابق، ص ١٤٠.

التّسبيح اصطلاحاً:

"التّسبيح" اصطلاحاً: تنزيهُ اللهِ تعالى عن كلّ ما لا يَليق بجلالِه وكمالِه[٥٤٨].

و"التّسبيح": التّنزيه. و"سبحان الله"[٥٤٩] معناه: التّنزيه لله، وهو نَصْبٌ على المَصدر، كأنّه قال: أُبَرّئُ اللهَ من السّوءِ بَراءَةً[٥٥٠]. ومعناه: تنزيهاً لله من الصّاحِبَة[٥٥١] والوَلد. وقيل: تنزيه الله تعالى عن كلّ ما لا ينبغي له أن يوصَف به، تقول: سَبَّحْتُ اللهَ تَسْبيحاً، أي نَزَّهْتُهُ تَنْزيهاً[٥٥٢].

و"سُبُحاتُ" وجه الله تعالى بضَمَّتَيْن: جَلالَتُه. و"سُبّوحٌ": من صِفات الله تعالى[٥٥٣]. ومعنى﴿سَبَّحَ للهِ﴾[٥٥٤]: نَزَّهَهُ عن كلّ ما لا يَليق به جميع ما في السّماوات وجميع ما في الأرض من كائنات ومخلوقات. وهو عزَّ وجلَّ العزيزُ الذي لا يَغْلِبُهُ غالِب، الحكيمُ في أقوالِه وأفعالِه[٥٥٥].

والذي يتدبّر القرآن الكريم يجد أنّ الله تعالى قد ذَكَرَ فيه أنّ كلّ شيء في هذا الكون يُسَبِّحُ بحَمد ربّه، كما في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ له السّماواتُ السَّبْعُ والأرْضُ ومَن فيهِنّ، وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهونَ تَسْبيحَهُمْ﴾[٥٥٦].

وعلى ذلك "فكلّ أجزاء الكون، من الجُسَيْماتِ الأوَّلِيَّةِ المُكَوِّنَةِ للذَّرّاتِ المُتَناهِيَةِ في الصِّغَر، إلى المَجَرِيَّةِ والتَّجمُّعاتِ المَجَرِيَّة وما بداخلها من نجوم، وكواكب وكُوَيْكِبات، وأقمار ومُذَنَّبات، وشُهُبٍ ونَيازِك،

---

[٥٤٨] محمّد سيّد طَنْطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر، ط ١، القاهرة – مصر، ١٤٢٠ هـ. – ١٩٩٨ م.، ج ١٤، ص ٢٨١.

[٥٤٩] ورد المصدر "سبحان" و"سبحانك" و"سبحانه" في أربعين موضعاً من كتاب الله، وكلّ من الاسم "تسبيح" والصِّفة "المُسَبِّحونَ" و"المُسَبِّحينَ" فقد وردا في موضعين اثنين فقط. وكلّ ذلك يشير إلى تسبيح الكون كلِّه بمَن فيه وما فيه لله تعالى تسبيحاً مُتَّصِلاً لا يتوقّف ولا يتخلّف ولا ينقطع، في الماضي والحاضر والمستقبل، تسبيحاً بتمجيد الله تعالى وتقديسه وتوحيده في كلّ وقت، وفي كلّ حين.

د. زغلول النَّجّار، صور من تسبيح الكائنات لله، المرجع السابق، ص ١٣.

[٥٥٠] مختار الصِّحاح، المرجع السّابق، ص ١٤٠.

[٥٥١] الصّاحِبَة: الزّوجة. والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى مُنَزَّهٌ عن الحاجة إلى الزّوجة والأولاد.

[٥٥٢] عدد من المختصّين بإشراف الشّيخ صالح بن عبد الله بن حُمَيْد، نضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم – صلّى الله عليه وسلّم، المرجع السابق، ج ٣، ص ٩٨٠ .

[٥٥٣] مختار الصِّحاح، المرجع السّابق، ص ١٤٠.

[٥٥٤] سورة الحديد، الآية ١، وسورة الحَشْر، الآية ١، وسورة الصَّف، الآية ١.

[٥٥٥] محمّد سيّد طَنْطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم، المرجع السابق، ج ١٤، ص ٢٨٢.

[٥٥٦] سورة الإسراء، الآية ٤٤.

وأشباهِ نجومٍ ونابضات، وسُدُمٍ وثُقوبٍ سود، وغير ذلك من الأجرام السّماويّة وما بداخلها من مختلف صُوَرِ المادّة والطّاقة "الصّخور والمعادن، والعناصر والمُرَكّبات، والجُزَيْئاتِ[٥٥٧] والذَّرّات، واللّبناتِ الأوَّلِيَّةِ لتلك الذَّرّات"، وما يُصاحِب كلّ ذلك من الظّواهر الكونيّة، وما يَحكمها من السُّنَنِ الإلهيّة، وما يَحيا في السّماوات وعلى الأرض من كائنات، وما يُكَوِّنُ أجسادَها من خلايا وأنسجة وأعضاء وأجهزة، وما تقوم به من وظائف، وما يُصاحِبها من تَفاعُلات، وما يَعلوها من ظواهر، ويَحكمها من قوانين وسُنَن، وما يُكَوِّنُ تلك الخلايا من مُرَكّباتٍ وعناصرَ وجُزَيْئاتٍ وذَرّاتٍ ولَبناتٍ أوَّلِيَّة، حتّى في داخل أجساد العُصاة والمُشرِكين والكافرين من الخَلْقِ المُكَلَّفين، وحتّى في رُفاتِ الأموات وما يَتَحَلَّلُ عنها من عناصرَ ومُرَكّبات، وجُزَيْئِيّاتٍ وذَرّات، وجُسَيْماتٍ أوَّلِيَّة، كلّ ذلك قانتٌ عابدٌ مُسَبِّحٌ لله، خاشِعٌ لجلال عَظَمَةِ الله، خاضِعٌ مُنْقادٌ لأوامره، عارِفٌ بخالِقِهِ ومُدَبِّرِهِ ومُصَوِّرِه، مُؤْمِنٌ بأنّ ناصِيَتَهُ بِيَدِ الله، وأنّ مَرَدَّهُ حتماً إليه سبحانه وتعالى"[٥٥٨].

كما ذَكَرَ سبحانه أنّ الملائكةَ تُسَبِّحُ له، كما في قوله جلَّ وعلا: ﴿ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ﴾[٥٥٩]. وكذلك الرّعد، كما في قوله تعالى: ﴿ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالمَلائِكَةُ مِنْ خيفَتِهِ﴾[٥٦٠]. وكذلك الجبال والطّير، كما في قوله تعالى: ﴿إنّا سَخَّرْنا الجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعَشِيِّ والإشْراقِ * والطَّيْرَ مَحْشورَةً، كُلٌّ لَهُ أوّابٌ﴾[٥٦١] [٥٦٢]. ويُطْلَقُ "التَّسبيحُ" ويُرادُ به جميع ألفاظ "الذِّكْر"[٥٦٣].

أفعال التّسبيح:

وردت كلمة "التّسبيح" في القرآن العظيم بعدّة صيغ، منها بصيغة الفعل الماضي، ومنها بصيغة الفعل المُضارِع ومنها بصيغة فعل الأمْر.

---

[٥٥٧] الجُزَيْء: هو أصغر جزء مستقلّ في مادّة ما، يَصِحُّ أن يوجد محتفظاً بالخواصّ الكيميائيّة لهذه المادة.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ١٠٣.

[٥٥٨] د. زغلول النّجار، صُوَر من تسبيح الكائنات لله، المرجع السابق، ص ٧ – ٨.

ولمزيد من التّفصيل انظر المرجع نفسه، ص ١٤ – ١٧.

[٥٥٩] سورة البقرة، الآية ٣٠.

[٥٦٠] سورة الرّعد، الآية ١٣.

[٥٦١] سورة ص، الآيتان ١٨ – ١٩.

[٥٦٢] محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم، المرجع السابق، ج ١٤، ص ٢٨٢.

[٥٦٣] عبد الله بن محمّد الغنيمان، شرح كتاب التّوحيد من صحيح البخاريّ، مكتبة الدّار، ط ١، المدينة المنوّرة – المملكة العربيّة السعوديّة، ١٤٠٥ هـ، ج ٢، ص ٧٠١.

وقد افْتُتِحَتْ بعض السُّوَر، كسُوَر الحديد والحَشْرِ والصَّفّ، بصيغة الفعل الماضي ﴿سَبَّحَ﴾، لإفادة الثُّبوت والتّأكيد، وأنّ التّسبيح قد تَمَّ فعلاً، ومنها:

١ – ﴿سَبَّحَ للهِ ما في السَّماواتِ والأرْضِ، وهُوَ العَزيزُ الحَكيمُ﴾[٥٦٤] [٥٦٥].

٢ – ﴿سَبَّحَ للهِ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ، وهو العَزيزُ الحَكيمُ﴾[٥٦٦].

٣ – ﴿إنّما يُؤْمِنُ بآياتِنا الّذينَ إذا ذُكِّروا بها خَرّوا سُجَّداً وسَبَّحوا بحَمْدِ رَبِّهِمْ وهُمْ لا يَسْتَكْبِرونَ﴾[٥٦٧].

وافْتُتِحَتْ بعض السُّوَر، كسورَتَي الجُمعة والتَّغابُن، بصيغة الفعل المُضارِع ﴿يُسَبِّحُ﴾، لإفادة تَجَدُّدِ هذا التّسبيح في كلّ وقت، وحدوثِه في كلّ لحظة[٥٦٨]، ومنها:

١ – ﴿يُسَبِّحُ للهِ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ المَلِكِ القُدُّوسِ العَزيزِ الحَكيمِ﴾[٥٦٩].

٢ – ﴿يُسَبِّحُ للهِ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ، لَهُ المُلْكُ ولَهُ الحَمْدُ، وهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾[٥٧٠].

ومن الآيات القرآنيّة التي وردت بصيغة الفعل المُضارِع أيضاً:

١ – ﴿ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ﴾[٥٧١].

٢ – ﴿إنَّ الّذينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبادَتِهِ ويُسَبِّحونَهُ ولَهُ يَسْجُدونَ﴾[٥٧٢].

٣ – ﴿ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ والمَلائِكَةُ مِنْ خيفَتِهِ﴾[٥٧٣].

---

[٥٦٤] سورة الحديد، الآية ١.

[٥٦٥] اكتشف علماء الفلك، عند رَصْدِهِمْ لمناطق مختلفة في السّماء، عدّة مصادر فضائيّة تُشِعُّ دَفْعات، أو نَبْضات، من موجات الرّاديو الطّويلة الموجة نِسْبِيّاً، وهذه الدَّفْعات تَتِمُّ بصِفَةٍ دوريّة، وكانت الفواصل الزّمنيّة بين نبضة وأخرى في بعض المصادر هي ٠٫٣ من الثّانية، وفي بعضها كانت الفترة الزّمنيّة تبلغ ثانية واحدة. أمّا طول الفترات بين نبضة وأخرى فكانت ثلاثَ ثوانٍ بحيث يُتِمُّ الجسمُ النّابض ٢٠ نبضة كلّ دقيقة، وكانت هذه النّبضات تَتمُّ بدقّة متناهية وبانتظام شديد أُطْلِقَ عليه اسم "موسيقى الفضاء"، وربّما كان هذا من تسبيح الكائنات.

ولمزيد من التّفصيل انظر أ. د. محمّد أحمد الشّهاويّ، أسرار الكون، المرجع السابق، ص ٤٦ – ٤٨، وص ٧٣ – ٧٥.

[٥٦٦] سورة الحَشْر، الآية ١، وسورة الصَّفّ، الآية ١.

[٥٦٧] سورة السَّجدة، الآية ١٥.

[٥٦٨] محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم، المرجع السابق، ج ١٤، ص ٢٨٢.

[٥٦٩] سورة الجُمعة، الآية ١.

[٥٧٠] سورة التَّغابُن، الآية ١.

[٥٧١] سورة البقرة، الآية ٣٠.

[٥٧٢] سورة الأعراف، الآية ٢٠٦.

[٥٧٣] سورة الرَّعْد، الآية ١٣.

٤ – ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ والأرْضُ ومَنْ فيهِنَّ، وإنْ من شيءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولَكِنْ لا تَفْقَهونَ تَسْبيحَهُمْ، إنَّهُ كانَ حَليماً غَفوراً﴾[٥٧٤].

٥ – ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كثيراً * ونَذْكُرَكَ كثيراً﴾[٥٧٥].

٦ – ﴿ولَهُ مَنْ في السَّماواتِ والأرْضِ ومَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبادَتِهِ ولا يَسْتَحْسِرونَ * يُسَبِّحونَ اللَّيْلَ والنَّهارَ لا يَفْتُرونَ﴾[٥٧٦].

٧ – ﴿وسَخَّرْنا مَعَ داودَ الجِبالَ يُسَبِّحْنَ والطَّيْرَ، وكُنّا فاعِلينَ﴾[٥٧٧ ٥٧٨].

٨ – ﴿في بُيوتٍ أذِنَ اللهُ أنْ تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فيها بالغُدُوِّ والآصالِ * رِجالٌ لا تُلْهيهِمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عن ذِكْرِ اللهِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ يَخافونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيهِ القُلوبُ والأبْصارُ﴾[٥٧٩].

٩ – ﴿ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ في السَّماواتِ والأرْضِ والطَّيْرُ صافّاتٍ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسْبيحَهُ، واللهُ عَليمٌ بما يَفْعَلونَ﴾[٥٨٠].

١٠ – ﴿إنّا سَخَّرْنا الجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ والإشْراقِ﴾[٥٨١].

١١ – ﴿وتَرى المَلائِكَةَ حافّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وقيلَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمين﴾[٥٨٢].

١٢ – ﴿الَّذينَ يَحْمِلونَ العَرْشَ ومَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ويُؤْمِنونَ بِهِ ويَسْتَغْفِرونَ لِلَّذين آمَنوا، رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذينَ تابوا واتَّبَعوا سَبيلَكَ وقِهِمْ عَذابَ الجَحيمِ﴾[٥٨٣].

١٣ – ﴿فَإنِ اسْتَكْبَروا فَالَّذينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحونَ لَهُ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ وهُمْ لا يَسْأمونَ﴾[٥٨٤].

---

[٥٧٤] سورة الإسراء، الآية ٤٤.

[٥٧٥] سورة طه، الآيتان ٣٣ – ٣٤.

[٥٧٦] سورة الأنبياء، الآيتان ١٩ – ٢٠.

[٥٧٧] سورة الأنبياء، الآية ٧٩.

[٥٧٨] د. زغلول النَّجّار، صُوَر من تسبيح الكائنات لله، المرجع السابق، ص ٩.

[٥٧٩] سورة النّور، الآيتان ٣٦ – ٣٧.

[٥٨٠] سورة النّور، الآية ٤١.

[٥٨١] سورة ص، الآية ١٨.

[٥٨٢] سورة الزُّمَر، الآية ٧٥.

[٥٨٣] سورة غافِر، الآية ٧.

١٤ – ﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِمْ، والمَلائِكَةُ يُسَبِّحونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ويَسْتَغْفِرونَ لِمَنْ في الأرْضِ، ألا إنَّ اللهَ هُوَ الغَفورُ الرَّحيمُ﴾[٥٨٥].

١٥ – ﴿لِتُؤْمِنوا بِاللهِ ورَسولِهِ وتُعَزِّروهُ وتُوَقِّروهُ، وتُسَبِّحوهُ بُكْرَةً وأصيلاً﴾[٥٨٦].

١٦ – ﴿هُوَ اللهُ الخالِقُ البارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأسْماءُ الحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما في السَّماواتِ والأرْضِ وهُوَ العَزيزُ الحَكيمُ﴾[٥٨٧].

وأمّا الآياتُ التي وردت بصيغة فِعْلِ الأمْرِ فكان منها:

١ – ﴿واذْكُرْ رَبَّكَ كَثيراً وسَبِّحْ بِالعَشِيِّ والإبْكارِ﴾[٥٨٨].

٢ – ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وكُنْ مِنَ السّاجِدينَ﴾[٥٨٩].

٣ – ﴿فَأوْحى إلَيْهِمْ أنْ سَبِّحوا بُكْرَةً وعَشِيّاً﴾[٥٩٠].

٤ – ﴿فَاصْبِرْ على ما يَقولونَ وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ غُروبِها ومِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وأطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى﴾[٥٩١].

٥ – ﴿وتَوَكَّلْ على الحَيِّ الذي لا يَموتُ وسَبِّحْ بِحَمْدِهِ، وكَفى بِهِ بِذُنوبِ عِبادِهِ خَبيراً﴾[٥٩٢].

٦ – ﴿وسَبِّحوهُ بُكْرَةً وأصيلاً﴾[٥٩٣].

٧ – ﴿فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالعَشِيِّ والإبْكارِ﴾[٥٩٤].

٨ – ﴿فَاصْبِرْ على ما يَقولونَ وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ الغُروبِ * ومِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وأدْبارَ السُّجودِ﴾[٥٩٥].

---

[٥٨٤] سورة فُصِّلَت، الآية ٣٨.

[٥٨٥] سورة الشّورى، الآية ٥.

[٥٨٦] سورة الفَتْح، الآية ٩.

[٥٨٧] سورة الحَشْر، الآية ٢٤.

[٥٨٨] سورة آل عِمْران، الآية ٤١.

[٥٨٩] سورة الحِجْر، الآية ٩٨.

[٥٩٠] سورة مريم، الآية ١١.

[٥٩١] سورة طه، الآية ١٣٠.

[٥٩٢] سورة الفُرْقان، الآية ٥٨.

[٥٩٣] سورة الأحزاب، الآية ٤٢.

[٥٩٤] سورة غافِر، الآية ٥٥.

[٥٩٥] سورة ق، الآيتان ٣٩ – ٤٠.

٩ – ﴿واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأعْيُنِنا، وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقومُ * ومِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وإدْبارَ النُّجومِ﴾[٥٩٦].

١٠ – ﴿فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ العَظيمِ﴾[٥٩٧].

١١ – ﴿ومِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وسَبِّحْهُ لَيْلاً طَويلاً﴾[٥٩٨].

١٢ – ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلى﴾[٥٩٩].

١٣ – ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْهُ، إنَّهُ كانَ تَوّاباً﴾[٦٠٠ ٦٠١].

أنواع التّسبيح:

خلق الله عزّ وجلّ جميع المخلوقات، وقسَمها إلى قسمَين: قسمٌ عبَدَه طوعاً واختياراً، وقسمٌ عبَدَه فِطريّاً وتسخيريّاً. و"التّسبيح" نوع من أنواع العبادة، وتتعدَّد أنواعه وأساليبه، ويمكن حصر أهمّ أنواعه في قسمَين رئيسيَّيْن، تبعاً لقِسمَي المخلوقات المذكوران أعلاه، وهما:

١ – تسبيح إراديّ اختياريّ للمكلَّفين من الأحياء.

٢ – تسبيح فِطْريّ تسخيريّ لغير المكلَّفين من الأحياء، ولكلّ الجمادات ولمختلف صور الطّاقة المصاحِبة لها، والنّاتجة عنها، ولمختلف الظّواهر والسُّنن الكونيّة المحيطة بها، والحاكمة لها، فقد قال الله تعالى: ﴿وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولَكِنْ لا تَفْقَهونَ تَسْبيحَهُمْ﴾[٦٠٢ ٦٠٣].

١ – *تسبيح إراديّ اختياريّ:*

كلَّف الله عزّ وجلّ عُقَلاءَ[٦٠٤] نوعَين من مخلوقاته بعبادته طوعاً واختياراً، وهذان المخلوقان هما الجنّ والإنْس. وقد أشار الله عزّ وجلّ إلى هذا الأمر بقوله: وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاّ لِيَعْبُدونِ﴾[٦٠٥].

---

[٥٩٦] سورة الطّور، الآيتان ٤٨ – ٤٩.

[٥٩٧] سورة الواقِعَة، الآيتان ٧٤ و٩٦، وسورة الحاقّة، الآية ٥٢.

[٥٩٨] سورة الإنسان، الآية ٢٦.

[٥٩٩] سورة الأعلى، الآية ١.

[٦٠٠] سورة النّصر، الآية ٣.

[٦٠١] د. زغلول النَّجّار، صُوَر من تسبيح الكائنات لله، المرجع السابق، ص ١٢ – ١٣.

[٦٠٢] سورة الإسراء، الآية ٤٤.

[٦٠٣] د. زغلول النَّجّار، صُوَر من تسبيح الكائنات لله، المرجع السابق، ص ٣٤.

[٦٠٤] غير العُقَلاء غير مكلَّفين بالعبادة، كالصِّغار والمجانين وما شابه.

[٦٠٥] سورة الذّاريات، الآية ٥٦.

والتّسبيح جزءٌ من العبادة، وتسبيح العُقَلاءِ المُكلَّفينَ هو "تسبيحٌ إراديٌّ اختياريٌّ" يقوم به الصّالحون من الجنّ والإنْس، ويُحْرَمُهُ الضّالونَ منهم[٦٠٦].

وتسبيح العقلاء المكلَّفين يشمل ذِكْرَ الله تعالى على كلّ حالٍ بأسمائِه الحُسنى، وصِفاتِه العُلا، وبكلّ نَعْتٍ يليق بجلاله، ويُثْبِتُ له من صِفات الكمال المُطلَق ما أثْبَتَهُ تعالى لنفسه، ويُنَزِّهُهُ عن كلّ نقصٍ لا يليق بمَقام الألوهيّة والرُّبوبيَّة والوَحْدانيَّة، في خضوعٍ وخشوعٍ وتعظيمٍ للخالِقِ البارئِ المُصَوِّر، الواحِدِ الأحَدِ الفَرْدِ الصَّمَد، الذي لم يَلِدْ و لم يولَد، و لم يَكُنْ له كُفُواً أحَد.

وهذا التّسبيح الإراديّ الاختياريّ يجعل المخلوق المُكَلَّفَ متناغماً منسجماً مع بقيّة أفراد الكون المُسَبِّحَةِ لله أبداً، تسبيحاً فِطْرِيّاً تسخيريّاً، مُتَّصِلاً مُتَواصِلاً دائماً، لا يتخلَّف ولا ينقطع ولا يتوقَّف. وهذا التّناغم والانسجام مع كافّة أجزاء الكون له مَردوداتُه المادِّيَّة والمعنويّة، والجسديّة، والنّفسيّة والرّوحيّة، وإيحاءاتُه التّربويّة التي تسمو بالإنسان إلى أعلى مراتب التّكريم التي فَتَحَها الله تعالى أمامه بقوله عزَّ من قائِل: ﴿ولَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدَمَ وحَمَلْناهُمْ في البَرِّ والبَحْرِ ورَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وفَضَّلْناهُمْ على كَثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضيلاً﴾[٦٠٧] [٦٠٨].

٢ – *تسبيح فِطْرِيٌّ تَسخيريّ:*

كلَّف الله عزّ وجلّ مخلوقاته جميعاً، ما عدا الجنّ والإنْس، بتسبيحه تسبيحاً فِطْرِيّاً تَسْخيرِيّاً. وقد أشار الله عزّ وجلّ إلى هذا الأمر بقوله: ﴿وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولَكِنْ لا تَفْقَهونَ تَسْبيحَهُمْ﴾[٦٠٩].

فأوضح تعالى في هذه الآية بأنّ كلّ المخلوقات الحيّة غير المكلَّفة، وكافّة الجمادات والظّواهر والسُّنَن الكونيّة، تقوم بالتّسبيح بحمدِه بلا تَوَقُّفٍ ولا انقطاعٍ ما دام لهم نوع من الوجود. ويشمل هذا التّسبيح أيضاً أجساد العُصاة الغافلين والمشركين والكافرين التي تُسَبِّحُ لَبِناتُ المادّة الحيّة والجامدة فيها تسبيحاً فِطْرِيّاً تَسخيريّاً رغم أنوف أصحابها الغافلين.

كما أوضح تعالى أيضاً بأنّ الإنسان، بقُدْراته العاديّة، لا يستطيع فَهْمَ منطِق الطّير، ولا لغةَ تَخاطُب مختلف ضروب الحيوان، ولا طرائق تعبير النّبات عن ذاته ومشاعره، ولا يَفقَه أسلوب التّسبيح عند مختلف أنواع الجمادات والظّواهر الكونيّة.

---

[٦٠٦] د. زغلول النَّجّار، صُوَر من تسبيح الكائنات لله، المرجع السابق، ص ٣٦.

[٦٠٧] سورة الإسراء، الآية ٧٠.

[٦٠٨] د. زغلول النَّجّار، صُوَر من تسبيح الكائنات لله، المرجع السابق، ص ٣٨.

[٦٠٩] سورة الإسراء، الآية ٤٤.

إلاّ أنّ بعض العلماء استَثْنوا الملائكة من تسبيح الله عزّ وجلّ تسبيحاً فِطْرِيّاً تَسْخيرِيّاً، واعتبروا أنّ تسبيحهم هو تسبيح اختياريّ، وحُجَّتُهُمْ في ذلك أنّه لو كان تسبيحهم اضطراريّاً لما أثنى الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمونَ﴾[٦١٠] [٦١١].

تسبيح المخلوقات:

إنّ كلّ شيء في هذا الوجود يُسبِّح بحَمد الله، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ والأَرْضُ ومَنْ فيهِنَّ، وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكِنْ لا تَفْقَهونَ تَسْبيحَهُمْ﴾[٦١٢]. ومعنى قوله تعالى: ﴿وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾: أي ما من شيءٍ إلّا وفيه دليل أنّ اللهَ عزّ وجلّ خالِقُه، وأنّ خالِقَه حكيمٌ مُبَرَّأٌ من كلّ سوء، وقادرٌ على كلّ شيء. وممّا يدلّ على أنّ تسبيحَ هذه المخلوقات تسبيحٌ تَعبَّدَت به لله، ذِكْرُ الله تعالى ذلك في آيات عدّة من القرآن الكريم، ومنها الآيات التّالية:

١ – قولُ اللهِ عزّ وجلّ للجبال: ﴿ولَقَدْ آتَيْنا داوودَ مِنّا فَضْلاً، يا جِبالُ أوِّبي مَعَهُ والطَّيْرَ، وأَلَنّا لَهُ الحَديدَ﴾[٦١٣]. ومعنى ﴿أوِّبي﴾: أي سَبِّحي مع داودَ النّهار كلّه إلى اللّيل، ولا يجوز أن يكون معنى أمر الله عزّ وجلّ للجبال بالتّأويب إلاّ تَعَبُّداً منها له تعالى[٦١٤].

٢ – قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّماواتِ ومَنْ في الأَرْضِ والشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجومُ والجِبالُ والشَّجَرُ والدَّوابُّ وكَثيرٌ مِنَ النّاس﴾[٦١٥]، فسجود هذه المخلوقات عبادةٌ منها لخالِقِها لا نَفْقَهُها عنها كما لا نَفْقَهُ تَسبيحَها.

٣ – قوله تعالى: ﴿وإنَّ مِنَ الحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ، وإنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماءُ، وإنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[٦١٦]، وقد عَلِمَ اللهُ هبوطَها من خشيته ولم يُعَرِّفْنا ذلك، فنحن نُؤْمِنُ بما أعْلَمَنا، ولا نَدَّعي بما لا نُكَلَّفُ، بأفهامِنا، مِنْ عِلْمِ فِعْلِها[٦١٧].

---

[٦١٠] سورة الأنبياء، الآية ٢٦.

[٦١١] د. زغلول النَّجّار، صُوَر من تسبيح الكائنات لله، المرجع السابق، ص ٣٧ – ٣٨، بتصرّف.

[٦١٢] سورة الإسراء، الآية ٤٤.

[٦١٣] سورة سبأ، الآية ١٠.

[٦١٤] الأمر في ﴿أوِّبي مَعَهُ﴾ أمرُ تكوينٍ وتسخير. والتّأويب: التّرجيع، أي ترجيع الصّوت. وقيل: التّأويب بمعنى التّسبيح لغةٌ حَبَشِيَّة، فهو من المُعَرَّب في اللّغة العربيّة. ﴿والطَّيْرَ﴾، منصوبٌ بالعطف على المُنادى لأنّ المعطوفَ المُعَرَّفَ على المُنادى يجوز نَصْبُهُ ورَفْعُه، ويجوز أن يكون ﴿والطَّيْرُ﴾ مفعولاً معه لـــ ﴿أوِّبي﴾. والتّقدير: أوِّبي معه ومع الطَّير، فيُفيدُ أنّ الطَّير تَأوَّبَ معه أيضاً.
ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، المرجع السابق، ج ٢٢، ص ١٥٦.

[٦١٥] سورة الحجّ، الآية ١٨.

٤ – قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هَذا القُرْآنَ على جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرونَ﴾[٦١٨]، فلو أنْزَلَ الله تعالى القرآن الكريم على جبلٍ لَخَشَعَ الجبلُ لله تعالى وتَصَدَّعَ من جَلالِه سبحانه، فما بالُ قلوبِ بعض النّاس قاسية، وناكرةً لوجود خالِقِها، وجاحدةً بأنْعُمِه؟

من معاني التّسبيح:

تحمل كلمة "التّسبيح" معانٍ عدّة، ومن هذه المعاني: الصّلاة والذِّكر، وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى في آيات عدّة من القرآن الكريم، ومنها الآيات التّالية:

١ – قوله تعالى: ﴿فَسُبْحانَ اللهِ حينَ تُمْسونَ وحينَ تُصْبِحونَ﴾[٦١٩]، وقد فسَّر العلماء "التّسبيح" هنا بالصّلاة في هذَين الوقتَين. وقال الفَرّاء: حين تُمسون: المَغرِب والعِشاء، وحين تُصبِحون: صلاة الفجر.

٢ – قوله تعالى: ﴿ولَهُ الحَمْدُ في السَّماواتِ والأَرْضِ وعَشِيّاً وحينَ تُظْهِرونَ﴾[٦٢٠]، وعَشِيّاً: صلاة العصر، وحين تُظْهِرون: صلاة الظُّهر.

٣ – قوله تعالى: ﴿وسَبِّحْ بِالعَشِيِّ والإبْكارِ﴾[٦٢١]، أي: وصَلِّ.

٤ – قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كانَ مِنَ المُسَبِّحينَ﴾[٦٢٢]، أراد أنّ نبي الله يونس عليه السّلام كان من المصلّين قبل ذلك. وقيل: إنّما ذلك لأنّه قال في بطن الحوت: ﴿لا إلهَ إلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمينَ﴾[٦٢٣].

٥ – قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحونَ اللَّيْلَ والنَّهارَ لا يَفْتُرونَ﴾[٦٢٤]، يُقال: إنّ مجرى التّسبيح فيهم كمجرى النَّفَسِ منّا لا يَشْغَلُنا عن النَّفَسِ شيء.

---

[٦١٦] سورة البقرة، الآية ٧٤.

[٦١٧] عدد من المختصّين بإشراف الشّيخ صالح بن عبد الله بن حميد، نُضْرَةُ النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم – صلّى الله عليه وسلّم، المرجع السابق، ج ٣، ص ٩٨١.

[٦١٨] سورة الحَشر، الآية ٢١.

[٦١٩] سورة الرّوم، الآية ١٧.

[٦٢٠] سورة الرّوم، الآية ١٨.

[٦٢١] سورة آل عِمران، الآية ٤١.

[٦٢٢] سورة الصّافّات، الآية ١٤٣.

[٦٢٣] سورة الأنبياء، الآية ٨٧.

[٦٢٤] سورة الأنبياء، الآية ٢٠.

٦ – قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحونَ﴾[٦٢٥]، أي: تَسْتَثْنون، وفي الاستثناء تعظيمُ اللهِ والإقرار بأنّه لا يشاءُ أحدٌ إلاّ أن يشاءَ الله، فوُضِعَ تنزيهُ اللهِ مَوْضِعَ الاستثناء[٦٢٦].

ورُوِيَ أنّ عمر رضي الله عنه جَلَدَ رَجُلَيْنِ سَبَّحا بعد العصر، أي: صَلَّيا[٦٢٧]، لأنّه لا صلاةَ بعد أداء صلاةِ العصر.

من أنواع التّسبيح في القرآن الكريم:

تعدّدت أنواع "التّسبيح" في القرآن الكريم، ولكن يمكن جمع أهمّها تحت البنود التّالية:

١ – تسبيح نزَّه الله تبارك وتعالى به نفسه عمّا وصفه به المشركون وبعض أهل الكتاب.

٢ – تسبيح أنواع من المخلوقات لله عزّ وجلّ.

٣ – تسبيح البشر الله عزّ وجلّ في حالات خاصّة.

١ – *تسبيح نزَّه الله تبارك وتعالى به نفسه:*

أ – تسبيح نزَّه الله به نفسه عن الشّريك والولد.

ب – تسبيح فيه تَبَرُّؤٌ من أمْرٍ مزعوم.

أ – *تسبيح نزَّه الله به نفسه عن الشّريك والولد:*

١ – ﴿وقَالوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ، بَلْ لَهُ ما في السَّماواتِ والأرْضِ، كُلٌّ لَهُ قانِتونَ﴾[٦٢٨].

٢ – ﴿يا أهْلَ الكِتابِ لا تَغْلوا في دينِكُمْ ولا تَقولوا على اللهِ إلاّ الحَقَّ، إنَّما المَسيحُ عيسى ابْنُ مَرْيَمَ رَسولُ اللهِ وكَلِمَتُهُ أَلْقاها إلى مَرْيَمَ وروحٌ مِنْهُ، فَآمِنوا باللهِ ورُسُلِهِ، ولا تَقولوا ثَلاثَةٌ، انْتَهوا خَيْراً لَكُمْ، إنَّما اللهُ إلهٌ واحِدٌ، سُبْحانَهُ أنْ يَكونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ، وكَفى باللهِ وَكيلاً﴾[٦٢٩].

٣ – ﴿وجَعَلوا للهِ شُرَكاءَ الجِنَّ وخَلَقَهُمْ، وخَرَقُوا لَهُ بَنينَ وبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ، سُبْحانَهُ وتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٦٣٠].

---

[٦٢٥] سورة القَلَم، الآية ٢٨.

[٦٢٦] عدد من المختصّين بإشراف الشّيخ صالح بن عبد الله بن حميد، نُضْرَةُ النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم – صلّى الله عليه وسلّم، المرجع السابق، ج ٣، ص ٩٨٢، بتصرّف.

[٦٢٧] ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٧٣.

[٦٢٨] سورة البقرة، الآية ١١٦.

[٦٢٩] سورة النِّساء، الآية ١٧١.

[٦٣٠] سورة الأنعام، الآية ١٠٠.

٤ – ﴿اتَّخَذوا أحْبارَهُمْ ورُهْبانَهُمْ أرْباباً مِنْ دونِ اللهِ والمَسيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وما أُمِروا إلاّ لِيَعْبُدوا إلهاً واحِداً، لا إلهَ إلاّ هُوَ، سُبْحانَهُ عَمّا يُشْرِكونَ﴾[٦٣١].

٥ – ﴿ويَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ ويَقولونَ هَؤلاءِ شُفَعاؤنا عِنْدَ اللهِ، قُلْ أتُنَبِّئونَ اللهَ بِما لا يَعْلَمُ في السَّماواتِ ولا في الأرْضِ، سُبْحانَهُ وتَعالى عَمّا يُشْرِكونَ﴾[٦٣٢].

٦ – ﴿قالوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً، سُبْحانَهُ، هُوَ الغَنِيُّ، لَهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ، إنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهَذا، أتَقولونَ على اللهِ ما لا تَعْلَمونَ﴾[٦٣٣].

٧ – ﴿أتى أمْرُ اللهِ فلا تَسْتَعْجِلوهُ، سُبْحانَهُ وتَعالى عَمّا يُشْرِكونَ﴾[٦٣٤].

٨ – ﴿ويَجْعَلونَ لِما لا يَعْلَمونَ نَصيباً مِمّا رَزَقْناهُمْ، تَاللهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمّا كُنْتُمْ تَفْتَرونَ * ويَجْعَلونَ للهِ البَناتِ سُبْحانَهُ ولَهُمْ ما يَشْتَهون﴾[٦٣٥].

٩ – ﴿قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كما يَقولونَ إذاً لابْتَغَوْا إلى ذي العَرْشِ سَبيلاً * سُبْحانَهُ وتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبيراً * تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ ومَنْ فِيهِنَّ، وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ، إنَّهُ كانَ حَليماً غَفُوراً﴾[٦٣٦].

١٠ – ﴿ما كانَ للهِ أنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ، سُبْحانَهُ، إذا قَضى أمْراً فَإنَّما يَقولُ لَهُ كُنْ فَيَكونُ﴾[٦٣٧].

١١ – ﴿لَوْ كانَ فيهِما آلِهَةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدَتا، فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمّا يَصِفونَ﴾[٦٣٨].

١٢ – ﴿وقَالوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً، سُبْحانَهُ، بَلْ عِبادٌ مُكْرَمونَ﴾[٦٣٩].

١٣ – ﴿ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وما كانَ مَعَهُ مِنْ إلهٍ، إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلهٍ بِما خَلَقَ ولَعَلا بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ، سُبْحانَ اللهِ عَمّا يَصِفونَ﴾[٦٤٠].

---

[٦٣١] سورة التّوبة، الآية ٣١.

[٦٣٢] سورة يونُس، الآية ١٨.

[٦٣٣] سورة يونُس، الآية ٦٨.

[٦٣٤] سورة النّحل، الآية ١.

[٦٣٥] سورة النّحل، الآيتان ٥٦ – ٥٧.

[٦٣٦] سورة الإسراء، الآيات ٤٢ – ٤٤.

[٦٣٧] سورة مريم، الآية ٣٥.

[٦٣٨] سورة الأنبياء، الآية ٢٢.

[٦٣٩] سورة الأنبياء، الآية ٢٦.

[٦٤٠] سورة المؤمنون، الآية ٩١.

١٤ – ﴿فَلَمّا جاءَها نودِيَ أنْ بورِكَ مَنْ في النّارِ ومَنْ حَوْلَها وسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العالَمينَ﴾[٦٤١].

١٥ – ﴿ورَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ ويَخْتارُ، ما كانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ، سُبْحانَ اللهِ وتَعالى عَمّا يُشْرِكونَ﴾[٦٤٢].

١٦ – ﴿اللهُ الَّذي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُميتُكُمْ ثُمَّ يُحْييكُمْ، هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ، سُبْحانَهُ وتَعالى عَمّا يُشْرِكونَ﴾[٦٤٣].

١٧ – ﴿وجَعَلوا بَيْنَهُ وبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً، ولَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إنَّهُمْ لَمُحْضَرونَ * سُبْحانَ اللهِ عَمّا يَصِفونَ﴾[٦٤٤].

١٨ – ﴿سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمّا يَصِفونَ * وسَلامٌ على المُرْسَلينَ * والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ﴾[٦٤٥].

١٩ – ﴿لَوْ أرادَ اللهُ أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفى مِمّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ، سُبْحانَهُ، هُوَ اللهُ الواحِدُ القَهّارُ﴾[٦٤٦].

٢٠ – ﴿وما قَدَروا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيامَةِ والسَّماواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمينِهِ، سُبْحانَهُ وتَعالى عَمّا يُشْرِكونَ﴾[٦٤٧].

٢١ – ﴿قُلْ إنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأنا أوَّلُ العابِدينَ * سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ والأرْضِ رَبِّ العَرْشِ عَمّا يَصِفونَ﴾[٦٤٨].

٢٢ – ﴿أمْ لَهُمْ إلهٌ غَيْرُ اللهِ، سُبْحانَ اللهِ عَمّا يُشْرِكونَ﴾[٦٤٩].

٢٣ – ﴿هُوَ اللهُ الَّذي لا إلهَ إلاّ هُوَ المَلِكُ القُدّوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزيزُ الجَبّارُ المُتَكَبِّرُ، سُبْحانَ اللهِ عَمّا يُشْرِكونَ * هُوَ اللهُ الخالِقُ البارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأسْماءُ الحُسْنى، يُسَبِّحُ لَهُ ما في السَّماواتِ والأرْضِ، وهُوَ العَزيزُ الحَكيمُ﴾[٦٥٠].

---

[٦٤١] سورة النّمل، الآية ٨.

[٦٤٢] سورة القَصَص، الآية ٦٨.

[٦٤٣] سورة الرّوم، الآية ٤٠.

[٦٤٤] سورة الصّافات، الآيتان ١٥٨ – ١٥٩.

[٦٤٥] سورة الصّافات، الآيات ١٨٠ – ١٨٢.

[٦٤٦] سورة الزُّمَر، الآية ٤.

[٦٤٧] سورة الزُّمَر، الآية ٦٧.

[٦٤٨] سورة الزُّخْرُف، الآيتان ٨١ – ٨٢.

[٦٤٩] سورة الطّور، الآية ٤٣.

[٦٥٠] سورة الحَشر، الآيتان ٢٣ – ٢٤.

ب – *تسبيح فيه تَبَرُّؤٌ من أمْرٍ مزعوم:*

١ – ﴿وإذْ قالَ اللهُ يا عيسى ابْنَ مَرْيَمَ أأنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتَّخِذوني وأُمِّيَ إلهَيْنِ مِنْ دونِ اللهِ، قالَ سُبْحانَكَ ما يَكونُ لي أنْ أقولَ ما لَيْسَ لي بِحَقٍّ، إنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ ما في نَفْسي ولا أعْلَمُ ما في نَفْسِكَ، إنَّكَ أنْتَ عَلاّمُ الغُيوبِ﴾[٦٥١].

٢ – ﴿ولَوْلا إذْ سَمِعْتُموهُ قُلْتُمْ ما يَكونُ لَنا أنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظيم﴾[٦٥٢].

٣ – ﴿ويَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وما يَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ فَيَقولُ أأنْتُمْ أضْلَلْتُمْ عِبادي هؤلاءِ أمْ هُمْ ضَلّوا السَّبيل * قالوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أنْ نَتَّخِذَ مِنْ دونِكَ مِنْ أوْلِياءَ ولكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وآباءَهُمْ حَتّى نَسوا الذِّكْرَ وكانوا قَوْماً بوراً﴾[٦٥٣ ٦٥٤].

٤ – ﴿ويَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَميعاً ثُمَّ يَقولُ لِلْمَلائِكَةِ أهَؤلاءِ إيّاكُمْ كانوا يَعْبُدونَ * قالوا سُبْحانَكَ أنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دونِهِمْ، بَلْ كانوا يَعْبُدونَ الجِنَّ، أكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنونَ﴾[٦٥٥ ٦٥٦].

٢ – *تسبيح أنواع من المخلوقات لله عزّ وجلّ:*

أشار الله عزّ وجلّ في العديد من آيات القرآن الكريم إلى أنّ كلّ مخلوقاته دون استثناء، ذات الرّوح وغير ذات الرّوح، تقوم بتسبيحه. وفيما يلي عرض لبعض أنواع المخلوقات التي تسبِّح الله عزّ وجلّ:

أ – الملائكة الكرام.

ب – نبيّ الله عزّ وجلّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

ت – أنبياء الله عزّ وجلّ عليهم الصّلاة والسّلام.

---

[٦٥١] سورة المائدة، الآية ١١٦.

[٦٥٢] سورة النّور، الآية ١٦. وقد نزلت هذه الآية لتبرئة أمّ المؤمنين السَّيِّدة عائشة رضي الله عنها من الإفك الذي اتُّهِمَتْ به.

[٦٥٣] سورة الفرقان، الآيتان ١٧ – ١٨.

[٦٥٤] يقول تعالى ذِكْرُه: قالت الملائكة، الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله، وعيسى عليه السّلام: تنزيهاً لكَ يا رَبَّنا، وتبرئةً ممّا أضاف إليكَ هؤلاء المشركون، ما كان ينبغي لنا أن نَتَّخِذَ من دونكَ من أولياءَ نُواليهِم، أنتَ وَلِيُّنا من دونهم، ولكن مَتَّعْتَهُمْ بالمال يا رَبَّنا في الدّنيا والصِّحَّةِ حتّى نَسوا الذِّكْر، وكانوا قوماً هَلْكى، قد غَلَبَ عليهم الشّقاء والخِذلان.
الطَّبَرَيّ، تفسير الطَّبَرِيّ، المرجع السابق، ج ١٧، ص ٤١٦.

[٦٥٥] سورة سَبَأ، الآيتان ٤٠ – ٤١.

[٦٥٦] عدد من المختصّين بإشراف الشّيخ صالح بن عبد الله بن حميد، نُضْرَةُ النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم – صلّى الله عليه وسلّم، المرجع السابق، ج ٣، ص ٩٨٩ – ٩٩٠.

ث – المؤمنون.

ج – الطّيور.

ح – المخلوقات جميعاً[٦٥٧].

أ – تسبيح الملائكة الكرام:

١ – ذِكر الملائكة عليهم السّلام صفة عبادة دائمة لله عزّ وجلّ فيهم، وذلك بقولهم: ﴿وإنّا لَنَحْنُ المُسَبِّحونَ﴾[٦٥٨].

٢ – ذِكر الملائكة عليهم السّلام صلاح عملهم ونوعيّته في استفهامهم من الله عزّ وجلّ عن شيء استغربوه، وهو خَلْقُ خليفة في الأرض من صفاته الإفساد، وذلك بقولهم: ﴿ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ﴾[٦٥٩].

٣ – ذِكر الله عزّ وجلّ تسبيح الملائكة عليهم السّلام الدّائم له من غير ملل ولا سأم، وذلك بقوله: ﴿يُسَبِّحونَ لَهُ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ وهُمْ لا يَسْأَمونَ﴾[٦٦٠].

٤ – ذِكر الله عزّ وجلّ وقت تسبيح الملائكة عليهم السّلام الدّائم له، وعدم فتورهم عنه، وذلك بقوله: ﴿يُسَبِّحونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرونَ﴾[٦٦١].

٥ – ذِكر الله عزّ وجلّ عدم استكبار الملائكة عليهم السّلام عن عبادته، ووَصْفُهُ نوعَين من هذه العبادة، وذلك بقوله: ﴿ويُسَبِّحونَهُ ولَهُ يَسْجُدونَ﴾[٦٦٢].

٦ – ذِكر الله عزّ وجلّ تسبيح الملائكة عليهم السّلام له خوفاً منه، وذلك بقوله: ﴿ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ والمَلائِكَةُ مِنْ خيفَتِهِ﴾[٦٦٣].

---

[٦٥٧] عدد من المختصّين بإشراف الشّيخ صالح بن عبد الله بن حميد، نُضْرَةُ النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم – صلّى الله عليه وسلّم، المرجع نفسه، ج ٣، ص ٩٨٣ – ٩٩٢ (بتصرّف).

[٦٥٨] سورة الصّافات، الآية ١٦٦.

[٦٥٩] سورة البقرة، الآية ٣٠.

[٦٦٠] سورة فُصِّلَت، الآية ٣٨.

[٦٦١] سورة الأنبياء، الآية ٢٠.

[٦٦٢] سورة الأعراف، الآية ٢٠٦.

[٦٦٣] سورة الرّعد، الآية ١٣.

٧ – ذِكر الله عزّ وجلّ تسبيح حَمَلَةَ العرش ومَن حولَه عليهم السّلام له، وذلك بقوله: ﴿الَّذينَ يَحْمِلونَ العَرْشَ ومَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ويُؤْمِنونَ بِهِ ويَسْتَغْفِرونَ لِلَّذينَ آمَنوا﴾[٦٦٤]، وقوله: ﴿وتَرى المَلائِكَةَ حافّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[٦٦٥].

ب – تسبيح نبيّ الله عزّ وجلّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم:

١ – أمَر الله عزّ وجلّ نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بالتّسبيح بحمده، وذلك بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[٦٦٦].

٢ – أمَر الله عزّ وجلّ نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بالتّسبيح بحمده مساءً وصباحاً، وذلك بقوله: ﴿وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالعَشِيِّ والإبْكارِ﴾[٦٦٧].

٣ – أمَر الله عزّ وجلّ نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بالتّسبيح في قسم كبير من اللّيل، وذلك بقوله: ﴿وسَبِّحْهُ لَيْلاً طَويلاً﴾[٦٦٨].

٤ – أمَر الله عزّ وجلّ نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بالتّسبيح حين يقوم من مجلسه، وقسماً من اللّيل، وبعد غروب النّجوم آخر اللّيل، وذلك بقوله: ﴿وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حينَ تَقومُ * ومِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وإدْبارَ النُّجومِ﴾[٦٦٩].

٥ – أمَر الله عزّ وجلّ نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بالتّسبيح في أوقات محدَّدة من اللّيل والنّهار لكي ينال من الله سبحانه وتعالى ما ترضى به نفسه، وذلك بقوله: ﴿وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ غُروبِها، ومِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وأطرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى﴾ [٦٧٠]، وقوله: ﴿ومِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وأدْبارَ السُّجودِ﴾[٦٧١].

---

[٦٦٤] سورة غافر، الآية ٧.

[٦٦٥] سورة الزُّمَر، الآية ٧٥.

[٦٦٦] سورة الحِجْر، الآية ٩٨.

[٦٦٧] سورة غافر، الآية ٥٥.

[٦٦٨] سورة الإنسان، الآية ٢٦.

[٦٦٩] سورة الطّور، الآيتان ٤٨ – ٤٩.

[٦٧٠] سورة طه، الآية ١٣٠.

[٦٧١] سورة ق، الآية ٤٠.

٦ – أمَر الله عزّ وجلّ نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بالتّسبيح والحمد شكراً على نصر الله عزّ وجلّ له، وذلك بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[٦٧٢].

ت – تسبيح أنبياء الله عزّ وجلّ عليهم الصّلاة والسّلام:

١ – أمَر الله عزّ وجلّ نبيّه زكريّا عليه السّلام بالتّسبيح مساءً وصباحاً تعبيراً عن شُكرِه لله سبحانه وتعالى على تبشيره بغلام، وذلك بقوله: ﴿وسَبِّحْ بِالعَشِيِّ والإبْكارِ﴾[٦٧٣].

٢ – ذَكر الله عزّ وجلّ تسبيح نبيّه داود عليه السّلام في المساء والصّباح وتسبيح الجبال والطّيور معه، وذلك بقوله:﴿ إنّا سَخَّرْنا الجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ والإشْراقِ * والطَّيْرَ مَحْشورةً، كُلٌّ لَهُ أوّابٌ﴾[٦٧٤] [٦٧٥].

٣ – ذَكر الله عزّ وجلّ تسبيح نبيّه يونس عليه السّلام استغفاراً من هَجْرِهِ قومه غاضباً منهم دون إذن الله عزّ وجلّ، وأنّ هذا التّسبيح كان سبباً في نجاته من الموت، وأنّ نصّ ألفاظ هذا التّسبيح هو للنّاس عامّة وليس ليونس عليه السّلام خاصّة، وذلك بقوله: ﴿وذا النّونِ إذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى في الظُّلُماتِ أنْ لا إلهَ إلاّ أنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الظّالمينَ * فَاسْتَجَبْنا لَهُ ونَجَّيْناهُ مِنَ الغَمِّ، وكَذَلِكَ نُنْجي المُؤْمِنينَ﴾[٦٧٦]، وقوله: ﴿فَلولا أنَّهُ كانَ مِنَ المُسَبِّحينَ * لَلَبِثَ في بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثونَ﴾[٦٧٧].

٤ – ذَكر الله عزّ وجلّ تسبيح نبيّه موسى عليه السّلام استغفاراً من طلبه رؤية ربِّه بعد أن رأى الجبل يخرّ دكّاً، وذلك بقوله: ﴿ولَمّا جاءَ موسى لِميقاتِنا وكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أرِني أنْظُرْ إلَيْكَ، قالَ لَنْ تَراني ولكِنِ

---

[٦٧٢] سورة النّصر، الآية ٣.

[٦٧٣] سورة آل عِمران، الآية ٤١.

[٦٧٤] سورة ص، الآيتان ١٨ – ١٩.

[٦٧٥] تسبيح الطّير إلهامٌ لها وإرشادٌ من الله الذي يَعلَم ما هي فاعلة، وليست الطّيور وحدها هي التي تُسَبِّحُ ربَّها وتَعبُده، بل ذكر القرآن الكريم أنواعاً أخرى من المخلوقات كالنّمل والنّحل، وهي كغيرها من سائر الحيوانات أُمَمٌ كأمثال الأُمَمِ الإنسيّة لها منطق، "أي: لغات"، تتفاهم به فيما بينها، وتُنسِّق روابطها الفرديّة والجماعيّة بواسطته، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وما مِنْ دابَّةٍ في الأرْضِ ولا طائرٍ يَطيرُ بِجَناحَيْهِ إلاّ أُمَمٌ أمْثالُكُمْ، ما فَرَّطْنا في الكِتابِ مِنْ شَيْءٍ، ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرونَ﴾، سورة الأنعام، الآية٣٨. ولغات كلّ نوع من أنواع الحيوانات، ومنها الطّيور، يُفهِمها الله تعالى لَمَن يشاء من عباده كما فَهَّمَها لسيِّدنا سليمان عليه السّلام معجزة خاصّة به، وكرامة له، وخارقة تخالِف مألوف البشر.

د. زغلول النّجّار، صُور من تسبيح الكائنات لله، المرجع السابق، ص ٦١.

[٦٧٦] سورة الأنبياء، الآيتان ٨٧ – ٨٨.

[٦٧٧] سورة الصّافّات، الآيتان ١٤٣ – ١٤٤.

انْظُرْ إلى الجَبَلِ فَإنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي، فَلَمّا تَجَلّى رَبُّهُ لِلجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وخَرَّ موسى صَعِقاً، فَلَمّا أفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إلَيْكَ وأنا أوَّلُ المُؤْمِنينَ﴾[٦٧٨].

ث – تسبيح المؤمنين:

١ – أمر الله عزّ وجلّ المؤمنين بذِكره كثيراً، والتّسبيح صباحاً ومساءً، وذلك بقوله: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اذْكُروا اللهَ ذِكْراً كَثيراً * وسَبِّحوهُ بُكْرَةً وأصيلاً﴾[٦٧٩].

٢ – ذَكر الله عزّ وجلّ صفةً من صفات المؤمنين، وهي السّجود مع التّسبيح، وذلك بقوله:﴿ إنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنا الَّذينَ إذا ذُكِّروا بِها خَرّوا سُجَّداً وسَبَّحوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وهم لا يَسْتَكْبِرونَ﴾[٦٨٠].

٣ – ذَكر الله عزّ وجلّ صفةً من صفات المؤمنين، وهي أنّهم لا تلهيهم مشاغل حياتهم الدّنيويّة عن عبادته، ومن هذه العبادات التّسبيح، وذلك بقوله:﴿في بُيوتٍ أذِنَ اللهُ أنْ تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فيها بِالغُدُوِّ والآصالِ * رِجالٌ لا تُلْهيهِمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عن ذِكْرِ اللهِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ يَخافونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيهِ القُلوبُ والأبْصارُ﴾[٦٨١].

وقد أشارت آيات عديدة أخرى إلى تسبيح المؤمنين، ومن هذه الآيات:

١ – ﴿قُلْ هذِهِ سَبيلي أدْعو إلَى اللهِ على بَصيرَةٍ أنا ومَنِ اتَّبَعَني، وسُبْحانَ اللهِ وما أنا مِنَ المُشْرِكينَ﴾[٦٨٢].

٢ – ﴿قُلْ آمِنوا بِهِ أوْ لا تُؤْمِنوا، إنَّ الَّذينَ أوتوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرّونَ لِلأذْقانِ سُجَّداً * ويَقولونَ سُبْحانَ رَبِّنا إنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعولاً﴾[٦٨٣].

٣ – ﴿إنّا أرْسَلْناكَ شاهِداً ومُبَشِّراً ونَذيراً * لِتُؤْمِنوا بِاللهِ ورَسُولِهِ وتُعَزِّروهُ وتُوَقِّروهُ وتُسَبِّحوهُ بُكْرَةً وأصيلاً﴾[٦٨٤].

ج – تسبيح الطّيور:

١ – ذَكَر الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم أنّ الطّيور تصلّي له وتُسبِّحه بطريقة تَعْلَمُها، وذلك بقوله: ﴿والطَّيْرُ صافّاتٍ، كُلٌّ قد عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسْبيحَهُ﴾[٦٨٥].

---

[٦٧٨] سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

[٦٧٩] سورة الأحزاب، الآيتان ٤١ – ٤٢.

[٦٨٠] سورة السّجدة، الآية ١٥.

[٦٨١] سورة النّور، الآيتان ٣٦ – ٣٧.

[٦٨٢] سورة يوسف، الآية ١٠٨.

[٦٨٣] سورة الإسراء، الآيتان ١٠٧ – ١٠٨.

[٦٨٤] سورة الفتح، الآيتان ٨ – ٩.

ح – تسبيح المخلوقات جميعاً:

ذكَر الله عزّ وجلّ في آيات عدّة في القرآن الكريم أنّ كلّ مخلوقاته، دون استثناء، تسبِّحه بطريقة لا يفهمها الجنّ والإنْس، ومن تلك الآيات:

١ – ﴿وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولَكِنْ لا تَفْقَهونَ تَسْبيحَهُمْ﴾[٦٨٦].

٢ – ﴿سَبَّحَ للهِ ما في السَّماواتِ والأرْضِ﴾[٦٨٧].

٣ – ﴿سَبَّحَ للهِ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ﴾[٦٨٨].

٤ – ﴿يُسَبِّحُ للهِ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ﴾[٦٨٩].

٣ – تسبيح البشر لله عزّ وجلّ في حالات خاصّة:

ذَكر الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم قيام بعض البشر بتسبيحه في حالات خاصّة تتعلّق بأحداث حدثت معهم، وفيما يلي عرض لبعض هذه الحالات:

أ – ذَكر الله عزّ وجلّ طلب نبيّه موسى عليه السّلام جَعْلَ أخيه هارون عليه السّلام نبيّاً، كي يساعده في تبليغ الرّسالة السّماويّة، كما ذَكر نيّته في تسبيح الله مع أخيه، وذلك بقوله: ﴿اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغى * قالَ رَبِّ اشْرَحْ لي صَدْري * ويَسِّرْ لي أمْري * واحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِساني * يَفْقَهوا قَوْلي * واجْعَلْ لي وَزيراً مِنْ أهْلي * هارونَ أخي * اشْدُدْ بِهِ أزْري * وأشْرِكْهُ في أمْري * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثيراً * ونَذْكُرَكَ كَثيراً * إنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصيراً﴾[٦٩٠].

ب – ذَكر الله عزّ وجلّ تسبيح نبيّ الله يونس عليه السّلام في بطن الحوت، بعد هَجْرِهِ قومه دون إذن الله عزّ وجلّ، وذلك بقوله: ﴿وإنَّ يُونُسَ لَمِنَ المُرْسَلينَ * إذْ أبَقَ إلى الفُلْكِ المَشْحونِ * فَساهَمَ فَكانَ مِنَ المُدْحَضينَ * فَالْتَقَمَهُ الحوتُ وهُوَ مُليمٌ * فَلَوْلا أنَّهُ كانَ مِنَ المُسَبِّحينَ * لَلَبِثَ في بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثونَ﴾[٦٩١].

---

[٦٨٥] سورة النّور، الآية ٤١.

[٦٨٦] سورة الإسراء، الآية ٤٤.

[٦٨٧] سورة الحديد، الآية ١.

[٦٨٨] سورة الحَشر، الآية ١، وسورة الصَّفّ، الآية ١.

[٦٨٩] سورة الجمعة، الآية ١، وسورة التّغابن، الآية ١.

[٦٩٠] سورة طه، الآيات ٢٤ – ٣٥.

[٦٩١] سورة الصّافات، الآيات ١٣٩ – ١٤٤.

ت – ذَكر الله عزّ وجلّ تسبيح أصحاب الجنّة بعد ندمهم على معصية الله عزّ وجلّ[٦٩٢]، وذلك بقوله: ﴿إنّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أصْحابَ الجَنَّةِ إذْ أقْسَموا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحينَ * ولا يَسْتَثْنونَ * فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وهُمْ نائِمونَ * فَأصْبَحَتْ كَالصَّريمِ * فَتَنادَوْا مُصْبِحينَ * أنِ اغْدوا على حَرْثِكُمْ إنْ كُنْتُمْ صارِمينَ * فَانْطَلَقوا وهُمْ يَتَخافَتونَ * أنْ لا يَدْخُلَنَّها اليَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكينٌ * وغَدَوْا على حَرْدٍ قادِرينَ * فَلَمّا رَأوْها قالوا إنّا لَضالّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرومونَ * قال أوْسَطُهُمْ أَلَمْ أقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحونَ * قالوا سُبْحانَ رَبِّنا إنّا كُنّا ظالِمينَ﴾[٦٩٣] [٦٩٤].

ث – ذَكر الله عزّ وجلّ في بعض آيات القرآن الكريم عدداً من الأسباب الدّاعية إلى تسبيحه سبحانه وتعالى، وفيما يلي بعض هذه الآيات:

١ – ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ لَآياتٍ لِأولي الألْبابِ * الَّذينَ يَذْكُرونَ اللهَ قِياماً وقُعوداً وعلى جُنوبِهِمْ ويَتَفَكَّرونَ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هَذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النّارِ﴾[٦٩٥].

٢ – ﴿سُبْحانَ الَّذي خَلَقَ الأزْواجَ كُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الأرْضُ ومِنْ أَنْفُسِهِمْ ومِمّا لا يَعْلَمونَ﴾[٦٩٦].

---

[٦٩٢] قال ابن عبّاس: كانت تلك الجنّة دون "صنعاء" في "اليمن" بفَرْسَخَيْن، غرَسها رجل من أهل الصّلاح وكان له ثلاثة بنين، وكان للمساكين كلّ ما تعدّاه المِنجل فلم يَجُذُّهُ من الكَرْم، فإذا طُرح على البساط فكلّ شيء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين. فإذا حصدوا زرعهم فكلّ شي تَعدّاه المِنجل فهو للمساكين، فإذا دَرَسوا كان لهم كلّ شيء انْتَثَر، فكان أبوهم يتصدّق منها على المساكين، وكان يعيش في ذلك في حياة أبيهم اليتامى والأرامل والمساكين، فلمّا مات أبوهم فعلوا ما ذَكر الله عنهم. فقالوا: "قَلَّ المال وكَثُرَ العِيال"، فتحالفوا بينهم لَيَغْدُوُنَّ غَدْوَةً قبل خروج النّاس ثمّ لَيَصْرِمُنَّها ولا تَعرِف المساكين. وهو قوله: ﴿إذْ أقْسَموا﴾، أي حَلَفوا لَيَصْرِمُنَّها، لَيَقْطَعُنَّ ثَمر نخيلهم إذا أصبحوا بظُلمة من اللّيل لئلاّ ينتبه المساكين لهم. والصَّرْم: القَطْع. ﴿ولا يَسْتَثْنونَ﴾، أي ولم يقولوا إن شاء الله. فتَنادوا مُصْبِحينَ ينادُي بعضهم بعضاً: ﴿أنِ اغْدوا على حَرْثِكُمْ إنْ كُنْتُمْ صارِمينَ﴾، عازمين على الصّرام والجِداد. وقيل: كان استثناؤهم قولهم: "سُبحان الله ربِّنا". وقيل: معنى ﴿ولا يَسْتَثْنونَ﴾، أي لا يستثنون حقّ المساكين. فجاءوها ليلاً فرَأوْا الجنّة مُسْوَدَّةً قد طاف ﴿عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وهُمْ نائِمونَ﴾.

القرطبيّ، تفسير القرطبيّ، المرجع السابق، ج ١٨، ص ٢٤٠ – ٢٤١.

[٦٩٣] سورة القلم، الآيات ١٧ – ٢٩.

[٦٩٤] عدد من المختصّين بإشراف الشّيخ صالح بن عبد الله بن حُمَيْد، نُضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم – صلّى الله عليه وسلّم، المرجع السابق، ج ٣، ص ٩٩٠ – ٩٩١.

[٦٩٥] سورة آل عِمران، الآيتان ١٩٠ – ١٩١.

[٦٩٦] سورة يس، الآية ٣٦.

٣ – ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أنْ يَقولَ لَهُ كُنْ فَيَكونُ * فَسُبْحانَ الَّذي بِيَدِهِ مَلَكوتُ كُلِّ شَيْءٍ وإلَيْهِ تُرْجَعونَ﴾[٦٩٧].

٤ – ﴿لِتَسْتَووا على ظُهورِهِ ثُمَّ تَذْكُروا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إذا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وتَقولوا سُبْحانَ الَّذي سَخَّرَ لَنا هَذا وما كُنّا لَهُ مُقْرِنينَ * وإنّا إلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبونَ﴾[٦٩٨].

٥ – ﴿سُبْحانَ الَّذي أسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرامِ إلى المَسْجِدِ الأقْصى الَّذي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا، إنَّهُ هُوَ السَّميعُ البَصيرُ﴾[٦٩٩].

ج – ذَكر الله عزّ وجلّ أنّ المؤمنين يسبِّحونه في الجنّة، وذلك بقوله: ﴿إنَّ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالِحاتِ يَهْديهِمْ رَبُّهُمْ بِإيمانِهِمْ، تَجْري مِنْ تَحْتِهِمُ الأنْهارُ في جَنّاتِ النَّعيمِ * دَعْواهُمْ فيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وتَحِيَّتُهُمْ فيها سَلامٌ، وآخِرُ دَعْواهُمْ أنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ﴾[٧٠٠].

ح – أمَر الله عزّ وجلّ نبيّه صلّى الله عليه وسلّم أن يُسَبِّحَهُ أمام الكافرين لإثبات أنّه بشر رسول يطيع الله عزّ وجلّ فيما أمَره به، وليس له أن يطلب منه ما طلبه الكافرون، وقد أشار الله عزّ وجلّ إلى طلبات الكافرين وأمره لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم بقوله: ﴿وقالوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعاً * أوْ تَكونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخيلٍ وعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنْهارَ خِلالَها تَفْجيراً * أوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أوْ تَأْتِيَ بِاللهِ والمَلائِكَةِ قَبيلاً * أوْ يَكونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أوْ تَرْقى في السَّماءِ ولَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ، قُلْ سُبْحانَ رَبّي هَلْ كُنْتُ إلاّ بَشَراً رَسولاً﴾[٧٠١].

أهميّة التّسبيح في السُّنَّة الشريفة:

أشار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى فضل التّسبيح في أحاديث عديدة، وفيما يلي بعض هذه الأحاديث:

١ – (كلمتان خفيفتان على اللّسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرّحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحَمده)[٧٠٢].

---

[٦٩٧] سورة يس، الآيتان ٨٢ – ٨٣.

[٦٩٨] سورة الزُّخرف، الآيتان ١٣ – ١٤.

[٦٩٩] سورة الإسراء، الآية ١.

[٧٠٠] سورة يونس، الآيتان ٩ – ١٠.

[٧٠١] سورة الإسراء، الآيات ٩٠ – ٩٣.

[٧٠٢] البخاريّ، صحيح البخاريّ، تحقيق محمّد زهير بن ناصر النّاصر، المرجع السابق، ج ٨، ص ٨٦، حديث رقم ٦٤٠٦.

٢ – (الطَّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن، أو تملأ، ما بين السّماوات والأرض، والصّلاة نور، والصّدقة برهان، والصّبر ضياء، والقرآن حُجَّةٌ لكَ أو عليك، كلّ النّاس يغدو فبائعٌ نفسه فمُعْتِقُها أو موبِقُها)[٧٠٣].

٣ – (أيَعجَز أحدُكم أن يكسِب، كلّ يوم، ألف حسنة؟). فسأله سائل من جلسائه: "كيف يكسِب أحدُنا ألف حسنة؟". قال: (يُسَبِّحُ مائة تسبيحة، فتُكتَبُ له ألف حسنة، أو تُحَطُّ عنه ألف خطيئة)[٧٠٤]. مراجعة الكلمات بين الياء والتاء.

٤ – (مَن قال حين يُصبِح وحين يُمسي: سُبحان الله وبحَمده، مائة مرة، لم يأتِ أحدٌ يوم القيامة بأفضلَ ممّا جاء به، إلاّ أحدٌ قال مِثْلَ ما قال، أو زاد عليه)[٧٠٥].

٥ – (يُصبح على كلّ سُلامى[٧٠٦] من أحدِكم صدقة، فكلّ تسبيحة صدقة، وكلّ تحميدة صدقة، وكلّ تهليلة صدقة، وكلّ تكبيرة صدقة، وأمْرٌ بالمعروف صدقة، ونَهْيٌ عن المنكر صدقة، ويُجْزِئُ من ذلك ركعتان يَرْكَعُهُما من الضُّحى)[٧٠٧].

٦ – (لَأنْ أقولَ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبَر، أحَبُّ إليّ ممّا طَلَعَتْ عليه الشّمس)[٧٠٨].

٧ – جاء الفقراء إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: "ذهَب أهل الدُّثورِ[٧٠٩] من الأموال بالدّرجات العُلا، والنّعيمِ المُقيم، يُصَلّونَ كما نُصَلّي، ويَصومون كما نَصوم، ولَهُمْ فَضْلٌ من أموالٍ يَحُجّونَ بها، ويَعْتَمِرون، ويُجاهِدون، ويَتَصَدَّقون". قال: (ألا أُحَدِّثُكُمْ؟ إنْ أخَذْتُمْ أدْرَكْتُمْ مَن سَبَقَكُمْ، ولم يُدْرِكْكُمْ

---

[٧٠٣] مسلم، صحيح مسلم، ج ١، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، المرجع السابق، ص ٢٠٣، حديث رقم ٢٢٣.

[٧٠٤] مسلم، صحيح مسلم، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، المرجع نفسه، ج ٤، ص ٢٠٧٣، حديث رقم ٢٦٩٨.

[٧٠٥] مسلم، صحيح مسلم، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، المرجع نفسه، ج ٤، ص ٢٠٧١، حديث رقم ٢٦٩٢.

[٧٠٦] السُّلامى: عظمة الإصبَع.

مختار الصِّحاح، المرجع السّابق، ص ١٥٣.

[٧٠٧] مسلم، صحيح مسلم، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، المرجع السابق، ج ١، ص ٤٩٨، حديث رقم ٧٢٠.

[٧٠٨] مسلم، صحيح مسلم، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، المرجع نفسه، ج ٤، ص ٢٠٧٢، حديث رقم ٢٦٩٥.

[٧٠٩] الدّثار: كلّ ما كان من الثّياب فوق الشِّعار. والمقصود من صفة "أهل الدّثور" هنا هم "الأغنياء".

مختار الصّحاح، المرجع السّابق، ص ١٠٢.

الشِّعار: ما وَلِيَ (لامَسَ) الجسد من الثّياب. وهو ما يُسمّى اليوم: الثّياب الدّاخليّة.

مختار الصّحاح، المرجع السّابق، ص ١٦٥.

أحدٌ بَعْدَكُم، وكُنتم خيرَ مَن أنتم بين ظَهرانيه، إلاّ مَن عَمِلَ مِثْلَهُ، تُسَبِّحونَ وتَحْمَدونَ وتُكَبِّرونَ خلْف كلّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين)[٧١٠].

وممّا ورد أيضاً عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في أمر التّسبيح الأحاديث التّالية:

١ – عن عليّ رضي الله عنه أنّ فاطمة اشتَكت ما تَلْقى من الرَّحى[٧١١] في يدها، وأتى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم سَبْيٌ، فانطلَقَت فلم تَجِدْهُ ولَقِيَتْ عائشة فأخبرتها. فلمّا جاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أخبرَته عائشة بمجيء فاطمة إليها، فجاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلينا، وقد أخَذْنا مضاجِعنا، فذهبنا نقوم فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (على مكانِكما). فقعد بيننا حتّى وجدتُ بَرْدَ قَدمِه على صدري، ثمّ قال: (ألا أعلِّمكما خيراً ممّا سألتُما؟ إذا أخذتُما مضاجِعَكما، أنْ تُكَبِّرا اللهَ أربعاً وثلاثين، وتُسَبِّحاهُ ثلاثاً وثلاثين، وتَحْمِداهُ ثلاثاً وثلاثين، فهو خيرٌ لكما من خادِم)[٧١٢].

٢ – (أفضل الكلام أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)[٧١٣].

٣ – جاء أعرابيّ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: "علِّمني كلاماً أقولُه". قال: (قل: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، الله أكبَر كبيراً، والحمد لله كثيراً، سبحان الله ربّ العالَمين، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العزيز الحكيم). قال: "فهؤلاء لربّي، فما لي؟". قال: (قل: اللَّهُمَّ اغفِر لي، وارْحَمْني، واهْدِني، وارْزُقْني)[٧١٤].

٤ – عن عائشة أُمِّ المؤمنين رضي الله عنها أنّها قالت: "إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقول في ركوعه وسجوده: (سُبّوحٌ قُدّوس، رَبُّ الملائكةِ والرّوح)"[٧١٥].

٥ – عن جُوَيْرِيَةَ أُمِّ المؤمنين رضي الله عنها أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم خرج من عندها بُكْرَةً حين صلّى الصُّبح وهي في مسجِدِها، ثمّ رجع بعد أن أضْحى وهي جالسة، فقال: (ما زلتِ على الحالِ التي فارَقْتُكِ عليها؟). قالت: "نعم". قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (لقد قلتُ بعدكِ أربعَ كلمات، ثلاثَ

---

[٧١٠] البخاريّ، صحيح البخاريّ، تحقيق محمّد زهير بن ناصر النّاصر، المرجع السابق، ج ١، ص ١٦٨، حديث رقم ٨٤٣.

[٧١١] الرّحى: الأداة التي يُطحن بها، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر، ويُدار الأعلى على قُطْب.

المعجم الوجيز، المرجع السّابق، ص ٢٥٩.

[٧١٢] مسلم، صحيح مسلم، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، المرجع السابق، ج ٤، ص ٢٠٩١، حديث رقم ٢٧٢٧.

[٧١٣] البخاريّ، صحيح البخاريّ، تحقيق محمّد زهير بن ناصر النّاصر، المرجع السابق، ج ٨، ص ١٣٨، باب إذا قال: والله لا أتكلّم اليوم، فصلّى، أو قرأ، أو سَبَّح، أو كَبَّر، أو حَمَد، أو هَلَّل، فهو على نِيَّته.

[٧١٤] مسلم، صحيح مسلم، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، المرجع السابق، ج ٤، ص ٢٠٧٢، حديث رقم ٢٦٩٦.

[٧١٥] مسلم، صحيح مسلم، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، المرجع نفسه، ج ١، ص ٣٥٣، حديث رقم ٤٨٧.

مرّات، لو وُزِنَتْ بما قلتِ منذ اليوم[٧١٦] لوَزَنَتْهُنّ[٧١٧]: سبحان الله وبحَمده، عَدَدَ خَلْقِه، ورضا نفسه، وزِنَةَ عرشِه، ومِدادَ كلماتِه)[٧١٨].

٦ – عن عائشة أُمِّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: "كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُكْثِرُ من قول: (سبحان الله وبحَمده، أستغفر الله وأتوب إليه)". قالت: "فقلت: يا رسول الله، أراك تُكْثِرُ من قول: ("سبحان الله وبحَمده، أستغفر الله وأتوب إليه)؟". فقال: (أخبَّرَني ربّي أنّي سأرى علامةً في أُمَّتي، فإذا رأيتُها أكْثَرْتُ من قول: سبحان الله وبحَمده، أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتُها ﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ﴾[٧١٩])، فالفتح فَتْحُ مكّة، (﴿ورأيتَ النّاسَ يَدْخُلونَ في دينِ اللهِ أفواجاً * فسَبِّحْ بحَمْدِ رَبِّكِ واسْتَغْفِرْهُ، إنّهُ كانَ تَوّاباً﴾[٧٢٠])"[٧٢١].

وقد أشار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في بعض أحاديثه إلى تسبيح مخلوقات الله عزّ وجلّ من غير الجِنِّ والإنْس، ومن هذه الأحاديث الحديثَين التّاليَين:

١ – (قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيّاً من الأنبياء، فأمَرَ بقرية النّمل، فأُحْرِقَت، فأوحى الله إليه: {إنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أحْرَقْتَ أُمَّةً من الأُمَمِ تُسَبِّح؟})[٧٢٢].

٢ – عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "كنّا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في سَفَر، فَقَلَّ الماء، فقال: (اطْلُبوا فَضْلَةً من ماء). فجاءوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليل، فأدْخَلَ يده في الإناء ثمّ قال: (حَيَّ على الطُّهورُ المُبارَك، والبَرَكَةُ من الله). فلقد رأيتُ الماءَ ينبعُ من بين أصابع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولقد كنّا نسمع تسبيح الطّعام وهو يُؤْكَل"[٧٢٣].

وتسبيح الله تعالى لا يعني الانقطاع عن الحياة لأنّ كلاًّ من عبادة الله بما أمَر، والقيام بواجب الاستخلاف في الأرض، وعِمارَتِها، وإقامة عدلِ اللهِ فيها، وَجْهانِ لعُملة واحدة هي عبادة الله الواحد القهّار. والإنسان يملك أن تكون حياته كلّها عبادةً للهِ دون أن ينقطع للتّسبيح والتَّعَبُّدِ كالملائكة، وذلك لأنّ الإسلام يَعتبر

---

[٧١٦] منذ اليوم: منذ صلاة الصّبح.

[٧١٧] لوَزَنَتْهُنّ: تَجاوَزَ وزنُهنَّ وزنَ ما قلتِ.

[٧١٨] مسلم، صحيح مسلم، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، المرجع السابق، ج ٤، ص ٤٠٩٠، حديث رقم ٢٧٢٦.

[٧١٩] سورة النّصر، الآية ١.

[٧٢٠] سورة النّصر، الآيتان ٢ – ٣.

[٧٢١] مسلم، صحيح مسلم، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٥١، حديث رقم ٤٨٤.

[٧٢٢] البخاريّ، صحيح البخاريّ، تحقيق محمّد زهير بن ناصر النّاصر، المرجع السابق، ج ٤، ص ٦٢، رقم الحديث ٣٠١٩.

[٧٢٣] البخاريّ، صحيح البخاريّ، تحقيق محمّد زهير بن ناصر النّاصر، المرجع نفسه، ج ٤، ص ١٩٤، حديث رقم ٣٥٧٩.

كلّ حركة صحيحة في هذه الحياة، وكلّ نَفَسٍ طاهرٍ يتنفَّسُه الفرد عبادةً لله، إذا تمّ التَّوجُّه بهما إلى الخالق سبحانه وتعالى في إخلاص، وتَجَرُّد، وصِدْق، ولو كانت تلك الحركة، وذلك النَّفَس، متاعاً ذاتيّاً حلالاً بطيِّبات الحياة[٧٢٤].

ويذكر أبو الحسن النَّيْسابوريّ في فضل التّسبيح أقوالاً كثيرة منها: "فإن أردتَ رضوان الله فسَبِّح: ﴿ومِنْ آناءِ اللَّيلِ فَسَبِّحْ وأطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى﴾[٧٢٥]، وإن أردتّ الخلاص من النّار فسَبِّح: ﴿سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النّارِ﴾[٧٢٦]، وإن أردتَ الفَرَجَ من البلاءِ فسَبِّح: ﴿لا إلهَ إلاّ أنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمينَ﴾[٧٢٧]" [٧٢٨].

ولا يقتصر ذِكر الله وتسبيحه على مجرّد تحريك اللّسان بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وبكلّ نَعْتٍ يليق بجلاله، وبكلّ تنزيهٍ له تعالى عن كلّ نقص، ولكن لا بدّ من موافقة النُّطق بالتّسبيح والذِّكر لاتِّصال القلب بالله، وامتلائه بمحبّته وخشيته، واشتغاله بمراقبته، وبالخوف من عقابه، وبالحرص على الفوز بجنّته، والنّجاة من عذابه. ولا بدّ من موافقة الذِّكر والتّسبيح لالتزام الجوارح كلّها بالكفّ عن محارم الله، وبالاجتهاد في عبادته وطاعته، فإقامة أركان الإسلام ذِكْرٌ لله وتسبيحٌ بحَمدِه، والحرص على أداء شعائر الله بتمامها، وعلى وقتها، ذِكر لله وتسبيحٌ بحمده، فإقامة الصّلاة ذِكْرٌ لله، بل في الأثَرِ ما يكاد يُخَصِّصُ الذِّكر بالصّلاة، مع التّسليم بأنّ مفهوم ذِكر الله هو أشملُ من أداء الصّلاة، لأنّه يشمل كلّ عملٍ أو نُطْقٍ أو فِكْرٍ يتذكَّر به العبد ربّه، ويتَّصل به عقله وقلبه، وتخشع به جوارحه. وإنّ الإنسان ليظلّ قلِقاً فزِعاً حائراً في هذه الحياة ما دام قلبه لاهياً عن ذِكر الله، فإذا عرف القلب طريقه إلى الله، وامتلأ بخشيته وتقواه، وألزَم الجوارح بطاعة مولاه، ورَطَّبَ اللّسان بذِكر الله وتسبيحه وحَمده، أنِسَ بمحبّة الله واستقام على منهجه، واطمأنّ إلى مصيره في حياته وبعد مماته.

ويربط القرآن الكريم في كثير من آياته بين تسبيح الله وذِكره، وبين تَغَيُّرِ الأوقات والأحوال، قال تعالى: ﴿يا أيّها الّذينَ آمَنوا اذْكُروا اللهَ ذِكْراً كثيراً * وسَبِّحوهُ بُكْرَةً وأصيلاً﴾[٧٢٩] [٧٣٠].

---

[٧٢٤] د. زغلول النّجّار، صُور من تسبيح الكائنات لله، المرجع السابق، ص ٤٣.

[٧٢٥] سورة طه، الآية ١٢٠.

[٧٢٦] سورة آل عِمران، الآية ١٩١.

[٧٢٧] سورة الأنبياء، الآية ٨٧.

[٧٢٨] النَّيْسابوريّ، تفسير النَّيْسابوريّ غرائب القرآن ورغائب الفرقان، المرجع السابق، ص ٢١٩.

[٧٢٩] سورة الأحزاب، الآيتان ٤١ – ٤٢.

[٧٣٠] د. زغلول النّجّار، صُور من تسبيح الكائنات لله، المرجع السابق، ص ٤٣ – ٤٤.

من فوائد التّسبيح:

من فوائد التّسبيح أنّه يَصل المؤمن بربّه، ويعمِّق الإيمان في القلب بالاستحضار الدّائم لعظمة الله، ووسيلةُ تَعَجُّبٍ يعلِن بها المسلم إعجابه بما يملأ نفسه من استحسان، أو ضيقه ممّا هو محطّ الاستنكار، ووسيلةُ قربى إلى الله واستزادة من فيض عطائه، ويُبقي اللّسان رَطْباً بذِكر الله، وشعاراً بين المسلمين يَتعارَفونَ ويَتواصلونَ منه، وتَنبيهَ الإمامِ حين يسهو في الصّلاة، ومن الوسائل العالية في تحصيل الثّواب، والتَّحلّي به يؤدّي إلى الجنّة والرِّضوان، ووسيلةُ الفقراء في إدراك درجات ثواب الأغنياء، وفيه كسبٌ لحُبِّ الله ومرضاته، ويحمي من غائلات الشّياطين، وصَدَقَةٌ على جوارح الإنسان[٧٣١].

[٧٣١] عدد من المختصّين بإشراف الشّيخ صالح بن عبد الله بن حُمَيْد، نُضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم – صلّى الله عليه وسلّم، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٠٠٣.

الخاتمة

إنّ ما مرّ أعلاه من معلومات هو جزء بسيط من الإشارات الدّالّة على عظمة الخالِق عزّ وجلّ، وعلى إعجاز خلْقه، والدّاعية إلى زيادة الإيمان به، وزيادة العبادة له شكراً على نِعَمِهِ التي لا تُحصى، والتي لا يُدركُها غالب النّاس.

وتدعو هذه الإشارات البشر إلى زيادة التّعلُّم للاستزادة من هذه المعلومات، بهدف استكشاف المزيد من المعلومات الدّالّة على عظمة الخالِق عزّ وجلّ من جهة، وبهدف الاستفادة من هذه المعلومات لخدمة النّفس والبشريّة جمعاء من جهة ثانية.

وأوّل خَطوة في هذا التّعلُّم هو الالتزام بأمر الله عزّ وجلّ الذي أنزله في أوّل كلمة أنزلها من القرآن الكريم، وهي: ﴿اقْرَأْ﴾[٧٣٢].

وقد لفت سبحانه وتعالى في هذه الآية نظر رسوله الكريم صلّى الله عليه وسلّم، والمسلمين كذلك، إلى أنّ القراءة لا تقتصر على ما هو مكتوب فقط، فالرّسول صلّى الله عليه وسلّم كان حين نزلَت الآية أُمِّيّاً لا يقرأ ولا يكتب، وكذلك كان حال عامّة المسلمين وقتها، كما لم يكن هناك كتاب ليقرؤوه حينها، ولكنّ القراءة تشمُل أيضاً التّفكُّر في ما حولهم، وملاحظة طبيعة الأشياء للاستفادة منها فيما يفيد البشريّة دنيا وآخرة.

وقد وجّه عزّ وجلّ رسوله صلّى الله عليه وسلّم، والمسلمين كذلك، إلى ما يجب أن يبدؤوا التّفكُّر به أوّلاً ثمّ إلى ما يليه، وذلك في الآيات الخمس الأولى من سورة العَلَق، وهي: ﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الّذي خَلَقَ * خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وربُّكَ الأكْرَمُ * الّذي عَلَّمَ بالقَلَمِ * عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾. فبدأ بالتّفكُّر في المعبود، وفي قُدرة الخَلْقِ لديه ﴿خَلَقَ﴾، ثمّ انتقل إلى التّفكُّر في مصدر خلْق الإنسان ﴿عَلَقٍ﴾، أي الطِّبِّ والتّشريح، ثمّ إلى التّفكُّر في نعمة تعلُّم الكتابة ﴿بالقَلَمِ﴾ التي أكرَم سبحانه البشريّة بها، ثمّ إلى ضرورة تدوين الاكتشافات والمعلومات التي يتمّ التّوصُّل إليها لتستفيد منها الأجيال القادمة عبر القرون، ولولا التّدوين لم يتعلّم النّاس إلاّ القليل النّادر الذي يذهب بوفاتهم ﴿عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾، فتتعلّم الأجيال القادمة ما لم تكن تعلَم، لتنطلق منه لتطوير ما تعلَّمَتْهُ وتدوِّن ما طوَّرَت للأجيال التي تأتي بعدها.

وختاماً، أسأل الله الكريم أن يتقبّل منّي هذا العمل، وأن يُثيبَني، ويُثيب كلّ قارئ له، وكلّ متفكّرٍ انطلق في تفكيره ممّا لفته في هذا البحث[٧٣٣]، خيراً يوم القيامة، إنّه سميع مجيب.

---

[٧٣٢] سورة العَلَق، الآية ١.

[٧٣٣] قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (فَلْيُبَلِّغِ الشّاهِدُ# الغائِب##، فرُبَّ مُبَلَّغٍ أوْعى من سامِع)، رواه البخاريّ، صحيح البخاريّ، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٧٦، حديث رقم ١٧٤١. والمقصود من هذا الحديث الشّريف أنّ النّاس يسمعون كلاماً كثيراً وينقلونه دون إدراك لماهِيَتِه وأهدافه، فيما يفهمه "المُبَلَّغُ" صاحب الاختصاص، فينطلق من الفهم الذي أنعم به الله عليه ليعمل ويبحث ويكتشف ما يفيد البشريّة جمعاء، أو جزءاً منها بإذن الله تعالى.

وآخرُ دعوايَ أنِ الحمد لله ربِّ العالَمين

[#] الشّاهد: مَن سمع الحديث المنقول مباشرة من الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

[##] الغائِب: مَن نُقِلَ إليه حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، و لم يسمعه منه مباشرة.

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم.

٢ – الكتاب المقدس [العهد القديم، التّوراة].

* * *

١ – د. إبراهيم محمّد سلقيني، الفقه الإسلاميّ، أحكام العبادات، دار الأنصاريّ، ط ١، حلب – سوريا، ل. ت..

٢– ابن أبي الدّنيا، التّواضع والخمول، تحقيق محمّد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٠٩ ه. – ١٩٨٩ م..

٣ – ابن الأثير، أُسْدُ الغابة في معرفة الصّحابة، تحقيق علي محمّد معوّض / عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٥ هـ. - ١٩٩٤ م..

٤– ابن تيمية، جامع الرّسائل، تحقيق د. محمّد رشاد سالم، دار العطاء، ط ١، الرّياض – المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤٢٢ هـ. – ٢٠٠١ م..

٥– ابن جُزَيّ الكَلْبِيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل، تحقيق د. عبد الله الخالديّ، دار الأرقم ابن أبي الأرقم، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٦ هـ. – ١٩٩٥ م..

٦– ابن الجوزيّ، زاد المسير في علم التّفسير، تحقيق عبد الرَّزّاق المهديّ، دار الكتاب العربيّ، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٢٢ هـ. – ٢٠٠٢ م..

٧– ابن حِبّان، صحيح ابن حِبّان، تحقيق شُعَيْبِ الأرنَؤوط، مؤسّسة الرّسالة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٠٨ هـ. - ١٩٨٨ م..

٨– ابن حَجَرَ العسقلانيّ، فتح الباري شرح صحيح البخاريّ، دار المعرفة، ط ١، بيروت - لبنان، ١٣٧٩ هـ..

٩– ابن حزم الأندلسيّ، الفَصل في المِلَلِ والأهواء والنِّحَل، مكتبة الخانجيّ، ط ١، القاهرة – مصر، ل. ت..

١٠– ابن حزم الأندلسيّ، المُحَلّى بالآثار، دار الفكر، بيروت – لبنان، ل. ت..

١١– ابن دُرَيْد الأزْدِيّ، جَمْهَرَةُ اللُّغة، تحقيق رمزي منير بعلبكيّ، دار العلم للملايين، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٠٨ هـ. - ١٩٨٧ م..

١٢– ابن قَيِّمِ الجَوْزِيَّة، إغاثة اللّهفان من مصايد الشّيطان، تحقيق محمّد حامد الفقيّ، مكتبة المعارف، ط ١، الرّياض - المملكة العربيّة السّعوديّة، ل. ت..

١٣– ابن قَيِّمِ الجَوْزِيَّة، بين ذَوق السّماع وذَوق الصّلاة والقرآن، تحقيق مجدي فتحي السَّيِّد، دار الصّحابة للتُّراث، ط ١، طنطا – مصر، ١٤١٠ هـ. – ١٩٩٠ م..

١٤– ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمّد سلامة، دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠ هـ. – ١٩٩٩ م..

١٥– ابن كثير، معجزات النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم (من كتاب البداية والنّهاية لابن كثير)، السَّيِّد إبراهيم أمين محمّد، المكتبة التّوفيقيّة، القاهرة – مصر، ل. ت..

١٦– ابن ماجة، سُنَنُ ابن ماجة، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربيّة / فيصل عيسى البابيّ الحلبيّ، القاهرة – مصر، ل. ت..

١٧– ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط ٣، بيروت – لبنان، ١٤١٤ هـ. – ١٩٩٤ م..

١٨– أبو بكر الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس، تحقيق، د. حاتم صالح الضّامن، مؤسّسة الرّسالة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٢ هـ. - ١٩٩٢ م..

١٩– أبو حَيّانَ الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تحقيق صدقي محمّد جميل، دار الفكر، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٢٠ هـ. – ٢٠٠٠ م..

٢٠– أبو داود، سنن أبي داود، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، صيدا / بيروت – لبنان، ل. ت..

٢١– أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، تحقيق شُعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسّسة الرّسالة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٢١ هـ. - ٢٠٠١ م..

٢٢– أحمد بن فارس بن زكريّاء القزوينيّ الرّازيّ، معجم مقاييس اللّغة، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٣٩٩ هـ. – ١٩٧٩ م..

٢٣– أحمد بن محمّد بن المهديّ الفاسيّ، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق أحمد عبد الله القرشيّ رسلان، د. حسن عبّاس زكي، ط ١، القاهرة – مصر، ١٤١٩ هـ. – ١٩٩٩ م..

٢٤– أحمد بن مصطفى المراغيّ، تفسير المراغيّ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ، ط ١، القاهرة – مصر، ١٣٦٥ هـ. - ١٩٤٦ م..

٢٥– إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ الفارابيّ، الصِّحاح تاج اللّغة وصِحاح العربيّة، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، ط ٤، بيروت – لبنان، ١٤٠٧ هـ. - ١٩٨٧ م..

٢٦– الألوسيّ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المَثاني، تحقيق علي عبد الباري عطيّة، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٥ ه. – ١٩٩٥ م..

٢٧ – البخاريّ، تخريج الأحاديث المرفوعة المسندة في كتاب التّاريخ الكبير للبخاريّ، إعداد د. محمّد بن عبد الكريم بن عُبَيْد، مكتبة الرّشد، ط ١، الرّياض – المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤٢٠ هـ. - ١٩٩٩ م..

٢٨ – البخاريّ، صحيح البخاريّ، تحقيق محمّد زهير بن ناصر النّاصر، دار طوق النّجاة، ط ١، ١٤٢٢ هـ. - ٢٠٠١ م..

٢٩ – البَغَوِيّ، تفسير البَغَوِيّ، تحقيق محمّد عبد الله النّمر وآخرون، دار طيبة، ط ٤، ١٤١٧ هـ. – ١٩٩٧ م..

٣٠ – البَغَوِيّ، شرح السُّنَّة، تحقيق شُعيب الأرنؤوط - محمّد زهير الشّاويش، المكتب الإسلاميّ، دمشق – سورية / بيروت – لبنان، ط ٢، ١٤٠٣ هـ. – ١٩٨٣ م..

٣١ – البيهقيّ، الأسماء والصّفات، تحقيق عبد الله بن محمّد الحاشديّ، مكتبة السّواديّ، ط ١، جدّة - المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤١٣ هـ. - ١٩٩٣ م..

٣٢ – البيهقيّ، السُّنن الكبرى، تحقيق محمّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، ط ٣، ١٤٢٤ هـ. – ٢٠٠٣ م..

٣٣ – التِّرْمِذِيّ، سُنَنُ التِّرْمِذِيّ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ، ط ٢، القاهرة – مصر، ١٣٩٥ هـ. - ١٩٧٥ م..

٣٤ – جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر، أيسر التّفاسير لكلام العليّ الكبير، مكتبة العلوم والحِكَم، ط ٥، المدينة المنوَّرة - المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤٢٤ هـ. – ٢٠٠٣ م..

٣٥ – الجُرجانيّ، التّعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياريّ، دار الكتاب العربيّ، ط ٢، بيروت – لبنان، ١٤١٣ هـ. – ١٩٩٢ م..

٣٦ – الحاكم النَّيْسابوريّ، المُسْتَدْرَكُ على الصّحيحين، تحقيق مُقبل بن هادي الوادعيّ، دار الحرَمين، ط ١، القاهرة – مصر، ١٤١٧ هـ. – ١٩٩٧ م..

٣٧ – حمّود بن عبد الله التُّوَيْجِريّ، إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط السّاعة، دار الصُّمَيْعِيّ، ط ٢، الرّياض – المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤١٤ هـ. – ١٩٩٤ م..

٣٨ – الدّارقَطنِيّ، سُنن الدّارقَطنِيّ، تحقيق شُعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسّسة الرّسالة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٢٤ هـ. – ٢٠٠٤ م..

٣٩ – الدَّهْلَوِيّ، حُجَّةُ الله البالغة، تحقيق السَّيِّد سابق، دار الجيل، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٢٦ هـ. – ٢٠٠٥ م..

٤٠ – الرّازيّ، التّفسير الكبير، دار إحياء التّراث العربيّ، ط ٣، بيروت – لبنان، ١٤٢٠ هـ. – ٢٠٠٠ م..

٤١ – د. زغلول النّجار، صور من تسبيح الكائنات لله، دار نهضة مصر، القاهرة – مصر، ١٤٢٢ هـ. – ٢٠٠١ م..

٤٢ – السّيوطيّ، الدُّرُّ المنثور في التّفسير بالمأثور، دار الفكر، ط ١، بيروت – لبنان، ل. ت..

٤٣ – الزَّمَخشرِيّ، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل، دار الكتاب العربيّ، ط ٣، بيروت – لبنان، ١٤٠٧ هـ. – ١٩٨٧ م..

٤٤ – صالح بن الحُسين الجعفريّ أبو البقاء الهاشميّ، تخجيل مَن حَرَّفَ التّوراة والإنجيل، تحقيق محمود عبد الرّحمن قَدَح، مكتبة العُبَيْكان، ط ١، الرّياض – المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤١٩ هـ. – ١٩٩٨ م..

٤٥ – الطّبرانيّ، مُسند الشّاميّين، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السّلفيّ، مؤسّسة الرّسالة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٠٥ هـ. – ١٩٨٤ م..

٤٦ – الطّبرانيّ، الرّوض الدّاني (المعجم الصّغير)، تحقيق محمّد شكّور محمود، المكتب الإسلاميّ – دار عمّار، بيروت – لبنان، عمان – الأردن، ط ١، ١٤٠٥ هـ. – ١٩٨٥م..

٤٧ – الطّبريّ، تفسير الطّبريّ، تحقيق د. عبد الله بن عبد المُحسِن التّركيّ بالتّعاون مع مركز البحوث والدّراسات الإسلاميّة بدار هَجَر، دار هَجَر، ط ١، المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤٢٢ هـ. – ٢٠٠١ م..

٤٨ – عائشة عبد الرّحمن (بنت الشّاطئ)، التّفسير البيانيّ للقرآن الكريم، دار المعارف، ط ٧، القاهرة – مصر، ل. ت..

٤٩ – عبد الحقّ بن غالب الأندلسيّ المحاربيّ، المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السّلام عبد الشّافي محمّد، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٢٢ هـ. – ٢٠٠٢ م..

٥٠ – م. عبد الدّايم كحيل، النّسيج الكونيّ .. بين العلم والقرآن، مجلّة الإعجاز العلميّ، تصدر عن الهيئة العالميّة للإعجاز العلميّ في القرآن والسُّنَّة، جدّة – المملكة العربيّة السّعوديّة، العدد ٢٤، جمادى الأولى، ١٤٢٧ هـ. – ٢٠٠٦ م..

٥١ – عبد الرّحمن بن صالح بن صالح المحمود، موقف ابن تَيْمِيَةَ من الأشاعرة، ص ٢٦١، مكتبة الرُّشد، ط ١، الرّياض – المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤١٥ هـ. – ١٩٩٥ م..

٥٢ – عبد الرّحمن بن ناصر بن عبد الله السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، تحقيق عبد الرّحمن بن مُعَلاّ اللُّوَيْحِق، مؤسّسة الرّسالة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤٢٠ هـ. – ٢٠٠٠ م..

٥٣ – عبد العزيز بن حمد بن ناصر بن عثمان آل مُعَمَّر، مِنحة القريب المجيب في الرَّدِّ على عُبّاد الصّليب، دار ثَقيف، ط ١، الطّائف – المملكة العربيّة السّعوديّة، ل. ت..

٥٤ – عبد القادر بن ملّا حويش السَّيِّد محمود آل غازي العانيّ، بيان المعاني، مطبعة التّرقّي، ط ١، دمشق – سورية، ١٣٨٢ هـ. – ١٩٦٥ م..

٥٥ – عبد الكريم بن علي بن محمّد النّملة، المهذّب في علم أصول الفقه المقارن (تحرير لمسائله ودراستها دراسة نظريّة تطبيقيّة)، مكتبة الرُّشد، ط ١، الرّياض – المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤٢٠ هـ. – ١٩٩٩ م..

٥٦ – عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن، دار الفكر العربيّ، ط ١، القاهرة – مصر، ل. ت..

٥٧ – عبد الله بن سليمان الغفيليّ، أشراط السّاعة، وزارة الشّؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، ط ١، المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤٢٢ هـ. – ٢٠٠٢ م..

٥٨ – عبد الله بن محمّد الغُنَيْمان، شرح كتاب التّوحيد من صحيح البخاريّ، مكتبة الدّار، ط ١، المدينة المنوّرة – المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤٠٥ هـ. – ١٩٨٥ م..

٥٩ – عبد الله سراج الدّين الحُسَيْنِيّ، الصّلاة في الإسلام، مكتبة دار الفلاح، ط ٥، حلب – سورية، ١٤٢٧ هـ. – ٢٠٠٦ م..

٦٠ – عدد من المختصّين بإشراف الشّيخ صالح بن عبد الله بن حُمَيْد، نُضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم – صلّى الله عليه وسلّم، دار الوسيلة، ط ٤، جدّة – المملكة العربيّة السّعوديّة، ل. ت..

٦١ – عزّ الدّين عبد العزيز بن عبد السّلام الملقّب بسلطان العلماء، تفسير القرآن (اختصار لتفسير الماوِرْدِيّ)، تحقيق د. عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٦ هـ. – ١٩٩٦ م..

٦٢ – علي علي صُبح، التّصوير القرآنيّ للقيم الخُلُقِيَّة والتّشريعيّة، المكتبة الأزهريّة للتّراث، ط ١، القاهرة – مصر، ل. ت..

٦٣ – عمر بن عليّ بن عادل الحَنْبَلِيّ الدِّمَشْقِيّ، اللُّباب في علوم الكتاب، تحقيق الشّيخ عادل أحمد عبد الموجود والشّيخ عليّ محمّد معوّض، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٩ هـ. - ١٩٩٨ م..

٦٤ – فيصل بن عبد العزيز الحريمليّ، توفيق الرّحمن في دروس القرآن، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزّير، دار العاصمة، ط ١، الرّياض - المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤١٦ هـ. – ١٩٩٦ م..

٦٥ – القرطبيّ، تفسير القرطبيّ، تحقيق أحمد البِرْدَوْنِيّ وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصريّة، ط ٢، القاهرة – مصر، ١٣٨٤ هـ. - ١٩٦٤ م..

٦٦ – القُشَيْرِيّ، لطائف الإشارات، تحقيق إبراهيم البَسْيونيّ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط ٣، القاهرة – مصر، ل. ت..

٦٧ – الماوِرْدِيّ، تفسير الماوِرْدِيّ، تحقيق السَّيِّد بن عبد المقصود بن عبد الرّحيم، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت - لبنان، ل. ت..

٦٨ – أ. د. محمّد أحمد الشّهاويّ، أسرار الكون، مكتب نائب رئيس مجلس الوزراء لشؤون الإعلام، دولة الإمارات العربيّة المتَّحِدة، ١٤٢٦ هـ. - ٢٠٠٥ م..

٦٩ – محمّد أحمد محمّد عبد القادر خليل مَلْكاويّ، عقيدة التّوحيد في القرآن الكريم، مكتبة دار الزّمان، ط ١، المدينة المنوّرة – المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤٠٥ هـ. – ١٩٨٥م..

٧٠ – محمّد أبو زهرة، أصول الفقه، دار الفكر العربي، القاهرة – مصر، لا طبعة، لا تاريخ.

٧١ – محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازيّ، مختار الصِّحاح، المكتبة العصريّة، ط ٣، بيروت – صيدا / لبنان، ١٤١٨ هـ. – ١٩٩٧ م..

٧٢ – محمّد بن أحمد بن سالم السّفاريينيّ، لوامع الأنوار البهيّة وسواطع الأسرار الأثَرِيَّة لشرح الدُّرَّة المُضِيَّة في عقد الفرقة المَرْضِيَّة، مؤسّسة الخافِقَيْن، ط ٢، دمشق – سورية، ١٤٠٢ هـ. - ١٩٨٢ م..

٧٣ – محمّد بن صالح بن محمّد العُثَيْمين، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشّيخ محمّد بن صالح العُثَيْمين، جمْع وترتيب فهد بن ناصر بن إبراهيم السّليمان، دار الوطن – دار الثُّرَيّا، ط الأخيرة، ١٤١٣ هـ..

٧٤ – محمّد بن عبد الله الشِّبليّ الدِّمشقيّ، آكام المرجان في أحكام الجانّ، تحقيق إبراهيم محمّد الجمل، مكتبة القرآن، القاهرة – مصر، ل. ت..

٧٥ – محمّد بن يوسف بن محمّد الحَيْدَرِيّ التّونسيّ، الأجوبة الكافية عن الأسئلة الشّاميّة، مطبعة السّعادة، القاهرة – مصر، ل. ت..

٧٦ – محمّد رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط ١، القاهرة – مصر، ١٤١١ ه. – ١٩٩٠ م..

٧٧ – محمّد سامي محمّد عليّ، الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم، دار المحبّة، دمشق – سورية، ل. ت..

٧٨ – محمّد سميح عافية، القرآن وعلوم الأرض، الزهراء للإعلام العربي، ط ١، ل. ب.، ١٤١٤ هـ. – ١٩٩٤ م..

٧٩ – محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر، ط ١، القاهرة – مصر، ١٤٢٠ هـ. – ١٩٩٨م..

٨٠ – محمّد صِدّيق خان بن حسن بن عليّ القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصريَّة، صيدا – بيروت / لبنان، ١٤١٢ هـ. – ١٩٩٢ م..

٨١ – محمّد الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير (تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، الدّار التّونسيّة للنّشر، ط ١، تونس – تونس، ١٩٨٤ م..

٨٢ – محمّد كامل طبّارة، آيُ سجود التّلاوة، ط ٣، بيروت – لبنان، ١٤٠١ هـ. – ١٩٨١ م..

٨٣ – محمّد كَرِّيِّمْ راجِح، مختصر تفسير القرطبيّ، دار الكتاب العربيّ، ط ٢، بيروت – لبنان، ١٤٠٦ هـ. – ١٩٨٦ م..

٨٤ – محمّد متولّي الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ – الخواطر، مطابع أخبار اليوم، القاهرة – مصر، ١٤١٨ هـ. – ١٩٩٧ م..

٨٥ – محمود بن محمّد المِنْياوِيّ، الجموع البهيّة للعقيدة السّلفيّة التي ذَكَرَها العلاّمة الشِّنْقيطِيّ في تفسيره أضواء البيان، مكتبة ابن عبّاس، ط ١، القاهرة – مصر، ١٤٢٦ هـ. – ٢٠٠٥ م..

٨٦ – مُسلِم، صحيح مُسلِم، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التّراث العربيّ، ط ١، بيروت – لبنان، ل. ت..

٨٧ – أ. د. مصطفى محمّد الجمّال، البَحْرَيْنِ والحاجزُ المائيّ بينهما، مجلّة الإعجاز العلميّ، تَصدر عن الهيئة العالميّة للإعجاز العلميّ في القرآن والسُّنَّة، جدّة – المملكة العربيّة السّعوديّة، العدد ٣٥، محرم ١٤٣١ هـ. – ٢٠١٠ م..

٨٨ – المعجم الوجيز، مجمَع اللّغة العربيّة، ١٤١٥ هـ. – ١٩٩٤ م..

٨٩ – المنجد في اللّغة والأعلام، دار المشرق، ط ٣٥، بيروت – لبنان، ١٩٩٦م..

٩٠ – المُنْذِريّ، التّرغيب والتّرهيب من الحديث الشّريف، تحقيق إبراهيم شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٧ هـ. – ١٩٩٦ م..

٩١ – منصور بن محمّد بن عبد الجبّار بن أحمد المَرْوَزِيّ، تفسير القرآن، تحقيق ياسر بن إبراهيم، دار الوطن، ط ١، الرّياض – المملكة العربيّة السّعوديّة، ١٤١٨ هـ. – ١٩٩٧ م..

٩٢ – الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، مطابع دار الصّفوة، ط ١، القاهرة – مصر، ل. ت..

٩٣ – د. نبيل راغب، العلم تجربة روحيّة، اقرأ سلسلة ثقافيّة شهريّة، دار المعارف، القاهرة – مصر، العدد ٦٠٢، سبتمبر ١٩٩٥ م..

٩٤ – نديم الجسر، قصّة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، مطابع المكتب الإسلاميّ، ط ٣، بيروت – لبنان، ١٣٨٩ هـ. - ١٩٦٩ م..

٩٥ – النّوويّ، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجّاج، دار إحياء التّراث العربيّ، ط ٢، بيروت – لبنان، ١٣٩٢ هـ. – ١٩٧٢م..

٩٦ – النَّيْسابورِيّ (نظام الدين الحسن بن محمّد بن حسين)، تفسير النَّيْسابورِيّ غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق زكريّا عُمَيْرات، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٦ ه. – ١٩٩٥ م..

٩٧ – النَّيْسابورِيّ (علي بن أحمد بن محمّد بن علي الواحدي)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق وتعليق الشّيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلميّة، ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٥ هـ. - ١٩٩٤ م..

٩٨ – هاشم محمّد سعيد دَفتردار المَدَنيّ، من فيض إعجاز القرآن، ل. د.، ل. ب.، ل. ت..

٩٩ – الهيثميّ، مَجمَع الزوائد ومَنبَع الفوائد، تحقيق حسام الدّين القُدْسِيّ، مكتبة القُدْسِيّ، ط ١، القاهرة – مصر، ١٤١٤ ه. - ١٩٩٤ م..

١٠٠ – وِلْ دْيورانْت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة محمّد بدران، دار الجيل، بيروت – لبنان / جامعة الدول العربية – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- ألسكو، تونس – تونس، ١٤٠٨ هـــ. – ١٩٨٨م..

١٠١ – د. وهبة الزّحيليّ، أصول الفقه الإسلاميّ، دار الفكر، دمشق – سورية / دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، ط ٢، ١٤١٧ هـــ. – ١٩٩٦ م..

١٠٢ – د. وَهْبَة الزُّحَيْلِيّ، التّفسير المنير في العقيدة والشّريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، ط ٢، دمشق – سورية، ١٤١٨ ه. – ١٩٩٨ م..

المراجع الإلكترونيّة:

١ – د. عبد الرحيم خير الله الشريف، شبهة سجود الشمس تحت العرش،
http://www.quran-m.com/?/quran/article/٢٣٥٨/
في ١٢ / ١٢ / ٢٠١٦ م..

٢ – محمد بهجة الأثري، الألفاظ الحضارية ودلالاتها وأمثلة منها (القرسطون أو القارسطون)،
http://www.alukah.net/literature_language/٠
في ١١ / ١٢ / ٢٠١٦ م..

٣ – محمد فريد، ما هي السنة الضوئية، ٢٤ شباط (فبراير)، ٢٠١٥ م.،
http://mawdoo٣.com/

٤ – موسوعة الجزيرة فضاء من المعرفة الرقمية،
http://www.aljazeera.net/encyclopedia/conceptsandterminology/
في ١ / ٢ / ٢٠١٦ م..

٥ – د. نوري الوائِلِيّ، الميزان في القرآن: طبّ الميزان، شبكة النّبأ المعلوماتية – الثّلاثاء ٧ ربيع الثّاني ١٤٢٨ هـــ. – ٢٤ نيسان ٢٠٠٧ م..

٦ – د. م. يحيى وزيري، إعجاز القرآن الكريم في وصف حركة الظلال (الظل الساكن)، تم إلقاء هذا البحث في المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنَّة، الكويت نوفمبر ٢٠٠٦م..
http://www.egyptarch.net/quranmiracles/shadowmove.htm
في ١٨ / ١٠/ ٢٠١٤

٧ – http://www.al-akhbar.com/node٩٥٥٨٦

المحتوى

المقدِّمة..... ٤
الكون الموزون بميزان الخالق ٨
الميزان في القرآن الكريم: ٨
المحور الأوّل: ميزان خَلْقِ الخلائق:..... ١٥
المادّة الخضراء في النّباتات: ٢٥
نماذج من دقيق صُنْعِ اللهِ الموزون: ٢٩
المحور الثّاني: ميزان العدل بإنزال الكتب السّماويّة:..... ٣١
المحور الثّالث: ميزان العدل بين النّاس: ٣٤
ميزان التّعامل التّجاريّ بين النّاس: ٣٥
المحور الرّابع: ميزان الأعمال يوم القيامة:..... ٣٧
موازين بعض الأعمال في السُّنَّة الشّريفة: ٤٠
الكون السّاجد..... ٤٢
السّجود لغة:..... ٤٢
المسجِد لغة: ٤٣
السّجود اصطلاحاً:..... ٤٤
السّجود شاملٌ لجميع المخلوقات:..... ٤٤
أنواع السّجود: ٤٦
أهميّة السّجود: ٥٦
النّظر إلى موضع السّجود أثناء الصّلاة: ٥٧

الاعتراض على السّجود: ٦٢
الظِّلُّ ووقتُ صلاتَي الظُّهر والعصر: ٧٠
آراء لبعض العلماء حول سجود الشّمس: ٧٥
سجود شجرٍ وحَجَرٍ إكراماً للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: ٨٠
تحريم سجود الإكرام عند المسلمين: ٨١
وقفة مع آياتِ السّجود في القرآن الكريم: ٨٤
فضل السّجود: ٨٨
الخشوع في الصّلاة: ٩٠
سجود يوم القيامة: ٩٠
كيفيّة السّجود في حالات خاصّة: ٩٢
الكون المُسَبِّح ٩٤
مقدِّمة: ٩٤
التّسبيح لغة: ٩٥
التّسبيح اصطلاحاً: ٩٦
أفعال التّسبيح: ٩٧
أنواع التّسبيح: ١٠١
تسبيح المخلوقات: ١٠٣
من معاني التّسبيح: ١٠٤
من أنواع التّسبيح في القرآن الكريم: ١٠٥
أهميّة التّسبيح في السُّنَّة الشريفة: ١١٥
من فوائد التّسبيح: ١٢٠
الخاتمة ١٢١
المصادر والمراجع ١٢٣
المحتوى ١٣٢

هذا الكتاب منشور في